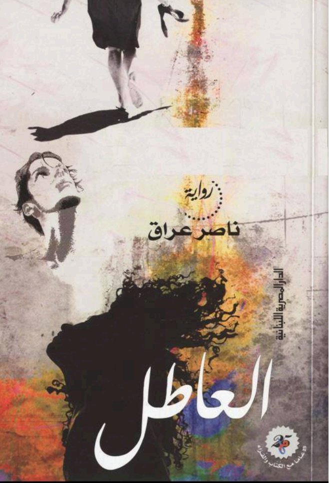
رواية
ناصر عراق
الدار المصرية اللبنانية
العاطل
25 عاما مع الكتاب والقراء

إلى الدكتورة رشا عبد الله

زوجتي الحبيبة وبهجتي الدائمة

ناصر عراق

[redacted]

1

هـذا أنـا

نعـم... أنـا لم أتمكـن من تقبيـل أي فتـاة طوال حياتي، علـى الرغم من أنـنـي سـأكمل ثلاثين عامًا بعد شـهر واحـد فقط من الآن! أعـرف أنكم قد لا تصدقونني، فما من شـاب في عام 2006 لم يتمتع بلذة لمس النسـاء، فما بالكـم بواحـد مثلي لم يرَ طوال حياته امرأة عاريـة أبدًا، ولا حتى تطلع إلى نهـد أنثى متكبر، يصبو بشـغف إلى المداعبة والتقبيـل. دعكم من تجاربي المؤسـفة مع هند المغربية وإيرينا الروسـية وسـوما الصينية، فهذه قصص أخرى مخجلة ومحزنة، لا يمكن حسابها أو الاعتداد بها.

حسـنًا... ستسـألونني لماذا حرمت فمي من متعة تذوق شـفاه المرأة؟ وهـل هـذا الأمر يعـود إلى خلل جيني ونفسـي، يجعلني أهفـو إلى من هم مثلي من الشباب وأنفر من الجنس الناعم؟ باختصار ستسـألونني: هل أنا شـاذٌ لا تتحـرك مشـاعر الجنس داخلي إلا إذا لمحت فتى أملـح الوجه؟ وسـأرد عليكـم فـورًا وأطمئنكـم، بأنني شـاب مكتمل الرجولـة، تحرقني الشـهوة، وتكوينـي الرغبـة... أكره الشـواذّ وأتقزز منهـم، لدرجة أنني حين التقيت واحدًا من هؤلاء في السـجن في دبي وكان فليبيًّا، نفرت منه على

الفور، وظللت ملتصقًا بأمجد صفوان على الرغم من انهياره النفسي الشديد وبكائه المتواصل. ثم أن نيران الرغبة تكويني حين أغرز عيوني خلسة، وأنا جالس أدخن الشيشة في المقهى، في السيقان والمؤخرات المكتنزة للفتيات والنساء اللاتي يعبرن أمامي، وأصاب بخجل يصل إلى حد الرعب، إذا وجدتني محشورًا داخل أوتوبيس، إذ تشتعل ذكورتي رغمًا مني لأي سبب وأعجز عن إطفائها، وتصبح أي حركة احتكاك مع من هم ملتصقون بي داخل الأوتوبيس كارثة بالنسبة إليّ.

سأحكي بصراحة أكثر، وأعلن لكم أنني تعرضت للصفع على وجهي مرتين داخل الأوتوبيس، من امرأتين مختلفتين بسبب ألاعيب الذكورة وقوانين الشهوة!

وأقسم لكم أنني لم أسعَ أبدًا إلى الوقوف خلف أي فتاة أو امرأة داخل الأوتوبيس، بل كنت أجاهد وأبتعد قدر طاقتي عن بنات حواء؛ حتى لا تفضحني غريزتي التي تتقد فجأة كالنيران من دون إذني.

لا تقلقوا... لم أنس السؤال الرئيسي، وسأجيب عنه حالًا: لقد قهرني أبي.. هذه هي الإجابة السليمة والوحيدة التي تشرح لكم كيف لشاب مثلي على مشارف الثلاثين لم يفرق، ولا مرة، في جحيم القبل! ولم يحتضن، ولا مرة، فتاة دافئة ذات شعر ناعم ومنسدل، ولم يعبث، ولا مرة، بجسد أنثى هائجة تفتش عن الارتواء. ولم يتلذذ، ولا مرة، وهو يمسك يد امرأة ليمررها على حيوانه المشتعل، فيفرح بجسمه ويتشي بذكورته!

نعم: أبي.... هو المشكلة وهو المأساة! صحيح أنه يعاني الآن أمراضًا مؤلمة، تجعلني أرسل له كل شهر مئة دولار للمساهمة في تكاليف علاجه، ولكن ذلك لم يمنعني من أن أكرهه.

لا تعجبوا، فأنا أكره أبي، ولا أطلب له الرحمة، وسأفرح كثيرًا عندما يرسلون لي من القاهرة «مسج» على الموبايل، يخبرونني فيه أن أبي قد مات! آنذاك قد أدعو أصدقائي هنا لتناول العشاء والشراب في أفخم المطاعم، حتى لو كلفني الأمر نصف راتبي! وسأقول لهم بصراحة: إن هذه الدعوة الكريمة، والاحتفال الصاخب، تعبير عن ابتهاجي برحيل أبي هذا الصباح!

عفوًا! لا تظنوا أنني أنتظر موته على أحر من الجمر بغية أن أرث منه شيئًا ما، فهو رجل فقير الآن، مجرد ضابط عجوز يتقاضى معاشًا بائسًا، كما لا تعتقدوا أنني إنسان كافر وشيوعي كمنصور ابن خالتي، لا يقدس الدين الذي يحضّنا على ضرورة أن نخفض جناح الذل من الرحمة لوالدينا! بل أنا شاب مؤمن أصوم رمضان كاملًا، وأحافظ قدر طاقتي على إقامة الصلاة، صحيح أنني قد أنشغل عن أحد الفروض، أو أتكاسل عن أدائها خاصة صلاة الفجر في الشتاء؛ نظرًا للبرد الشديد، ولكني حريص على أداء صلاة الجمعة في المسجد القريب من بيتي أيًا كان موقع سكني، وأركز كثيرًا على الخطبة التي كان يلقيها الشيخ عبد الرحمن ياسين، وقد أبكي أحيانًا من هول العذاب الذي ينتظرني، إذا كان حظي أن أقضي حياتي الآخرة في جهنم، لا سمح الله.

آه..... نسيت أن أخبركم أن اسمي هو محمد عبد القوي الزبال........ من فضلكم لا تضحكوا.

لقد بذلت جهدًا كبيرًا عندما جئت إلى هنا لأمسح هذا اللقب المخزي من اسمي، وأظن أنني نجحت إلى حد كبير، فلا أحد هنا يعرف «الزبال»

هذا إلا هند، التي ضحكت بشدة عندما اطلعت عليه، وهي مستلقية عارية على السرير تقلب في جواز سفري!

نعم «الزبال»، ولا أعرف حتى الآن سر هذا الاسم أو اللقب، ومرة نلت «علقة» ساخنة بالعصا من أبي، وأنا لم أتجاوز العاشرة؛ لأني سألته بصراحة: «هل كان أبوك زبالًا؟».

ضربني.... ولم أعرف الإجابة حتى الآن، لكن أصدقائي في مصر ينادونني بمحمد الزبال، وأحيانًا يسقطون محمد؛ لأنه مكرر ومنتشر بكثرة في حيِّنا فيصبح اسمي الزبال، الأمر الذي كان يؤلمني كثيرًا، لكني تعودت عليه مع مرور الزمن، على الرغم من محاولاتي الخجولة لإثنائهم عن مناداتي بهذا اللقب السخيف!

دعوني أَعُدْ إلى السبب الذي يجعلني أكره أبي، وأنتظر خبر موته، كما ينتظر العاشق الملهوف نظرة من مليكة فؤاده. وبالمناسبة لست أنا فقط من يحلم بموت أبي، بل أشقائي الثلاثة أيضًا يرتكبون الحلم نفسه، وهم بالترتيب: حسن 40 عامًا، نجاة 38 عامًا، ثم ثريا 33 عامًا وأنا.

كلنا نبغضه، وكلّ منا ينظر إلى الآخر بلهفة عندما نسمع صوت سعاله الشديد منطلقًا من غرفته، وكلّ منا يمنّي نفسه أن تخرج روحه مع هذا السعال المتواصل!

معذرة... كي أكون دقيقًا، لا أخفي عليكم أنني أحزن لأجله مرات، عندما أجده هكذا مسحوقًا أمام وحش المرض، لكن هذا الحزن لا يدوم طويلًا؛ إذ سرعان ما أجدني متأملًا لحجم القهر الذي زرعه في صدري فأنقم عليه، وألعنه وأدعو أن يخطف عزرائيل روحه فورًا!

هـل تعلمـون أنه ضربني بقبضة يده علـى وجهي عندمـا حصلت على الثانوية العامة؛ لأني أخبرته برغبتي في الالتحاق بكلية الزراعة ليس حبًا في الورود والنباتات، بل كرهًا في الرياضة والحسـاب، لأني أعرف أنه يرغب أن يدفعني دفعًا للالتحاق بكلية التجارة، ولقد فقدت الوعي آنذاك ونزف الـدم بغـزارة من أنفي وفمـي - نسـيت أن أقول لكم إنـي نحيف وضعيف البنيان نسـبيًا - وعندما أفقت وجدته واقفًا بشـاربه الكثيف فوق سـريري، وهو يصرخ:

- هل تريد أن تكون فلاحًا يا ابن العاهرة، لن تدخل إلا التجارة يا كلب!

أرجوكـم لا تظنـوا أن الكلـب هـو الحيـوان الوحيـد الـذي نُشَبَّهُ به أنا وإخوتـي فـي منزلنا، بل هنـاك الحمار، والجاموسـة، والبغـل؛ فأنا حمار، ونجاة جاموسة، وحسن بغل! أما أمي فهي البهيمة الدائمة!

بالمناسبة... هذه أخف الشتائم وأرقّها على لسـان أبي، لأن معظم ألفاظه غارقة في وحل البذاءة، وأنا لا أجرؤ على نطقها أو كتابتها!

لا تتعجبـوا، فهو يسـتخدم أفحش الكلمات عندما يسـب أمـي أو نجاة أو ثريـا، مـن دون أدنى خجل، ومع ذلك فقد أجـبر الفتاتين على الالتحاق بالثانوية التجارية، على الرغم من تفوقهما في الشـهادة الإعدادية حتى تنهيا تعليمهمـا مبكـرًا، ثم منعهمـا..... ولكن تلك حكاية أخرى سـيأتي ذكرها فيما بعد!

شـتائم أبـي هذه كانت تسـبب لي حرجًـا بالغًا وأنا طفـل وصبي وحتى وأنا شـاب، أمام جيراني وأصدقائي، حيث كان لا يتورع عن أن يصرخ من النافذة وأنا ألعب في الحارة: اصعد يا حمار... بسـرعة.

وهكـذا تظـل هذه العبـارة على لسـان الأولاد في الحـارة، كلما رأوني يتطلقونها سـاخرين بسـبب، ومن غير سبب، وحتى تسـنح الظروف البائسـة ليستمعوا إلى عبارة أخرى من فم أبي القذر مثل: أين الخبز يا بغل؟ فينسـون الحمـار، ويتشـبثـون بالبغل.. أستطيع أن أزعـم الآن، أن كل أهالي الحارة قد سـمعوا هذا السـب الذي خرج من فم أبي بأعلـى صـوته وهو واقف في النافذة، عندما أرسلني لأشتري الخبز من المخبز الذي يقع في آخر الشارع العـام فوجدته مزدحمًا جدًّا، فأخفقت في الحصـول علـى ما أريد، وهكذا حيـن رآنـي قادمًـا أطأطئ رأسـي خجـلًا نعتنـي بالبغل، ثم بصـق علي من النافذة من الدور الثاني، أمام عيون أهل الحارة.

منى ابنة عم محمود العطار، والتي تسـكن في المنزل الذي يلي منزلنا، كانـت أحيانًـا تنظر إليّ بشـفقة وأنا طفل، فهـي تصغرني بعـام واحد فقط، وكنـت أحـب أن ألعب معها وأحـاول التودد إليها إذا كانت مشـغولة عني، لكـن عندمـا كنت أنـال نصيبـي من شـتائم أبي علـى الملأ، أتجنـب تمامًا الاقتراب من منى، أو أن أجعلها تراني.

آه نسـيت أن أخبركـم أن الحارة التي أسكن بها اسـمها حارة «السـوق القديـم»، وأنـا متيقن مـن أن أحدًا منكم لم يسـمع بها من قبـل، فهي حارة منسـية لا يوجد لها ذكر على الخريطة، تخترق حيًّا فقيرًا بائسًا اسمه دمنهور شـبرا، يقع ضمن حدود مدينة شـبرا الخيمة التي تعد آخر مكان في القاهرة جهة الشـمال؛ فهي التي تربط بين العاصمة ومحافظة القليوبية.

المهـم أني ولدت في هذه الحارة عام 1976، وعندما كبرت قليلًا كنت أنزعج من منزلنا المتهالك، وأنا أرى المسـاكن الشـعبية تنتشر حول منطقة

دمنهور فأحســد ساكنيها، وكنت أسمع من الذين يكبرونني أن هذه المنطقة كلها كانت عبارة عن مساحات شاسعة من الحقول الخضر، باستثناء حارتنا والأزقة الصغيرة التي تتفرع عنها.

لكنـي أؤكد لكـم أنني لـم أرَ أي حقل في هـذه المنطقـة، التي اكتظت بمســاكن حجازي، وقسـم شـرطة شـبرا الخيمة أول، ومحكمة، ومدارس ومعهد ديني ومستـشفى صغيـر. صحيح أن الجزيرة التـي تقع في الجانب الآخر من النيل تزدان بحقول ذرة، كنت أراها بعيني وأنا أقف مع الأصدقاء على شـاطئ النهـر الذي يبعد عـن حارتنا بمسـافة 200 متر فقـط، إلا أنني لا أسـتطيع القول بأني نشـأت في بيئة ريفية، ولكن يمكن الكلام عن نشـأة في بيئة شعبية فقيرة منهكة ذات نكهة ريفية!

طبعًا... سيـسألني أحد الخبثاء: إذا لم تكن قد حظيت بلذة تقبيل النساء وما يتبعها، فكيف تلبي أشواقك الجنسية؟

ســأقول لكم وبصدق، فأنا لن أخجل من الكلام بصراحة عن أهم شيء يؤرق الشـباب، أو يرجّ كيان الصبي رجًا عندما يشعر بذنب الشهوة يتجول في دمه، فيحس بأن نيرانًا قد اتقدت في جسمه عند رؤية أي فتاة أو لمس يد أي بنت! إنه الجنس يا أعزائي، مصيبتي، ومصيبة الشـباب كلهم.. لا أدري هل هو مصيبة للبنات مثلنا أم لا؟

المهـم... لـن أخجل وأشـهد وأعتـرف بأن العـادة الســرية هي ملاذي ونعيمـي وعذابي في هذه الدنيا، وإلا فقدت صوابي، ومزّقت شـراييني من سـطوة الرغبة الجامحة التي لا يـستطيع أي شاب مقاومتها. لكن مهلًا، فأنا

لم أرضخ لسحر العادة السرية، فور أن شعرت لأول مرة بوحش الشهوة يتسكع في جسدي، بل بعد عامين تقريبًا من مبلغي مبلغ الرجال.

قبل ذلك، كنت عبدًا للاحتلام، فأفرغ طاقتي الجنسية وأنا نائم، حيث أراني في المنام أضاجع فتاة ما، لأصحو سعيدًا لأني تخلصت في الحلم من مياه الجنس الساخنة، ومذعورًا لأن ملابسي الداخلية قد تعرضت للبلل بصورة حقيقية، وليس في الحلم فقط!

أعرف أن كل شاب سيفهم هذا الكلام، لكني غير متأكد بالمرة، هل ستفهمه البنات أم لا؟ وأنا أعتذر مسبقًا إذا كان كلامي قد سبب لهن حرجًا ما!

منصور ابن خالتي هو الذي أنقذني من ورطة الاحتلام كل ليلة تقريبًا، ومن خجلي أمام أمي وشقيقتي عندما أستيقظ في الصباح وملابسي مبلولة. كان منصور الذي يسكن في أول حارتنا ويكبرني بعام واحد فقط، قد اقتنى مجلة فضائحية - لا أعرف من أين - وبدأ يطلعني عليها سرًا في غرفته الشائخة الجدران، فلما رأى اضطرابي واحمرار وجهي من فرط الشهوة، وأنا أرى لأول مرة نهودًا وأجسادًا لفتيات عاريات وأوضاعًا جنسية ساخنة بين الرجال والنساء، قال لي بحسم:

- قم....ادخل الحمام.

- لا أريد أن أقضي حاجتي أو أتبول.

ضحك بشدة آنذاك، وهمس في أذني:

- قم.... تخلص من توترك الجنسي.

سألته ببلاهة:

- كيف؟

قال لي:

- هناك صابونة في الحمام... ضع رغوتها على...........

عمومًا لا أريد أن أخوض في تفاصيل العادة السرية؛ حتى لا يصاب بعضكم بالتقزز مني، أو يظن أني شاب لا هم لي سوى الجنس.

على أية حال.... من يومها وأنا عبد بمعنى ما لهذه العادة التي كنت أمارسها 5 مرات في اليوم أحيانًا، أما الآن، فلا يتجاوز دخولي الحمام من أجل سرقة اللذة إلا مرتين كحد أقصى في اليوم الواحد! وعزة نفسها تدري ذلك وتكتئب.

بالمناسبة، أنا لا أعرف حتى الآن، هل البنات يمارسن العادة السرية مثلنا أم لا؟

وهل هناك سائل ما يتدفق منهن فيتشين ويشعرن بلذة سحرية مثلنا؟

إن منصور ابن خالتي أكد لي، فيما مضى، أنهن مثلنا في مسألة العادة السرية هذه، ولكنني لا أعرف أي تفاصيل عن هذه المسألة بالنسبة إلى البنات!

آسف لأنني أطلت في هذا الأمر، لكنني أحب أن أوضح لكم من أنا تمامًا، وحتى لا تعجبوا كيف حتى هذه اللحظة لم أحضن فتاة في صدري، ولم أقبض على شفتي أي امرأة بشفاهي!

بالمناسبة لا تحسبوا أن البنات ينفرن مني لأني دميم الوجه والملامح، فهذا خطأ.. صحيح أنني لست وسيمًا كنجوم السينما مثل أحمد عز وأحمد السقا وكريم عبد العزيز أو حسين فهمي فيما غبر من الأيام، ولكنني أيضًا لست بشع التقاطيع، فأنا شاب عادي جدًّا، خمري اللون مع ميل قليل إلى السمرة، شعري أسود متوسط الخشونة وكثيف نسبيًّا، أشبه آلاف بل ملايين المصريين، لا ألفت انتباه أحد بوسامتي غير الموجودة أصلًا، ولا ينزعج من ملامحي أحد .. عيناي لا يشع منهما بريق حاد يكشف عن ذكاء وحضور، وفي الوقت نفسه فنظراتي ليست باهتة، أو نعسانة تنم عن غباء وكسل!

حين تخرجت في كلية التجارة - جامعة عين شمس عام 2000 - لم أجد عملًا بسهولة، الأمر الذي كان يعرّضني للتقريع اليومي من والدي، الذي يصرخ في وجهي قائلًا: الفاشلون فقط هم الذين لا يجدون عملًا.

كنت أتمزق من داخلي، وأنا أحاول أن أوضح له أن الحكومة رفعت يدها عن تعيين أمثالي في وظائفها، وأن البطالة بين الشباب المتعلم هي عنوان العصر، فينظر إليّ باستخفاف وهو يزمجر:

- هذا كلام منصور ابن خالتك... الحيوان الشيوعي.

لم أحتمل عنف التوبيخ اليومي، ولأني أدرك أني محروم من المواهب المشتعلة أو المهارات الفائقة في أي شيء، لذا لم أحلم سوى بالخروج من هذه الحارة البائسة، والحصول على وظيفة وفتاة لأتزوجها، فأرتاح من عذابات جسدي وإلحاح الجنس اليومي، وأتخلص من قهر أبي وشتائمه

كل ساعة! لذا قبلت العمل في مقهى في وسط البلد، وبالتحديد في حارة متفرعة من شارع الشريفين بالقرب من وزارة الأوقاف.

كنت أتصبب خجلًا وأنا أجهز الشيشة للزبائن، أو أقدم لهم الشاي والقهوة والبيبسي. 12 ساعة يوميًا وأنا أدور بين هذا وذاك، ألبي طلبات فلان وأنفذ أوامر علان من الزبائن، لأتقاضى آخر الشهر 350 جنيهًا فقط لا غير، بالكاد تكفي مصاريفي اليومية من طعام ومواصلات وخلافه، ولقد ظللت في هذا المقهى ما يقرب من ثلاث سنوات ونصف السنة من العذاب المنظم؛ حتى انتشلني أخي الأكبر حسن، وقذف بي إلى هنا في دبي قبل ثلاثة أعوام فبدلت حياتي تبديلًا.

●●●

2

أبي وأمي

الحق أقول لكم: لا أعرف الكثير عن أبي وماضيه، فهو لا يتحدث معنا عن طفولته وصباه ولا يأتي على ذكر أبيه مثلًا أو أمه أو حتى أشقائه، فكل ما أعرفه أنه ولد في عام 1943 بقرية يقال لها «شرانيس» في محافظة المنوفية، أبوه كان غفيرًا أو ما شابه على ما أظن، ولكنه لم يكن فلاحًا يزرع ويحصد. وقد رحل والدي يخطو نحو الرابعة عشرة من عمره، حين حصل أبي على الشهادة الإعدادية لم تؤهله درجاته للالتحاق بالثانوية العامة فتطوع في الجيش. وأمه غادرت دنيانا وهو يشارك في حرب اليمن، على ما أعتقد.

علاقته بأشقائه باهتة وخالية من الحرارة، فلا يكاد يزورهم ولا نكاد نراهم في منزلنا، وآخر مرة رأيت فيها عمي حسنين مثلًا كانت منذ 15 عامًا، عندما جاء ليفتش عن علاج له بعد أن عجز مستشفى قويسنا العام أن يخفف من صراخه ليلًا.. أقام عندنا ليلة أو بعض ليلة، ثم حجزوه في مستشفى النيل بشبرا الخيمة عدة أسابيع حتى مات!

عمومًا، لا يذهب أبي إلى قريته إلا للمشاركة في دفن الموتى من أقاربه، عدا ذلك، فلا أذكر أنه كان يتردد على البلدة التي ولد فيها، ولا أذكر مرة أن أسرتنا كلها اجتمعت في «شرانيس» على شاطئ الترعة أو بين الحقول. لم يحدث هذا قط، على الرغم من أن أمي تؤكد لنا أنه اصطحبنا مرة، وأنا مازلت في الرابعة، لزيارة البلدة، ولكن هذه الزيارة ليس لها وجود على شاشة ذاكرتي أبدًا!

أبرز ملامح أبي هي نظرته القاسية والمخيفة وشاربه الأسود الكثيف، وأسنانه الصفر من فرط التدخين، عدا ذلك فهو متوسط الطول، ذو بشرة داكنة نسبيًا، وفم غليظ الشفتين. أما شعره الغزير، فقد رأيت كيف تسلل إليه اللون الأبيض في ظرف أعوام قليلة، حتى أطاح تمامًا بأيّ شعرة سوداء كانت تقف بزهو فوق رأس أبي!

لم أره يطالع كتابًا قط، ولم أجد في بيتنا أصلًا أي نوع من الكتب، إلا عندما كبرت قليلًا، فكنت أرى شقيقي الأكبر حسن عائدًا من كليته وبيده كتاب للشيخ الشعراوي أو مصطفى محمود، أو أحد الكتب الدينية التي تباع على الأرصفة أمام المساجد! عدا ذلك لم أشاهد أبي يقرأ شيئًا سوى جريدة «الأخبار»، وبصورة غير منتظمة!

عندما بلغ الخامسة والخمسين من عمره، وكان برتبة ملازم أول، تمت إحالته إلى المعاش، فصار رهين البيت، الأمر الذي جعل أمي تكابد الأمرّين وهي تتلقى تعاليمه وأوامره وتدخلاته وشتائمه على امتداد أربع وعشرين ساعة في اليوم!

الجرجير والحشيش يشكلان أكبر اهتمام له في منزلنا، فكان يقذف الصحن في وجه أمي إذا خلت مائدته من الجرجير. وكان يعتريني شعور بالبغض تجاهه مخلوط بالتعجب من هذا الإصرار على تناول الجرجير في كل وجبة، ولماذا لا يستبدل الخس به مثلًا، لكن منصور ابن خالتي شرح لي الأمر، فيما بعد، قائلًا وهو يبتسم:

- الجرجير يجعله يؤدي مهامه الجنسية بكفاءة!

فلما لم أفهم أضاف ناعتًا إياي بالجاهل:

- كلما كبر الإنسان في العمر، خبا نور شهوته الجنسية، وتراخى عضو الرجل، فلا يتصب بالقوة نفسها عندما كان فتى وشابًّا!

- وهل الجرجير يساعد على تجاوز هذه المشكلة؟

- طبعا، إضافة إلى الجمبري والسمك واللحوم ..

«عمومًا، مسكينة أمي»، هكذا كنت أقول لنفسي، يضربها ويلعنها في الصباح، ثم يضاجعها في المساء!

- والحشيش يا منصور؟

بصوت هامس، ونحن عائدان من مدرسة شبرا الخيمة الثانوية، سألته عن أهميته وأنا مرتعب، فابتسم وقال لي:

- معلوماتي عنه قليلة من أفلام السينما فقط، لكن لا أدري إن كان يزيد من الهمة الجنسية أم لا؟

سأفشي لكم سرًّا وهو أن أخي حسن كان المتخصص في شراء الحشيش لأبي من عم عوض، الذي يقطن في الجزيرة التي تقع أمام دمنهور شبرا في قلب النيل!

ذهبت معه عدة مرات من دون علم أبي، فكنا نستقل العبارة «المعدّية» الصغيرة من على شاطئ دمنهور؛ لتصل بنا إلى الشاطئ المقابل في عشر دقائق تقريبًا. كانت هذه العبارة البدائية مزدحمة دائمًا بالذاهبين إلى الجزيرة والواصلين منها، فتجد فيها فلاحين من النساء والرجال قد جاءوا بحيواناتهم وطيورهم وخضراواتهم؛ ليبيعوا منها ما تيسر في أسواق شبرا الخيمة، ثم يعودون آخر الليل منهكين، شاحبي الوجوه مكومين في قاع العبارة البائسة، التي يئن موتورها بصوت مزعج.

كنت أنا وحسن نحشر أنفسنا مع غياب الشمس بين هؤلاء الفقراء وخرافهم ودجاجهم الذي لم يستطيعوا بيعه، فيعودون به إلى بيوتهم في الجزيرة خائبين!

كنت أسير ملتصقًا بأخي، وممسكًا يده بقوة من شدة الخوف؛ لأن حواري وأزقة الجزيرة معتمة دائمًا، ونباح الكلاب الضالة يتواصل من دون انقطاع، ولا أعرف حتى الآن كيف استطاع أخي حسن أن يحفظ خريطة حواري وأزقة الجزيرة ليلًا؛ حتى يصل إلى بيت عمّ عوض بيسر.. يعطيه المال، ويأخذ قطعة الحشيش في أقل من دقيقة! فيدسها في جيب بنطلونه الجينز، ونعود مسرعين نحو الشاطئ لنستقل العبارة!

لم يحدث أن دعانا عمّ عوض ولا مرة للدخول، ولم يحدث أن منحني قطعة حلوى أو أي شيء يمكن تناوله. كان وجه عمّ عوض يشبه بعض وجوه الكومبارس، الذين يقومون بأدوار أفراد العصابة في الأفلام المصرية القديمة، أو هكذا طبعته في ذاكرتي مادام يتاجر في الحشيش.. لكني لا أستطيع تحديد ملامحه بالضبط، وكل ما أذكره عن تلك الرحلة

شبه المتظمة أسبوعيًا، أني لم أكن أرتاح لوجه عمّ عوض ولا لصوته الخشن الذي ينطق بعبارة واحدة في كل مرة وهو يخاطب حسن:

- بلغ تحياتي لحضرة الضابط!

لا تسألوني من فضلكم: هل رأيت أبي يدخن الحشيش في المنزل أم لا؟ لأني لا أملك الإجابة، فهو يجلس في غرفته وحيدًا عندما نأتي له بالحشيش، وقد يستقبل عم إبراهيم الترزي الذي يقطن في الحارة التي خلفنا، أو يذهب إليه، فهو صديقه الوحيد، وأظن الآن أنهما كانا يدخنان الحشيش معًا، لأني كنت أستمع لقهقهات عم إبراهيم التي ترجّ جدران المنزل وهما يلعبان الطاولة في غرفة أبي، بينما أختي نجاة تلاحقهما بالشاي كل فترة، ثم تخرج وهي تسعل بشدة شاكية لأمي بغضب:

- الغرفة أصبحت مُدْخنة!

- اخفضي صوتك، حتى لا يسمعنا أبوك.

- لقد كرهت هذا الرجل.

تصمت أمي قليلًا ثم تهمس:

- وأنا أيضًا يا ابنتي!

هل قلت لكم اسم أمي؟ أعتقد لا.

عمومًا اسمها زينات، ولدت في قرية شرانيس نفسها، التي شهدت ميلاد أبي عام 1948 لأسرة فقيرة. عندما بلغت العاشرة من عمرها أخرجها أبوها من المدرسة نظرًا لبلادتها، لذا فهي لا تجيد الكتابة أبدًا، ولكنها قد تستطيع أن تقرأ الجريدة ولو بدرجة من الصعوبة.

عندما أتأملها الآن أشعر بأنها كانت صبية جميلة إلى حد ما، فشعرها طويل وناعم، وعيناها واسعتان يزيدهما وضوحًا حاجبان مقرونان.

أنفها طويل صحيح، لكنه ليس منفّرًا، وكذلك الشفة السفلى غليظة وتتدلى لأسفل، خاصة إذا استسلمت لمرارات الحزن!

لا أظن أنها عاشت حياة سعيدة أبدًا، ولا حتى في مطلع شبابها، عندما اقترنت بأبي الذي انتزعها من حقول القمح والأشجار الظليلة، وقذف بها في هذه المدينة المزعجة!

كنت أراها أحيانًا تحدث نفسها بصوت هامس في المطبخ أثناء إعداد الطعام، فإذا اقتربت منها لأسمع ماذا تقول، توقفت عن الكلام وهي ترمقني بعطف، وإذا سألتها عما كانت تهمس به، نهرتني برفق وطلبت مني الخروج من المطبخ؛ لأنه لا يليق أن يدخل الشباب إلى هذا المكان كما كانت تردد! لكنني أعتقد أنها كانت تشكو الزمان وقلة حيلتها أحيانًا، أو تدعو الله أن يلطف بنا وبها من قسوة أبينا أحيانًا أخرى!

لم تكن لها سوى شقيقة واحدة اسمها خالتي عنايات التي تصغرها بعامين، ولكنها تمكنت من الحصول على شهادة دبلوم التجارة فزوّجها أبوها إلى ابن أخيه الأستاذ عبد العليم مدرس التاريخ، الذي جُنّ بحفيده «كامل» وتنبأ له بأنه سيصبح من العظماء.

كانت خالتي جميلة إلى حد معقول، وتعرف كيف تتفنن في إبراز مفاتنها من دون ابتذال، تعشق الضحك وتفرح بملذات الحياة، بعكس أمي التي تصادق الحزن وتفترش الهموم كل صباح.

أنجبت خالتي عنايات أربعة أبناء: ولدين وبنتين، وكلهم نالوا تعليمًا مرموقًا، فضلًا عن اهتمامهم بالقراءة مثل أبيهم وأمهم.

نعم، فخالتي تقرأ روايات نجيب محفوظ ويوسف السباعي وإحسان عبد القدوس، وتحفظ أشعار نزار قباني، وتدخل في نقاش مع زوجها حول قضايا سياسية حيث كانا يعشقان جمال عبد الناصر، وقد خرجا ممًّا تبللهما الدموع ليسيرا في جنازته، كما كانت تحكي لنا، وأحيانًا كنت، وأنا صغير، أجدها هائمة مع أغنيات عبد الحليم حافظ.

سأقول لكم بصراحة: كنت أغبط أفراد بيت خالتي وأحب الذهاب إليهم، لأنهم يلوحون لي كما لو كانوا في مهرجان دائم، وأستطيع أن أقول الآن: إنها كانت سعيدة جدًّا مع زوجها على كافة المستويات، فهو الذي حبب إليها عشق القراءة والاهتمام بالفن، وكان يصطحبها إلى السينما والمسرح كل فترة. وكنت أسمعها أحيانًا توبخ أمي، لأن أبي حرم نجاة وثريا من إكمال دراستهما ولم تحتج، بل ومنعهما من البحث عن العمل، وفرض عليهما ارتداء الحجاب ولم تمانع:

- كيف ستزوجينهما إذا ظلتا بجوارك في المنزل؟

هكذا كانت تعنف أمي، ثم توجه الكلام إلى شقيقتي:

- يا غبية، ماهذا الحجاب؟ كيف سيتقدم شاب إلى الزواج بك، إذا لم يمتّع عينه بجزء من جسمك، فيجن حتى يستطيع أن يرى الباقي؟!

ثم تقوم وتزيح الحجاب عن رأس نجاة بحدة، ثم تمشط لها شعرها بعناية، وتصمم لها تسريحة تشبه تسريحات سعاد حسني في أفلامها الشقية، وتتأملها قائلة وهي تنظر لأمي:

- ابنتك فاتنة يا زينات.

- هيا ارتدي بلوزة مفتوحة من عند الصدر، حتى يبرز جزء من نهديك فيتعقبك الشباب مخبولين، ويقف الخُطّاب على الباب بالمئات من أجل الظفر بك والزواج منك!

عندما تنتهي خالتي عنايات من هذه النصائح التي توجهها إلى نجاة وهي تضحك، تصرخ أمي رعبًا:

- هل جننت يا عنايات؟ أبوها يذبحها إذا استمعت إلى كلامك!

تقوم خالتي غاضبة وتقسم أنها ستخبر زوج أختها بهذه الآراء، وتهتف:

- كفاه ظلمًا!

القرار الأول الذي أصدره أبي عندما علم باقتراح خالتي لتزويج البنتين المتمثل في نزع حجابهما وارتداء ملابس مكشوفة، هو طردها من المنزل، أما القرار الثاني فهو منع أمي - ونحن بالتبعية - من زيارة خالتي أبدًا أو التعامل مع أبناء هذه المرأة «القحبة».. هكذا وصفها أبي، وهو يهدد أمي بالطلاق ونيران الغضب تتقد في عينيه!

أريد أن أخبركم أنني لم أكن في المنزل، عندما طرحت خالتي أفكارها الجريئة على أبي بشأن نزع حجاب نجاة وثريا وتوظيفهما حتى تخرجا من قمقم المنزل، لكن ما سمعته من شقيقتي ثريا فيما بعد، أنه أرغى وأزبد، واحتدّ وانفعل صارخًا في وجهها:

- من فضلك يا عنايات، لا دخل لك بأبنائي..

خرجت خالتي تكظم غيظها، وهي تتمتم بعبارات من نوع: «مسكينة يا زينات يا أختي، هذا رجل ظالم والبنات سيصرن ضحيته!».

كنت في السادسة عشرة من عمري عندما تصدت خالتي لجبروت أبي وأخفقت، لكن قراره بمنعنا من التعامل مع أبنائها لم يفلح على الأقل معي، فأنا أحب منصور ابن خالتي، وهو يودني كثيرًا؛ لذا لم نتوقف عن اللقاءات في المدرسة الثانوية أو حتى في الجامعة فيما بعد، لكن ظل شاطئ النيل أمام حينا التعس هو المكان المفضل لنا لنجلس ونتحدث، أو بتعبير أدق: لأسأل أنا ويجيب هو، قبل أن يقذفنا قارب الزمن على شواطئ دبي!

***

3

منصور ابن خالتي

مقـدور عليَّ أن أعترف لكـم الآن أنني أحب منصور ابـن خالتي كثيرًا، وأغـار منه أكثر، أفرح حين ألقـاه لحيويته وجرأته التـي أنقذتني من مصيـبة هند، ومؤازرته الشـديدة لي في محنتي الكبيرة، فضلًا عن غزارة معلوماته، وأبغضـه لأنـي أشـعر بضآلتي في حضـوره. يقتنـص حريته مـن الآخرين، ويفعل ما يشاء حتى لو اضطر إلى الصدام أحيانًا مع أبيه الأستاذ عبد العليم، بعكـسي أنا الذي أنصاع لأوامر أبي فورًا، وأرضخ لتعليمات شقيقي الأكبر حسـن من دون تذمر واضح، حتى لو أدى ذلـك إلى أن أرعى حنظل القهر في صدري أيامًا ولياليَ!

هـل تصدقـون أنه كان يقـول لي عـام 2000: إن نظام الحكـم في مصر قـد فرغ مـن مضمونه، ووصـل إلى نهايته، وإنه فـي حاجة إلى ثورة، قبل أن يحدث لنا مثلما حدث في سورية؟!.. لم أرَ أحدًا يتحدث في هذه المسألة قبل منصور.

ولا أدري مـن أيـن توصل إلى هذه الآراء الجريئة والحاسـمة! هل لأنه يتمتع بحدس سـياسي؛ نظرًا لانخراطه في منظمات ثورية سرية منذ التحاقه بكلية الإعلام؟

أعرف أن كل الصحف المعارضة والحزبية تقف الآن ضد التوريث بصراحة وشجاعة، ولكن ما كان يقوله لي منصور يفوق في جرأته ما يكتبه إبراهيم عيسى في «الدستور» وعبد الله السناوي في «العربي» وعبد الحليم قنديل في «الكرامة». آسف، أقصد أنه سبقهم جميعًا في فضح سيناريو التوريث، والتحذير من قدومه.

كما قلت لكم من قبل، فإن منصور يكبرني بعام واحد فقط، ويتمتع بجسد فارع وبشرة بيضاء وعينين سوداوين تشرقان بالألفة دائمًا، يمتلك جاذبية خاصة، وضحكته آسرة، حيث اصطادت هذه الضحكة صفاء وسمية تباعًا، أما شعره فمثل شعر أمه ناعم وأسود ويتركه يتهدل بحرية على جبينه الوضاء! عندما نسير معًا كان يلفت الانتباه بخطواته الواثقة ووسامته البادية، فأرى بحسرة كيف تختلس البنات النظر إليه، بينما هو منشغل بشرح فكرة أو رأي يرغب في اطلاعي عليه!

أود أن ألفت انتباهكم إلى أمر مهم جدًا، وهو أنني نادرًا ما كنت أراه من غير كتاب، فهو يمسك كتابًا واحدًا على الأقل في يده دائمًا، فمرة أجده حاملًا «الناس في بلادي» و«ليلى والمجنون» لصلاح عبد الصبور، ومرة «مدينة بلا قلب» و«مرثية للعمر الجميل» لأحمد عبد المعطي حجازي، و«خبز وحشيش وقمر» لنزار قباني، وثالثة أجده يطالع «ما العمل» و«الدولة والثورة» للينين، و«حروب دولة الرسول» لسيد القمني، و«مغامرة العقل الأولى» لفراس السواح. ورابعة يناولني ديوان «أعراس» و«مديح الظل العالي» لمحمود درويش قائلًا:

- اقرأ يا محمد، فالشعر يغذي الروح.

كنت أتعجب من ولعه بالقراءة، ومن إصراره على اقتناء كتب لمؤلفين، لم أسمع بهم من قبل، فهذان الكتابان «الأدب والثورة» و«الثورة المغدورة» لواحد اسمه «ليون تروتسكي»، وذاك كتاب «النبي المسلح» عن تروتسكي أيضًا لمؤلف اسمه «إسحق دويتشر»... وغيرها عشرات من الكتب والمؤلفين الذين لم أسمع بهم قط، ولم أرَ أيًا من كتبهم العجيبة عند أي أحد من الذين أعرفهم!

أذكر مرة أنه لامني كثيرًا، بل قام بتوبيخي بشدة، عندما علم أنني لم أقرأ أي رواية لنجيب محفوظ.. آنذاك صرخ في وجهي قائلًا:

- ألا تخجل من نفسك.... كيف لا تقرأ للأديب المصري، بل والعربي الوحيد، الذي نال جائزة نوبل للآداب؟

- لا صبر لي على القراءة يا منصور.

- جاهد ذاتك..... وتعوّد عليها.

- لكني شاهدت الأفلام المأخوذة عن روايات نجيب محفوظ.

هنا صرخ بحدة:

- لا...لا... الرواية شيء.... والفيلم شيء آخر تمامًا.....

أعترف الآن، وبصراحة أنني حاولت أن أحاكي منصور في علاقته بالقراءة، ولكنني أخفقت، وعبثًا بحثت عن اللذة في القراءة التي ما فتئ يقول عنها وما وجدتها، فحين أمسك كتابًا وأشرع في مطالعته أجدني مستسلمًا تمامًا لسلطان النوم، فلا أكون قد فرغت من صفحة أو صفحتين، إلا وتعتريني حالة تثاؤب شديد، فألقي الكتاب جانبًا من دون ندم!

- يا منصور... لا أطيق صبرًا على القراءة.

قلتها له مرة وأنا في شدة الغضب، عندما ظل يقرع ذاتي بجرس التأنيب؛ لأني لست من أصدقاء الكتاب ولا أريد!

لا أخفي عليكم أن رصاصة نظرته التي سددها في عيني فور أن أعلنت له ذلك، ظلت تؤرقني ليالي طويلة، فهي نظرة تختلط فيها الشفقة بالازدراء، الأمر الذي دفعني إلى أن أطأطئ رأسي في الأرض ولا أتكلم، مما جعله يكفّ تمامًا عن تحريضي على ارتكاب أجمل الأفعال كما يقول، وهو فعل القراءة، إلا حين سخر مني في منزل الأستاذ صلاح، ونحن نبحث عن حل لكارثة حياتي المزمنة!

التحق منصور بكلية الإعلام - قسم صحافة كما كان يحلم، وعلى الرغم من أن أباه الأستاذ عبد العليم حاول أن يثنيه عن ذلك، مفضلًا التحاق ابنه بكلية الطب مثل شقيقه الأكبر جمال؛ نظرًا لمجموعه الكبير الذي يؤهله لذلك، إلا أن إصرار منصور ابن خالتي أطاح برغبة الأب، الذي لم يرد أن يضغط على ابنه فيعكر صفو علاقتهما القوية!

في الكلية، كما كان في المدرسة الثانوية، برز منصور كطالب لامع يمتلك مواهب متعددة، فهو يشارك بهمة في فريق المسرح الجامعي، يمثل ويساعد في الإخراج، كما ينضم إلى فريق الجوالة، ثم يرشح نفسه لخوض انتخابات اتحاد الطلاب، فيهزم خصمه مرشح الجماعات الإسلامية بقوة.. وهكذا في كل نشاط يتصدى له يرفرف طائر النجاح والتألق فوق جبين منصور، حتى أصبح هدفًا لأحلام الطالبات اللاتي ظللن يتعقبنه بغية

قطف ورود صداقته، أو أزهار غرامه، ولكنه لم يسلم مفاتيح فؤاده إلا إلى صفاء سعيد الشرنوبي!

- من هذه يا منصور؟

كانت الساعة تقترب من التاسعة ليلًا في أحد أيام شهر ديسمبر، ونحن نجلس على شاطئ النهر أمام الجزيرة، لسعة البرد محتملة ومنعشة، وقد ظل منصور يتحدث عن صفاء سعيد الشرنوبي من دون توقف لمدة تزيد على 40 دقيقة، حتى سألته: من هذه يا ابن خالتي؟

حكى لي منصور كيف تعرف إليها في فريق التمثيل في الكلية، حيث كانت تهتم بالديكور، لذا انضمت فور دخولها الكلية إلى فريق المسرح لتصميم ديكورات عروض الفرقة. كانت معه في الدفعة نفسها، تعشق القراءة مثله، وتفتنها قصائد صلاح عبد الصبور وحجازي ونزار ونازك الملائكة وروايات ماركيز. نسيت أن أخبركم بأن منصور ظل فترة طويلة لا يتحدث معي إلا عن عبقرية الروائي الكولومبي الأشهر ماركيز، الذي خطف جائزة نوبل عام 1982.

كان يقول لي وهو منقوع في نهر النشوة:

- إذا كان الله موجودًا، فهو يمنح البشرية هدية كل قرن تتمثل في رجل ينير لها الطريق بعلمه وفكره، أو مبدع يمتعها بأدبه وحكمته؛ لذا فإن ماركيز هو هدية الله للبشرية في النصف الثاني من القرن العشرين!

يقول منصور ذلك، وهو يُقبّل صورة الكاتب الكولومبي التي تتصدر غلاف رواياته، ثم يخاطب تلك الصورة هاتفًا:

- أنت نعمة الدنيا يا ماركيز!

كنت أتعجب من هذا الهوس، خاصة عندما كان منصور يفاخر بأنه قرأ «سرد أحداث موت معلن» 9 مرات، و«الحب في زمن الكوليرا» 7 مرات، أما روايته المعجزة كما يردد «مئة عام من العزلة» فقد قرأها 11 مرة!

- من أين تأتي بالوقت لقراءة كل ذلك؟

كنت أسأله، فيقول لي بابتسامة دالة:

- القراءة هي خبز العقل وماء الوجدان... هل يمكن أن يمر يوم من دون أن نأكل أو نشرب؟

أعتقد أنكم ستفطنون إلى دور أبيه الأستاذ عبد العليم مدرس التاريخ في تشجيعه، هو وأخواته، على عشق القراءة، لقد كان الرجل يخصص لهم الهدايا والألعاب كلما قرأ أي منهم كتابًا وهم أطفال، فشبَّ الأبناء على احترام الكتاب ومصادقته، لكن كان منصور هو الأكثر افتتانًا بالقراءة بين إخوته؛ لم يكن غريبًا إذن أن يفاخر منصور بأبيه في كل جلسة تقريبًا، بعكسي أنا الذي أشعر بالعار كلما جاء ذكر أبي، أو لاح طيفه في خيالي، أو طرقت أذني ذكرى رنين شتائمه القذرة، التي لا يمر يوم واحد من دون أن أنال نصيبي المشؤوم منها!

جرأة منصور وبساطته في التعامل مع البنات كانت تذهلني، فكنت أتعجّب ونحن مازلنا في الثانوي، من أين يمتلك الشجاعة ليواعد ابنة الجيران، فيخرجان نحو المظلات ليسيرا على كورنيش النيل كعاشقين

صغيرين، ولكن بعد أسبوعين أجده قد هجرها لأنها «غبية ولا تحب المعرفة»، كما يقول لي، ثم ألقاه يكتب رسالة غرام مشبوبة لفتاة أخرى، جمعتهما الدروس الخصوصية في الفيزياء والكيمياء، فيحافظ على علاقته بها شهرًا أو بعض شهر، حتى يدفعه القنوط إلى صدّها والتخلص منها لأنها «بلا طموح» كما أكد لي، لكن حين رأى الهمة تعتري صفاء سعيد الشرنوبي، وهي تناقش بجدية مع المخرج التصور العام لديكور مسرحية «كاليجولا»، التي سيقدمها فريق الكلية، أيقن أنه مرصود لإسعاد هذه الفتاة، وأنها بعثت في هذه الأرض لتمنحه بهجة الروح ومسرات الجسد!!

حكى لي منصور وقائع أول لقاء تم بينهما وهو غارق في بحر النشوة، وكيف بدأ الحديث بالكلام عن محمود درويش وحجازي وماركيز، وانتهى بمسرح توفيق الحكيم وصلاح عبد الصبور وسعد الله ونوس.

- ثلاث ساعات ونحن لانتوقف لحظة عن الكلام بجدية ومرح..

هكذا قال لي وهو ينظر إلى مياه النيل المتلألئة، من جراء سقوط أشعة النجوم وقمر الليل عليها برفق.

ثم وقف هاتفًا:

- الحب سحر الحياة... هيا نشرب شايًا.

لم أعلق، ووقفت مدفوعًا برغبة شديدة في الهرب من لسعة البرد، وفي مقاومة غيرتي الشديدة؛ لأنه يصطاد الفتيات بسهولة، بينما أنا غير قادر على لمس يد أي فتاة!

في مقهى المعلم «خلَفان» جلسنا، وبالمناسبة لا بأس من أن أتلو عليكم بعضًا من سيرة هذا «الخلفان»، لأنها سيرة شريرة وبائسة، كما كان منصور يردد دومًا فور خروجه من المعتقل لأول مرة!

كان خلفان يعمل مخبرًا لدى جهاز مباحث أمن الدولة بشبرا الخيمة منذ هزيمة 1967، وكان مسؤولًا عن متابعة الطلبة والعمال الشيوعيين الذين ينشطون ضد القهر والاستغلال في المدينة، فيراقبهم ويترصد حركاتهم، ثم يقدم تقاريره المشبوهة إلى رؤسائه، الذين يهرعون إلى اعتقالهم مع أول نسمات الفجر!

كانت ابتسامة النصر تلمع على وجه خلفان الكئيب، حين يرى بعينه الطالب أو العامل وهو يستيقظ من نومه مرعوبًا، ليشاهد خلفان وزملاءه من المخبرين يقفون فوق سريره، فيتم اعتقاله فترة من الزمن، وسط صرخات أمه وأبيه أو زوجته وبنيه.

في كل عملية خسيسة من هذه العمليات، كان وجه خلَفان يشي بمدى بهجته؛ لأنه استطاع أن يصطاد فريسته من هؤلاء الشيوعيين، حتى اكتسب الرجل أسوأ سمعة في مباحث أمن الدولة بشبرا الخيمة. ومن عجب أن اسمه كان أشهر من الضباط الذين يعملون في هذا الجهاز، بمن فيهم القادة الذين تولوا المسؤولية الأولى في أمن الدولة! لقد سمع منصور ابن خالتي حكاية خلَفان داخل المعتقل من رفيقه في الزنزانة بدر المنياوي، الذي احترق في ليلة مشؤومة، ثم سردها لي بعد خروجه.

لم يمكث منصور أكثر من عشرة أيام في زنازين مباحث أمن الدولة في شبرا الخيمة، وهو مبنى كئيب ومخيف، كما وصفه من الداخل، يقع على

شاطئ النيل مباشرة، مكون من أربعة طوابق، ومثلها تحت الأرض حيث توجد الزنازين!

عندما خرج منصور من المعتقل، أصدر أبي الملعون قرارًا بمنعه من دخول بيتنا، كما أعلن أنه سيطردني أنا وأيًا من أشقائي، إذا علم أن أحدنا قابله أو حتى صافحه في الشارع العام!

- هذا ولد كافر وملحد!

يصرخ أبي وهو يعلن لنا قراراته الصارمة بشأن منصور ابن خالتي، ثم يضيف:

- بدلًا من الالتفات إلى دراسته، وهو مازال طالبًا مستجدًّا في كليته، ينضم إلى الطلاب المشاغبين ويخرج في المظاهرات!

حقًّا، لقد ذهلنا جميعًا عندما خطفوا منصور من فراشه فجر أحد أيام ديسمبر، وهو لم يكمل الثلاثة أشهر الأولى في حرم الجامعة بعد.

لكن الأغرب من ذلك، أن منصور خرج من المعتقل وهو مبهور ببدر المنياوي، فلم يتوقف كثيرًا، حين التقينا، عمّا حدث له من عذابات داخل المعتقل، بل مر عليها مرور الكرام، ثم شرع يحدثني بإعجاب وذهول عن الرجل الذي رافقه في زنزانته، وهو بدر المنياوي، الذي سيرثيه فيما بعد بمقالات دامعة في جريدة خليجية ، فكان يتكلم عنه...

عمومًا سأقص عليكم ما رواه لي فيما بعد!

في مقهى خلّفان الذي أحيل إلى المعاش وأنشأ هذا المقهى بمكافأة نهاية الخدمة؛ حيث وضع صورة ضخمة لنفسه تتصدر المقهى بجوار

صـورة الرئيـس مبارك... أقول في هذا المقهى أكمل لي منصور حكايته مع صفاء سعيد الشرنوبي بإيقاع اللهفة نفسـه، الذي كان يتحدث به على شاطئ النيل، وبالشرود اللذيذ نفسـه الذي كان يتأمل به صفحة النهر، ولكنه لم يكن يـدري أبدًا وقتها، ولا أنا، ولا بـدر المنياوي، ولا أرملته المنكوبة باحتراقه أن المقادير سـتحرمه منها إلى الأبد بعد ثلاثة أعوام فقط من اشـتعال وورود الغـرام بينهما، وأنه ما من قوة على الأرض قادرة على إعادتها إلى الارتماء في حضنه مرة أخرى!

***

4

بـدر المنياوي

ظللت فترة طويلة غير قادر على استيعاب فكرة أن تنشأ علاقة صداقة عميقة بين شاب عمره 19 عامًا هو منصور ابن خالتي، ورجل على مشارف الأربعين هو بدر المنياوي.

وأقول لكم بصراحة: لم أكن أشعر بارتياح كلما حدثني منصور عن صديقه الجديد، الذي استولى على اهتمامه، حتى وفّر لي منصور فرصة الجلوس إليه مرة أو بعض مرة، فأيقنت أن هذا الرجل يتمتع بخصال نادرة وشعور إنساني نبيل! لذا كان من الطبيعي جدًا أن نبكي منصور وأنا والأستاذ صلاح الغندور احتراقه المأساوي، ونحن نجلس على مقهى «ذكريات» في دبي، وسط ذهول سمية الأبراشي.

قد يسألني أحد منكم: «هل تكفي الخصال الطيبة والشعور النبيل لإقامة علاقة صداقة حميمة بين رجلين، يمتد الفارق الزمني بين عمريهما إلى نحو عشرين عامًا؟»..

سأقول لكم: «ليس عندي رد حاسم على هذا السؤال، ولكني سأسرد عليكم ما كان يحكيه لي منصور عن بدر المنياوي بصورة شبه يومية!».

تقابلا أول مرة في زنزانة موحشة تقع تحت الأرض في مبنى مباحث أمن الدولة بشبرا الخيمة.

- كنت مرعوبًا تتوالى على ذهني مشاهد التعذيب في الأفلام المصرية.

هكذا قال لي منصور، ثم أضاف:

- كنت أجلس القرفصاء منزويًا في ركن الزنزانة، فاقترب مني وابتسم وهو يربّت على ظهري قائلًا:

- لا تخف... اطرد الوساوس من ذهنك.... لا تعذيب هنا!

تعجبت كيف أدرك أنني كنت مشحونًا بهذه الوساوس؟

فنظرت إليه متسائلًا:

- لكنهم صفعوني على وجهي، وهم يستجوبونني في الغرف العليا!

- إنهم جبناء.... ولن يفعلوا معك أكثر من ذلك!

ثم قدم لي سيجارة وهو يهمس في أذني:

- انفخ أحزانك ورعبك مع الدخان.

تعجبت مرة أخرى، كيف عرف أنني حديث عهد بالتدخين، وأنني كنت في أمس الحاجة إلى سيجارة فعلًا. بعد ذلك سألني بدر المنياوي عن دراستي وأهلي وأين أسكن، فلما وجد ردودي مقتضبة، ابتسم وبدأ يحكي لي تجربته مع المعتقل منذ السادات حتى الآن، ربما حتى يشعرني بالاطمئنان من جهته!

قـال لـي منصور إن بـدر المنيـاوي ذاق كابوس الاعتقـال لأول مرة في حياته عام 1977، إثر اشـتراكه في انتفاضة يناير. آنـذاك كان طالبًا في كلية الآداب - قسـم الفلسـفة، وكان عضوًا عاملًا في خلية تابعة لحزب العمال الشـيوعي السـري. فـور تخرجه عيـن في قصـر ثقافة شـبرا الخيمة، الذي يقع في أرض نوبار خلف محطة سـكة حديد شـبرا الخيمة، كان أبوه يعمل محاميًا في محافظة المنيا، وكان من شباب الثوار في ثورة 1919، وقد تزوج والدته بعد خمس زيجات سابقة.

لبدر 22 أخًا وأختًا من الأب فقط، وثلاثة أشقاء يكبرونه، هم:

نـور وهـلال ونجـم بالترتيب، وقـد لقي نجـم هذا مصرعـه في حادث مؤسـف علـى كورنيش النيـل عام 1980! المفارقة المدهشـة التي أذهلتنا منصـور وأنـا، أن بدر المنيـاوي كان يقطن في منزل بسـيط يبعد عن حارتنا أقـل من 200 متـر، وبالتحديـد يقع المنزل علـى حافة السـوق الجديد في الشارع، الممتد بين نهر النيل وقسم أول شبرا الخيمة!

- تخيل... هذا الرجل العظيم يقطن بجوارنا ولا أعرفه إلا الآن.

هكذا كان يقول لي منصور بأسى، وهو يبدي إعجابه ببدر المنياوي.

قال لي منصور أيضًا، إن صديقه الجديد ضيف دائم في المعتقلات، فما من مظاهرة أو اعتصـام أو إضراب إلا وتجد بدر المنياوي من قيادات هذه المظاهرة أو الاعتصام أو الإضراب؛ الأمر الذي يجعله هدفًا سهلًا لمباحث أمن الدولة، لدرجة أنه صار يعامل باعتباره صديقًا قديمًا لرجال المباحث، فلا يعتدون عليه بالضرب مثلًا، ولا يمنعون عنه السجائر والجرائد اليومية،

ويسشنونه من عقوبات التكدير التي تنهمر على المعتقلين بانتظام، ويتركونه يبيت في زنازينهم وهو يحمل بين يديه راديو ترانزستور، يستمع منه إلى نشرات الأخبار وأغنيات أم كلثوم وعبد الوهاب، وهي رفاهية لا تمنح بسهولة لمعتقل، ومع ذلك كانت عنده القدرة ليوبخهم ويسفّه عملهم بقوله:

- أنتم مجرد موظفين... تنفذون أوامر سادتكم... فاتركوا أثرًا طيبًا في نفوس من تعتقلونهم!

الحق، إن ما نقله لي منصور من حوارات دارت بين بدر المنياوي ورجال أمن الدولة كان يدهشني، فهل تتخيلون أنه كان يخاطب ضباط أمن الدولة هكذا:

- عاملونا برفق، حتى نحميكم من غضب الشعب عندما تقوم الثورة، فنقول للجماهير التي تريد أن تقطعكم إربًا: إنكم كنتم مجرد موظفين تنفذون أوامر سادتكم... فعسى ولعل يتركونكم وشأنكم!

تزوج بدر المنياوي في عمر متأخر، حين أتم السابعة والثلاثين، وبالتحديد بعد رحيل والدته بثلاثة أشهر، ووفقًا لما قاله لي منصور ابن خالتي، فإن بدر أحب في مطلع شبابه - أيام الجامعة - مرة واحدة.. كانت زميلته في كلية الآداب، ولكنها تصغره بعام، وقد انضمت مثله إلى المنظمة السرية التي آمن بأفكارها، لكن بعد أربعة أعوام من الغرام الجميل هجرته، بحجة أنها لا تستطيع الارتباط برجل يقضي أكثر من نصف عمره في المعتقلات.

كان اسمها فردوس، وقد أكد لي منصور، وهو يحكي ما سمعه من بدر، أنها كانت جميلة بصورة لافتة، وأن الصور القديمة التي رآها منصور والتي تجمع الحبيبين أيام الجامعة تكشف سحر أنوثتها، على الرغم من أنها بالأبيض والأسود. أما حكاية هجرانها لبدر المنياوي وزواجها من أستاذهما في الكلية، فقد بدت، كما قال لي منصور، أشبه بفيلم مصري ركيك.

- كان يحلم معها بالثورة... لكنها صدته في أول الطريق.

هكذا قال منصور، وهو يشرح لي أسباب الصد الذي لقيه بدر المنياوي في القرن الماضي.. لقد كانت فردوس تحلم بزوج وأبناء، لا بثورة ولا تغيير، وفقًا لما أعلنه بدر المنياوي بعد سنوات من الهجران!

- ألم يتأزم صديقك؟

سألت منصور ونحن نأكل الذرة المشوية على كورنيش المظلات، كانت لسعة البرد المصاحبة لشهر يناير تجعلنا نسير بسرعة، لكن حكاية بدر وفردوس كانت تشغلني، وكنت أشعر بشغف، لا أعرف سببه، لمتابعة ما جرى للثوري النيل، كما وصفه منصور.

- أكد لي بدر أنه تأزم فترة، ولكنه تجاوز مأزقه بالغرق في حلم الثورة.

ثم أضاف:

- هذا رجل استثنائي، فهو يمتلك قدرة مدهشة على قراءة نفسه أولًا، ثم قراءة الآخرين.

بصراحة أقول لكم لم أفهم تمامًا معنى أن يقدر عاشق على نسيان محبوبته بالغرق في بحر الثورة أو حلمها، كما يقولون!

فالغرام كما شرحه لي منصور من خلال تجربته مع صفاء سعيد الشرنوبي، يجعل الشاب لا يرى في العالم سوى محبوبته، ولا يتمتع برفرفة القلب إلا في حضور معشوقته، ولا يلمس السحاب إلا حين يحتضن فاتنته، ولا يواجه الشدائد إلا بصحبة أميرته... هكذا أفهمني منصور جوهر الغرام، فكيف ينسى بدر المنياوي فردوس بحجة الغرق في حلم الثورة؟

أول مرة رأيت فيها بدر المنياوي كانت في قصر ثقافة شبرا الخيمة، كان طويلًا نسبيًا، ذا جبهة عريضة وشعر أسود مجعد، لا يخلو من شعيرات بيضاء متثورة هنا وهناك.

له شارب دقيق يشبه شارب كمال الشناوي في أفلامه الأولى.. بشرته الخمرية وصوته الرخيم وحركاته الأنيقة منحته حضورًا جادًا من دون تجهم. إذا تحدث انطلق من عينيه شعاع ذكاء، يؤثر فيمن ينصت إليه بلا ريب.

كان يقوم بإجراء البروفات على مسرحية «الفيل يا ملك الزمان» لكاتب سوري اسمه سعد الله ونوس، وقد أكد لي منصور أنه من أهم كتاب المسرح في العالم العربي.

من أول لحظة أدركت لماذا أحبه منصور؟

فهو يتمتع بحس قائد حقيقي، فقد كان يوجه - باعتباره المخرج - الممثلين بإشارة بسيطة من يده، فإذا لم يفلح أحد من الذين يعتلون الخشبة

في أداء ما يريد، قام من فوق مقعده ليشرح له على المسرح طبيعة الشخصية نفسيًّا، وكيفية أدائها بالصوت والحركة، بل والإشارة أيضًا.. شعرت بأن الممثلين يحبونه ويقدرونه، حتى المطرب الذي كان ينشد أغنياته بين حين وآخر، كان يتعامل مع بدر المنياوي بتوقير واحترام.

بعد انتهاء البروفات دعانا بدر إلى منزله، حيث تناولنا عشاء بسيطًا تم إعداده على عجل. كان الحديث عن المسرحية ورؤيته الإخراجية لها يستحوذ على اهتمام منصور، وقد كانت مفارقة مذهلة بالنسبة إليّ أن أرى منصور لا يكفّ عن السؤال طوال الوقت، مثلما أفعل أنا معه، لكن بدر المنياوي هو الذي يجيب هذه المرة بصدر رحب ومنطق سديد.

- ابن خالتك قليل الكلام.. أليس كذلك؟

باغتني صاحب المنزل بهذه العبارة، وهو يشير بسبابته إلى وجهي، فتحول منصور بعينيه نحوي ثم قال لبدر وهو يبتسم:

- هذه طبيعته عندما يلتقي إنسانًا لأول مرة!

استجمعت شجاعتي وهتفت بصوت مبحوح يخرج من حلقي بصعوبة:

- أبدًا يا أستاذ بدر... أنا أنصت جيدًا لآرائك وردودك.

مع دخول زوجته علينا حاملة صينية الشاي هبّ منصور مصافحًا، فبدا لي أنها تعرفه جيدًا من خلال تعاملها البسيط معه، وقد لفت انتباهي أنها لم تكن محجبة، وكانت ترتدي بنطلون جينز وبلوزة نصف كم.. جلست معنا، ثم سألت منصور ضاحكة:

- ما الكتاب الذي تنوي استعارته اليوم؟

كان بدر المنياوي يمتلك مكتبة مدهشة، تحتوي على ثلاثة آلاف كتاب، وقد قسمها صاحبها بنظام دقيق، فهذه كتب السياسة، وتلك كتب المسرح، ثم كتب التاريخ، ثم كتب الفلسفة التي كانت تأخذ حيزًا كبيرًا من المكتبة، بعد ذلك يأتي دور كتب الأدب. وكان منصور لا يمل من تأمل هذه المكتبة، وإبداء إعجابه الشديد بما تحتويه، وكان بدر المنياوي لا يبخل عليه بشيء، فقط يشترط ألا يستعير كتابين مرة واحدة، بل كتابًا فكتابًا، وهو ما التزم به منصور تمامًا، فكان كل أسبوع يستعير واحدًا، فمرة يأخذ «ماركس: حياته ونضاله» لفرانز مهرينج، ومرة يطلب «الثورة المغدورة» لتروتسكي، وثالثة «عودة الروح» لتوفيق الحكيم، ورابعة يقرر الاطلاع على أعمال «محمد الماغوط»، وخامسة يضع تحت إبطه كتاب «ازدهار وسقوط المسرح المصري» لفاروق عبد القادر، وسادسة «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ، وسابعة «تاريخ الحرب العالمية الثانية»... إلخ. كانت هذه المكتبة قد تم تجميعها على مدار ثلاثين عامًا كما قال لنا بدر، ولكن ما أثار دهشتي سؤال زوجته الذي وجهته إلى منصور:

- كيف أحوال زوجتك صفاء؟

ارتبك منصور قليلًا وظل يحرك عينيه بيني وبين سيدة المنزل، أما أنا فقد عقد الذهول لساني وطأطأت رأسي في الأرض.. فيما بعد، ونحن نجلس على شاطئ النيل في هذه الليلة كشف لي منصور السر، فصفاء سعيد الشرنوبي زارت منزل بدر وزوجته عدة مرات، بل والأدهى أن

أصحاب المنزل كانا هما الشاهدين على زواج منصور وصفاء عرفيًّا، وكانا كثيرًا ما يتركان لهما المنزل ساعة أو بعض ساعة ليتذوق كل منهما جسد الآخر بحرية، وكانت زوجة بدر هي التي تلقن صفاء كيفية تجنب الحمل، وكانت تزودهما بقراءات عن الجنس وتاريخه وفنونه.

سرد لي منصور كل شيء، وبرر كتمانه السر عني بزعم أنه لا يريد أن يحمّلني عبئًا نفسيًّا بمعرفة سر بهذه الخطورة، فقد اضطر إلى أن أفشيه لسبب أو لآخر، الأمر الذي يعرض منصور لحرج كبير أمام أهله، بل وأمام زوجته السرية.. الحق أقول لكم، لقد غبطته، واعتراني الشعور بالوضاعة؛ لأنني لا أملك حتى جرأة التفكير في فعل ما أقدم عليه منصور، وتخيلت نفسي وقد تزوجت سرًّا، فارتعشت من الرعب للحظة لمجرد أن مر طيف أبي على بالي، فطردت الخاطر المجنون من ذهني فورًا، ثم أحسست بالحنق من بدر المنياوي الذي آمن به منصور، وجعله موضع سره بدلًا مني، لكنني عدت وعذرته، فمن أنا حتى أقدّم لابن خالتي هذه الخدمة الجليلة بأن أفتح له بيتي ليتزوج سرًّا، وينعم بعروسه؟!

آه... يا منصور؟ كيف رأيتها، وكيف هو لون نهديها وما هو ملمسها؟ وهل استمتعت بسخونتها ودفئها؟ وماذا شعرت بالضبط عندما أدخلته كله؟ ثم ماذا دهاك حين انفجر الكون وزلزلت الأرض وأنت تنتفض متخففًا من عذابات جسدك؟ وأي لذة اعترتك؟ يا نشوتك يا منصور بصفاء، ويا سعادتك ببدر المنياوي!

بعد ذلك بسنوات، وأنا أجلس على مقهى «ذكريات» في دبي مع منصور ابن خالتي و سمية الأبراشي قابضًا بيدي على حقيبة هند الملعونة، دخل علينا الأستاذ صلاح كابي الوجه ودموعه تحرق خديه، وهو يقول:

- لقد مات بدر المنياوي ضمن فناني المسرح، الذين احترقوا في قصر ثقافة بني سويف أمس!

***

5

صفاء الشرنوبي

- هل حقًّا كانت في منزلكم اليوم؟

سألتُ منصور باستغراب للمرة الثالثة، ما جعله ينفعل في وجهي، ونحن نسير على شاطئ النيل، عند كوبري المظلات في اتجاه الساحل، فصرخ قائلًا:

- يا أخي... صفاء كانت عندنا اليوم... ما المشكلة؟

لم أكن أتخيل لحظة أن تصل جرأة منصور ابن خالتي إلى الحد، الذي يصطحب فيه زميلته ومحبوبة فؤاده إلى منزله! صحيح أن أباه رجل منفتح، إلا أنني كنت أظن أن انفتاحه هذا ليس بلا نهاية، وأن والدته على الأقل ستعترض بشدة على أن يأتي لها ابنها بفتاته حتى باب البيت، لأن لها بنتين في الجامعة، ومن ثم فقد تصاب بالهول إذا اعتقدت لحظة أن إحدى بنتيها تزور زميلها في منزله!

لم تحتج خالتي عنايات على زيارة صفاء، ولم يتذمر زوجها الأستاذ عبد العليم من أن لابنه فتاة تأكل الطعام وتسير معه في الأسواق، بل وتزوره

في منزله آخر المطاف! لقد استقبلوها - كل من في البيت - بترحاب شديد يليق برقتها، وقدموا لها أشهى الطعام وأطيب الشراب، فلم تأكل إلا لقمتين، وقنعت برشفتين من كوب الشاي، وقد ظلت خالتي عنايات مبهورة بفكرة أن تدخل عليهم صفاء لأول مرة، حاملةً بين يديها باقة من الزهور ذات ألوان تسر الناظرين، حيث قدمتها إلى خالتي بأدب جم، فما كان من خالتي إلا أن احتضنتها بقوة وطبعت فوق خديها قبلتين من القلب!

- تخيل... أمي ترعى ورد صفاء كل صباح، فتغير مياه الآنية، وتضع ملعقتين من السكر داخلها حتى يحافظ على رونقه.

قال لي منصور ذلك وهو يضج بالفرح، لأن من استوطنت قلبه نالت رضا والدته، فكان يشعر بالغبطة لأن أحلامه تتحقق أمامه، ولأنه كان يخشى أن تصطدم المعشوقة بالأم، وهو ما لم يحدث.

- أنت تعرف أن الأمهات لا يرحبن دومًا بحبيبات أبنائهن.

كان منصور يضحك، وهو يشرح سر بهجته بعد الزيارة الأولى لصفاء، التي ما إن شعرت بأن جسمها يزداد سخونة كلما اقترب منها منصور خطوة، حتى أذعنت لرغباته في الخروج معًا من الكلية منفردين.

سارا في اتجاه كوبري الجامعة، ثم اخترقا شارع قصر العيني، وبعد ذلك انحرفا من شارع الشيخ ريحان حتى وصلا إلى حي عابدين، فشارع حسن الأكبر، فمنطقة تحت الربع فباب زويلة، حتى استقرا آخر الأمر في مقهى الفيشاوي بالحسين.

ساعة كاملة استغرقتها هذه الرحلة، تخللها تناول سندويتشات فول وطعمية، ابتاعها منصور من محل بشارع قصر العيني والتهماها في أثناء الطريق!

لم تكن تلك الرحلة غريبة تمامًا على صفاء سعيد الشرنوبي، حيث قطعتها أكثر من مرة وهي طفلة - وإن كان من شوارع وجهات مختلفة - مع أبيها الذي كان يشرح لها عظمة القاهرة القديمة، وهو في طريقه إلى مرسمه في وكالة الغوري.

لقد حافظ سعيد الشرنوبي على علاقة حميمة بشوارع وأزقة وحواري القاهرة الفاطمية والمملوكية، مذ كان طالبًا في كلية الفنون، يجوب تلك الأماكن بهيئة رحّالة روماني من العصور الوسطى، واضعًا على كتفه حامل الرسم و«شنطة» الألوان والاسكتشات. ولما حقق نجاحًا ملحوظًا في الحركة التشكيلية المصرية، استطاع بشهرته وحضوره أن يقتنص مرسمًا خاصًا له في وكالة الغوري، من قِبَل وزارة الثقافة.

المصادفة المشؤومة وحدها هي التي أفسدت علاقة صفاء بأبيها، حين رأته يسير مع امرأة تتأبط ذراعه على كورنيش النيل، في مساء بارد من شهر يناير. لم تتردد واقتربت منه ووقفت قبالته، مانعة إياه من مواصلة السير، وهي تسأله بنبرة غيظ لا تخلو من تحدٍ:

- من هذه يا أبي؟

عقدت المفاجأة لسان سعيد الشرنوبي، ونسي للحظة أنه يقف أمامه ابنته، بل ظن نفسه يحاكم من قبل زوجته، وكأنها هي من ضبطته يستمتع

برجولته مع امرأة أخرى.. لم تكن أمام الفنان التشكيلي اللامع أي فرصة للكذب، فالمرأة التي معه كانت تلقي برأسها كله على كتفه، بينما يحتضنها بذراعه، كما أن ارتباكه حال دون أن يفلح في اختراع أكذوبة يمكن تمريرها؛ فروائح الغرام تفوح بين الاثنين على شاطئ النيل، ونظرات المرأة المجهولة إلى أبيها تشبه نظرات لبؤة عطشى إلى المضاجعة؛ لذا استجمع سعيد الشرنوبي كل قواه، وهو يقول لابنته بصوت، حاول جاهدًا أن يكون حاسمًا:

- سأشرح لك الأمر فيما بعد... هيا إلى البيت الآن!

لم تفلح النبرة الحادة للأب في زحزحة صفاء من مكانها ملليمترًا واحدًا، وراحت تكرر بتصميم أكبر السؤال نفسه، وهي ترتعش من الاضطراب والبرد:

- من هذه المرأة يا أبي؟

لم يجرؤ سعيد الشرنوبي على الإفصاح عن حقيقة السيدة، التي كانت تشتهيه قبل دقائق واضعة رأسها كله فوق كتفه في استرخاء لذيذ، ولكنها بعد اللحظة الأولى من صدمة المواجهة، انبرت هي للإجابة عن السؤال الذي أفسد عليها متعة السير ليلًا مع الرجل، الذي التقته لأول مرة قبل شهرين فقط:

- أنا زوجته يا ابنتي!

نطقتها حرفًا حرفًا وبشعور مليء بالفخر، واضعة بذلك حدًّا للأسئلة العبثية في الطريق العام، كما شرحت لزوجها بعد ذلك.

صفاء التي تلقت الإجابة كضربة سندان في قلبها، رمقتهما بعينين دامعتين تضجان بالحقد والغل، ثم هرعت نحو شارع جانبي، من دون أن تنطق بكلمة، ولا حتى أن تلتفت إلى استغاثات ونداءات أبيها.

في تلك الليلة كالت صفاء السب لأبيها في أكثر من عشر صفحات كاملة، دونتها بسرعة لافتة، كتبت بقلب يفيض بالضغينة ضد كل رجال العالم، الذين لا يقدرون الحب ولا يعرفونه، والذين يلهثون خلف نزواتهم ضاربين عرض الحائط بمشاعر من يحبهم ويحترمهم.

ظلت تكتب وسط سيل من الدموع، إلى أن توصلت لعبارة، ظنت أنها تلخص حال الرجل، كتبت: «الرجل مجرد حيوان.. لا أكثر ولا أقل»!

عبثًا حاول سعيد الشرنوبي أن يشرح لها في الأيام التالية أن الرجل - خاصة الفنان - بحاجة دومًا إلى امرأة تلبي أشواق روحه وتطفئ نيران جسده، وأن والدتها لم تعد المرأة التي كانت بعدما تعرضت لعطب جسدي أطفأ لهيب شهوتها، وأنه يعدها بأنه ما من أذى سيلحق بأمها، أو بها أو بشقيقها الأصغر... أجهد سعيد الشرنوبي نفسه في شرح الأسباب التي دعته إلى الزواج من امرأة أخرى، موضحًا لها للمرة الألف أنه لن يهجر البيت ولن يطلق أمها، ولن يجرحها بإفشاء السر. كان يتحدث باضطراب باعتباره متهمًا وليس أبًا، وكان يتحاشى رصاصات الغضب والاستهجان، التي تنطلق من عيني ابنته، التي رفضت أن تفتح فمها بكلمة واحدة، ولو من باب المجاملة أو آداب الحديث مع الآباء!

كانت صفاء في الصف الأول الثانوي، حين وقعت الواقعة وضبطت أباها متلبسًا بالغرام على كورنيش المنيل، وعلى الرغم من أنها لم تكن تتجاوز عامها السادس عشر آنذاك، فقد تمتعت بحكمة امرأة ناضجة، فلم تخبر أمها قط بما رأت وعرفت، وظلت وحدها تمضغ حنظل سر أبيها، من دون تبرّم أو حتى تصوّر أن يأتي يوم تفشي فيه هذا السر المشؤوم لأحد!

منصور ابن خالتي فقط هو أول من اطلع على مغامرة سعيد الشرنوبي، حين سردت له صفاء أمر زواج أبيها من امرأة أخرى، بعد ثلاثة أعوام من اكتشافها أمر هذا الزواج. حتى أمها رحلت إلى القبر وهي سعيدة، لأنها كانت تظن أن زوجها لم يرتكب حماقة الزواج بأخرى، عندما تيقنت أنها لم تعد صالحة كزوجة، بل شكرت الله قبل وفاتها بأيام، لأنه منحها زوجًا وفيًّا لم يسبب لها غم الخيانة الزوجية!

لم يمكث زواج سعيد الشرنوبي سرًّا أكثر من عام، منذ فاجأته ابنته على كورنيش المنيل، إذ ما لبث أن رحلت والدة صفاء وهي قريرة العين، فأقدم الفنان التشكيلي على إعلان زواجه بعد ستين يومًا فقط من مصافحة جثمان زوجته المتوفاة تراب القبر!

لم تغفر صفاء قط لأبيها جريمة الزواج - كما كانت تسميها - من امرأة أخرى وأمها مازالت على قيد الحياة، ولكن الزمن جعلها تخفف من حدة التعامل مع والدها، فقبلت الكلام معه بعد انقطاع دام عامين، شريطة ألا يتحدث معها في وجود الزوجة الثانية، وهو أمر تفهمه سعيد الشرنوبي جيدًا وانصاع له، حيث أصبح يتحاشى الكلام مع ابنته كلما كانت امرأته في المنزل أو تجلس بجواره في غرفة المعيشة!

عندما التقاها منصور أول مرة، وهي تناقش مع المخرج التصور العام لديكور مسرحية «كاليجولا»، كان نور حزنها على رحيل والدتها قد خبا قليلًا، بينما الجرح الذي سببه والدها بزواجه مازال ينزف في قلبها! كانت صفاء في حاجة إلى الحب، وكانت تدرك جيدًا مقدار أنوثتها كفتاة جميلة، مزوّدة بقدر جيد من تناسق الملامح، فهي متوسطة الطول، عيناها تشعان بالحيوية، يعلوهما حاجبان سلسان وجبهة منبسطة.. بشرتها بيضاء نضرة وفمها رقيق، إذا ابتسمت فاض سحر أنوثتها. أما شعرها فيميل إلى اللون البني الداكن؛ حيث لا تجد صعوبة في تصفيفه نظرًا لنعومته الشديدة؛ لذا رفضت «منصور» في البداية، كما رفضت زملاء له من قبل، بل وتحصنت بصمتها وثقافتها التي تتجاوز ثقافة من هن في سنها بكثير. اعتدادها الشديد بنفسها جعلها ترفض أن ترتدي الحجاب الذي شاع بين البنات، حتى أنها وبّخت إحدى زميلاتها، حين حاولت الأخيرة أن تنصحها بضرورة ارتداء الحجاب، حيث قالت لها صفاء بحزم:

- لن يلتهمني الرجال إذا رأوا خصلات شعري!

لا شك أن أباها كان وراء أفكارها التقدمية الجريئة، ولكن قراءاتها وتأملاتها جعلتها تصل إلى قناعات صادمة للكثير من أصحاب الفكر السائد، فقد قالت لمنصور إنها لم تكن تتوقف عن الصلاة، وهي في الثانوي في أثناء الدورة الشهرية، لأنها ترفض أن تصف دم الدورة بالنجاسة لأنه دليل الخصوبة! فكيف تكون الخصوبة حرامًا؟ وكيف تحول دون إتمام الصلاة؟

لم ييأس منصور حين صدّت برفق أولى محاولاته في التقرب إليها، بل زاد قناعة بأن صفاء تمثل حلمه الأخضر على أكمل وجه، فظل ملاحقًا لها من دون تذمر من مكان إلى آخر في الكلية، حتى أحرقتها في النهاية نيران اللهفة، التي تنطلق من عينيه، فرضخت لسلطان الغرام بعد أقل من شهر واحد من خروجه من المعتقل!

طوال عمري لم أر منصور ابن خالتي يبحر في قارب السعادة، كما رأيته في تلك الأيام، فكان يصطحبها معه إلى كل مكان في القاهرة تفوح منه روائح الأدب والفن والسياسة، كان يقرأ لها بصوت مسموع في الحدائق العامة ما تيسر من قصائد صلاح عبد الصبور وحجازي ونزار، وكانت تهمس في أذنه ببعض أبيات حفظتها لمحمود درويش وأمل دنقل، وحين عرف الطريق إلى الحياة السفلية عبر منظمة تروتسكية سرية، جرجرها معه ببهجة عارمة، حيث كان يظن أن الأقدار انتخبته ليكون قائدًا ثوريًّا قادرًا على إحداث التحول الجبار في مصر، كما كان يقول لي. كان يتحدث معي بتصميم كهان العصور الوسطى، تتخلل عباراته نبرة يقين راهب قديم بأن المسيح هو ابن الله! وكانت صفاء حريصة على أن تبدو في صورة الفتاة المتمردة، من دون أن تفقد حسها الأنثوي، أو تسقط في مطب الابتذال الذي هوت فيه فتيات يساريات غيرها رأيتهن أحيانًا بصحبة منصور.

أول قبلة حميمة بينهما كانت على سلم منزل صديق لهما يقطن في المعادي الجديدة، ذهبا إليه ليناقشا معه الجريدة السرية التي تصدرها المنظمة، وآخر قبلة بينهما كانت في أثناء الرحلة المشؤومة إلى القناطر الخيرية.

العجيب أنني كنت ألتقيهما أحيانًا وأجلس معهما بعض الوقت من دون أن أعرف، ولا أتخيل، أنهما زوجان! فكانا يتصرفان دومًا باعتبارهما طالبين عاشقين يبذلان جهودًا خارقًا ليقتنصا قبلة - مجرد قبلة - في مكان خالٍ، ولم أكن أدرك أبدًا أنهما مارسا الجنس منذ ساعات قليلة في منزل بدر المنياوي، قبل أن أقابلهما في مقهى الفيشاوي!

لقد شجعهما بدر المنياوي على اختراق المحظور؛ فبعد ستة أشهر من تحلق طائر الحب في قلبيهما، وقفا عاجزين أمام وحش الجنس، فلا هو قادر على ترويضه ولا هي تتحمل عذاباته واضطرابها.

لم يكن هناك أي حائل ديني أو عقائدي، يمنع انكبابهما على ممارسة الجنس الآن وفورًا، لكن الرعب من سطوة التقاليد كان يعرقل اتخاذ القرار الحاسم بالامتثال لشهوة الجسد.

- صفاء... أنا غير قادر على الاحتمال.

يهمس منصور في أذنها، وهما يجلسان في حديقة مسرح الطليعة انتظارًا لدخول عرض تجريبي لصمويل بيكيت، فتمسك يده بقوة وهي تلتهمه بعينيها، يغشيها العجز الذي يحول دون أن تمنحه الراحة المرتجاة.

- ماذا أفعل لك يا حبيبي؟

تسأله صفاء وهي غارقة في بحر التوتر، وهكذا يظل طائر الجنس يحوم حول قمح غرامهما، من دون أن يفرح بالتهام الحبوب!

لم يجد منصور بدًّا من الإفصاح عما يرهق جسده ويربك روحه إلى بدر المنياوي، حيث انتهز فرصة وجوده في منزل صديقه، حتى أفاض في الكلام، عندما وجه له بدر أول سؤال:

- مالك يا منصور... لست معافى الروح؟

في البداية تعجب منصور من فراسة بدر المنياوي، الذي لاحظ عدم اتزانه، ولكنه لم يتوقف طويلًا أمام هذه الفراسة، وشرع يحكي له- من دون خجل- مدى هيامه بفاتنة فؤاده، تركه بدر يتكلم أكثر من نصف ساعة دون أن يقاطعه، ولما وجده طافيًا بلا حيلة فوق مياه العذاب الجنسي، بادره بدر بسؤال قاطع:

- هل تحبها يا منصور؟

- طبعًا... بكل ذرة في كياني.

قالها منصور بسرعة جعلت الحروف تتقاذف من فمه، ولكنه بهت حين باغته بدر بالحل الناجع:

- تزوجها يا منصور... وفورًا!

بعد ذلك بفترة طويلة وبعد أسابيع قليلة من الرحلة المنكوبة إلى القناطر الخيرية، أطلعني منصور على ورقة الزواج العرفي التي اقترن فيها بصفاء، ورأيت بعيني توقيعه وتوقيع زوجته الغريقة بجانب توقيع بدر المنياوي وقريته!

عامان وسبعة أشهر وثمانية عشر يومًا هو عمر هذا الزواج العرفي، الذي أطاحت به مغامرة غير محسوبة للسباحة في نهر النيل.

في بداية الزواج لم يعرف منصور أين يلتقيان وهما متخففان من ملابسهما، فهو لا يملك مكانًا خاصًا به، وهي رفضت أن تبيت معه في

فتدق خشية أن يتعرف إليها أحد، فمنذ أن ضبطت أباها عن طريق المصادفة متزوجًا بامرأة غير والدتها، وهي تعمل ألف حساب لقانون المصادفات، ولولا هيامها بمنصور ما ارتضت أن تمنح له جسدها سرًّا!!

في ليلة زفافها كذبت على والدها، وادعت أنها ستبيت عند صديقتها، أما منصور فقد ظل يشكر بدر المنياوي كثيرًا؛ لأنه ترك له بيته في تلك الليلة ليستمتع بعروسه.

وقد اعترت الدهشة العروسين حين وجدا زوجة بدر قد أعدت لهما عشاء فاخرًا، بينما ترك بدر ورقة مثبتة على الحائط، كتب فيها «زجاجات البيرة ستمنحكما السعادة والدفء هذه الليلة... ألف مبروك».

بالنسبة إليّ، كنت أعرف أن الزواج العرفي منتشر بين طلاب الجامعة، بل وكنت أحد زملائي الذين أقدموا على هذه الخطوة، ولكني لم أتخيل لحظة أن منصور ابن خالتي واحد من هؤلاء، كما لم أكن أتصور أنه يختزن في عينيه كل هذه الدموع حين رأيته عائدًا من القناطر الخيرية، تاركًا زوجته ومعشوقة فؤاده صفاء سعيد الشرنوبي جثة هامدة في قاع النيل!

•••

6

دبي

عندما لمحت وجه منصور ابن خالتي محشورًا بين حشود الهنود والباكستانيين في مطار دبي، كنت سعيدًا جدًّا، ذلك أنني ظللت حائرًا، لا أدري ماذا أفعل حين خرجت من بوابة المطار ولم أجد أحدًا، لا هو ولا شقيقي حسن!

لقد أبلغتهما بميعاد وصول طائرتي خطأ، فبدلًا من أن تطأ الطائرة مدرج المطار الساعة الرابعة عصرًا بتوقيت دبي، قلت لهم في الليلة السابقة إنها ستصل في الخامسة! وهكذا ظللت ساعة كاملة لا أعرف ماذا أفعل بين هذه الجموع القادمة من كل بقاع الأرض إلى دبي!

- إنه يوم تاريخي!

قالها منصور، وهو يضحك ويشير بسبابته إلى وجهي:

- لماذا؟

سأله أخي حسن بصوت رتيب ومن دون اكتراث، فهتف منصور مسرعًا:

- إن أخاك تحرر اليوم من أسر شـرا الخيمة!

ثم أضاف:

- سجّلا عندكما تاريخ اليوم 23 نوفمبر 2003!

لم أعلّق على ما قاله منصور، واكتفيت برسم ابتسامة لا معنى لها على شفتي؛ فقد كنت مشدوهًا بما أرى وألمس، من أول نظام مطار دبي ونظافته واتساعه، حتى السيارة «التويوتا كرولا» التي يقودها منصور وسط شوارع برّاقة، لامعة، تنتصب على جانبيها بنايات وعمارات شاهقة ذات تصميمات باذخة، وكأني أرى مدينة مرسومة على الورق. حتى السيارات التي تخترق شوارع دبي كلها بحالة ممتازة تقريبًا، أما التاكسيات، فقد أذهلتني فكرة أنها من ماركة فورد أو كامري، وهي ماركات فاخرة لا يملكها إلا الأثرياء في القاهرة، فكيف تتحول هنا إلى مجرد سيارة تاكسي يستقلّها كل من هبّ ودبّ؟

لم يتركني منصور أنعم بلذة اكتشاف المدينة من نافذة السيارة، وتطوع ليشرح لي أين نحن، وإلى أين متجهون! قال إننا نتحرك الآن في اتجاه الشارقة... هذا مركز تجاري اسمه «الملا بلازا»، وهذا طريق الشارقة دبي، هذا شارع الوحدة، وهو الذي يخترق المدينة، والآن سننحرف يسارًا من شارع الملك فيصل؛ لنصل إلى منزلي في حي «أبوشغارة»!

لم أكن أنصت إليه جيدًا، لأني كنت غارقًا في ملاحقة عناوين المحالّ وديكورات واجهاتها اللافتة.. وفجأة تدخّل حسن بسؤال بعد أن ظل صامتًا طوال الطريق:

- كيف حال أبيك... ألم يمت بعد؟

منذ أن تركنا أخي حسن قبل أربعة أعوام. وأتى إلى مدينة الأحلام هذه، وهو لا يكل مع كل اتصال تليفوني بأمه أو بي، أن يسألنا السؤال نفسه... متى سيموت أبونا؟

أجبته بصوت خفيض وحروف مدغمة:

- كما هو... لكن سعاله في اشتداد دائم!

حين خرجت من الحمام، بعد أن تمتعت بالمياه الدافئة، سمعت منصور ابن خالتي يوبخنا - أنا وحسن - بطريقة لطيفة قائلًا:

- لا يليق أن تتحدثا عن أبيكما هكذا!

وقبل أن يرد أي منا أضاف:

- أعرف أن عم عبد القوي رجل قاس... وغير محتمل... لكنه أبوكما على أية حال؟

تذكرت حواري الأخير معه وأنا أودعه في المنزل، كان محتجًا على سفري مكررًا للمرة المئة عبارته الفظة التي طنطنت في أذني بقوة، وأنا أغادر مكتب موسى الوحش مخذولًا:

- الفاشلون فقط من يبحثون عن الرزق خارج بلدانهم!

لم أعلق على كلام أبي الذي استطرد، وهو أسير نوبة سعال كادت تخرج روحه من فمه:

- هل أنتم رجال؟ لقد تركنا أخوك، وها أنت تلحق به، وتتركان شقيقتيكما مع أب مريض، وأم متوعكة على الدوام... هل أنتم رجال؟

في الطائرة رنّت كلمات أبي في أذني كالطبل، لكنها لم تستطع أن تزيل عني نوبة رعب انتابتني مع صعود وهبوط الطائرة، مصحوبة بآلام في أذني اليسرى، ظلت تلازمني لمدة تزيد على سبعة أيام. ومع ذلك، وعلى الرغم من عبارات أبي الجارحة، فقد كنت سعيدًا بتجربة ركوب الطائرة لأول مرة، كما كنت فرحًا لأن هناك أملًا في حياة أفضل يتنظرني في دبي، بعد أن أيقنت أن أبواب الرزق مغلقة في وجه أمثالي من أبناء القاهرة!

في المقهى ودّعت زملائي، الذين ألحوا على ضرورة أن أوفّر لهم عقود عمل إن أمكنني ذلك، كما صافحت زبائني الدائمين الذين تمنوا لي حظًّا أوفر في الغربة، وتكرّم بعضهم وأجزل لي في البقشيش، فشكرتهم وأنا غارق في مستنقع الخجل!

دموع أمي ونظراتها وأنا أقبّلها مغادرًا كانت تجلد مني الحواس الخمس، وقد وعدتها بأني سأزورها كل سنة على الأقل، بعكس أخي حسن الذي لم يأتِ إلى مصر إلا مرة واحدة طوال أربعة أعوام! أما ثريا ونجاة وخالتي عنايات، فقد انشغلن بإعداد حقائب السفر وحشوها بالحمام والبط.

- أخوك منصور يعشق تناول الطيور.

هكذا قالت خالتي عنايات التي أصبحت تزورنا، بعد أن تحللت أوامر أبي المشددة بعدم دخولها البيت مع مرور الزمن، لكن الوجع الذي ظل يلازمني ويشعرني بالعجز على الدوام، هو متابعتي لانطفاء ورود الأنوثة في عيني شقيقتيّ نجاة وثريا، وهما مكوّمتان تحت حجاب محكم الإغلاق، فلا تبين أي شعرة منهما، وملابس فضفاضة كأنها سراويل نساء قدمن من عصور سحيقة!

نعم... في الطائرة إلى دبي شعرت بأن نجاة وثريا نالتا عقابًا أشد وأنكى مني أنا وشقيقي، فلم تفرح أي منهما بعريس، ولم تنفلت أي منهما من سجن والدي، لتؤسس بيتًا مستقلًا مع زوج محب، تحقق معه أنوثتها في الغرام والإنجاب!

في أول ليلة لي في دبي، دعانا منصور - أخي حسن وأنا - إلى تناول العشاء في مطعم «دانيال» الذي يطل على خور دبي، كان منصور يقود السيارة بثقة من يعرف الطرق والشوارع وكأنه يعيش في المدينة منذ سنين، على الرغم من أنه وصل إلى دبي قبل ثمانية أشهر فقط، حيث أرسلوا إليه عقدًا ليعمل محررًا ثقافيًا في جريدة «البيان» التي كان يراسلها من القاهرة.

أربع سنوات قضاها منصور تقريبًا - منذ تخرجه - محررًا ثقافيًا في جريدة «الأهالي» حقق خلالها نجاحًا ملحوظًا، حيث فضح الكثير من ألاعيب كبار المسؤولين في وزارة الثقافة، من خلال حصوله على مستندات، تثبت تلقي أحد وكلاء الوزارة رشوة تتجاوز خمسة ملايين جنيه من أحد المقاولين، الذين يتعاملون مع الوزارة!

لقد أثارت هذه القضية ضجة إعلامية كبرى، جعلت من منصور نجمًا صحفيًا لامعًا، فور نشرها على صفحات جريدة «الأهالي»، الأمر الذي رشحه بيسر للسفر إلى دبي للعمل في جريدة «البيان» بعقد سخي.

لم يتردد منصور لحظة في الموافقة على السفر، فقد كان حزنه على زوجته كبيرًا حقًا! لذا كان راغبًا في هجر القاهرة والسفر بعيدًا، فلما جاءته الفرصة انتهزها فورًا.

- وأصدقاؤك هنا يا منصور.

- مابهم؟

قلت له بصوت هامس، وأنا أتلفت حولي:

- أقصد زملاءك في المنظمة السرية!

جاوبني من دون اكتراث:

- أخبرتهم برغبتي في السفر، والتفرغ للعمل الصحفي فقط!

- وهل وافقوا؟

- لا يهم... أنا أنفذ ما أريد.

ثم نظر إليّ وصاح بصوت مجروح وقلب باكٍ:

- ذكرى صفاء تحاصرني في كل مكان... وأنا لم أعد قادرًا على الاحتمال... أريد أن أبتعد!

لم أرَ منصور ابن خالتي بهذا الضعف من قبل، حتى عندما اكتشف الورطة التي أوقعتنا فيها هند. هل كان يشعر بالندم لأنه لم يستطع إنقاذها؟ لا أدري، لكن المؤكد أنه كان عاشقًا كبيرًا، والمؤكد أيضًا أنني أخطأت حين اعتقدت بعد غرقها بأسبوعين أن منصور قد نسيها، أو أن جرحه قد اندمل، حين رأيته يبادل بدر المنياوي وزوجته الضحك، ونحن نشاهد فيلم «غزل البنات» في منزله!

نعم.. عليّ أن أعترف أنني أخفقت في فهم ابن خالتي، أو بالأحرى في تقدير مدى حزنه على زوجته وحبيبته، التي راحت منه في غمضة عين!

كنت أظن أن حرصه على حضور بروفات المسرحية، التي يخرجها بدر المنياوي في قصر ثقافة شبرا الخيمة وسهره كل ليلة في منزل المخرج بعد البروفات، بمثابة عودة إلى ممارسة حياته بشكل طبيعي بعد غرق صفاء!

أذكر جيدًا أنني ذهبت معه أكثر من مرة لحضور هذه البروفات. بعدها يصطحبنا بدر المنياوي إلى منزله، فنتناول عشاءنا وهما يتحدثان في المسرحية وبروفاتها، ثم نشاهد فيلمًا أجنبيًا أو عربيًا، أو نستمع إلى بعض المقطوعات من الموسيقى الكلاسيكية، التي كان بدر المنياوي حريصًا على شرحها لنا!

كنت أرى منصور يتصرف في هذه اللقاءات بشكل تلقائي، أو هكذا اعتقدت على الأقل، على الرغم من أن صمته كان أطول، مما اعتدت عليه، ونحن عائدان آخر الليل إلى منازلنا بعد انتهاء السهرة.

أما بدر المنياوي، فكان إصراره واضحًا على حضور منصور البروفات كل مساء، وقد رأيته بنفسي يشدد على ذلك، ثم يمسك بيده ويأخذه معه إلى بيته. كان واضحًا أنه يحاول أن يُنسي منصور مأساته في وفاة حبيبته وزوجته، وكنت أحسب أنه نجح تمامًا. لكن يبدو أنني أخطأت! فلم أدرك حجم الحزن الذي اعترى ابن خالتي ومدى إحباطه!

عمومًا... حقق منصور نجاحًا باهرًا في صحافة دبي، وتمتع بلذة التفوق بعد أسابيع قليلة من وجوده في جريدة «البيان».

في مطعم «دانيال» اقتحمني شعور طاغ بحجم البؤس، الذي يمسك بخناقنا في مصر، حيث رُصّت موائد الطعام من كل صنف ولون في مساحة

بدت لي لا نهائية، وقفت مرتبكًا لا أعرف ماذا أفعل أمام الابتسامة الملونة للنادلة الفلبينية التي حدثتني بالإنجليزية، وفوجئت بأن منصور تعامل معها بهدوء وثقة، فقادتنا إلى منضدة في ركن قصي من المطعم.

- هل أنت زبون دائم هنا؟

سأله أخي حسن وهو يشعل سيجارة، أخرجها من علبة لا أعرف ماركتها.

ابتسم منصور، وهو يقول:

- أتناول غدائي هنا أحيانًا مع الأستاذ صلاح الغندور، رئيس القسم الثقافي عندنا.

نظافة المطعم كانت لافتة، والحركة الهادئة للزبائن أثارتني، فلا صوت سوى الموسيقى الناعمة التي لا أعرف مصدرها ورنين الشوك والملاعق عند اصطدامها بالصحون.

تفحصت وجوه الزبائن الذين يصطفون حول المنضدة الرئيسة لاختيار الطعام الذي يرغبون به، فوجدتهم يشكلون كوكبة مميزة من جنسيات شتى، ففيهم إيرانيون وأوروبيون وهنود وصينيون ومصريون وسوريون وعراقيون وفلسطينيون، أو هكذا ظننت بعد أن أشار إليّ منصور بأنّ جنسيات العالم تتناول غداءها وعشاءها في هذا المطعم؛ نظرًا لطعامه اللذيذ والمتنوع!

حين رن موبايل منصور، تأملت وجهه وهو يرد على المتصل، كانت أعوام أربعة تقريبًا قد مرت منذ أن خطفت منه مياه النيل، ذات نهار، عروس قلبه صفاء الشرنوبي، فوجدته كما هو:

العينان الســوداوان الأســرتان، وإن كان عصفور الحزن قد استقر فيهما منذ تلك الرحلة الملعونة إلى القناطر الخيرية، والشـعر الناعم والمنـسدل ذاتـه، أما ما لفت انتباهي، فهـو أناقته الزائدة؛ فقد ارتـدى بدلة كحلية فوق قميـص زهري اللون مع ربطة عنق حمراء! بعكس أخي حســن، الذي لاح لي كما تركنا قبل أربع سنوات، وإن بدا أكبر عمرًا وأكثر همًّا.

بسـرعة البرق ملأ حســن صحنه، عن آخره، بكل أصنـاف الطعام ولم ينسَ نصيبه من الحسـاء والسـلطة، وراح يلتهم الطعـام التهامًا، وكأن هناك مـن سـيخطفه منه بعـد لحظات! كما لـم يهتم إطلاقًا بأن ينتظر حتى نعد الصحون الخاصة بنا؛ لنبدأ في تناول الطعام كلنا معًا.

جذبني منصـور مـن يـدي، وراح يسـمي أصنـاف الطعام التي يعرفها قائلًا:

- هـذه «سـيزي» أي سـبانخ، وهـذا «زرشـك»؛ أي أرز مـزدان بحبـوب الرمان.

سألته باندهاش:

- كيف عرفت أسماءها؟

ضحك وهو يضع قطعة مـن الكباب الإيراني فـي الصحن الخاص بي صائحًا:

- هل نسيت؟ الفضول دفعني لأن أسألهم هنا عن أسماء هذه الأصناف.

ثم استطرد، وهو يشير إلى ورقة صغيرة:

- لاحظ أيضًا أنهم يكتبون بالإنجليزية اسم الطعام بجوار كل صنف!

لم أستطع أن أمنع نفسي من ملء الصحن، عن آخره، مؤكدًا الوجود الطاغي للحم والدجاج، لكني وجدت منصور قد أعد صحنًا به القليل من الطعام، الذي يتكون من أصناف متنوعة.

كنت جائعًا فازدردت الطعام بسرعة، وقمت لأجهز صحنًا ثانيًا، في حين كان حسن قد قضى على صحنين كبيرين وثالث ملئ بالحلوى والفواكه. أما منصور فكان يأكل برفق ويتمكن تام من استخدام أدوات المائدة، بينما تعثرت أكثر من مرة وأنا أحاول أن أستخدم الشوكة والسكين، فقررت عدم التعامل معهما، وقنعت بالملعقة فقط!

لم أتمكن من التهام الصحن الثاني كاملًا، فابتسم منصور، وهو يقول:

- للأسف... كل المصريين الذين يأتون إلى هنا يملأون صحونهم بما فوق طاقتهم بكثير جدًّا!

استفزني التعليق، فهتفت مسرعًا:

- وأنت؟

- كنت مثلهم، حتى علمني الأستاذ صلاح الغندور كيف أتعامل مع الطعام بإنسانية!

شعرت للحظة أن صلاح الغندور هذا الذي ذكره مرتين في هذه الليلة، قد يحل محل بدر المنياوي، ولكن هذا الخاطر زال حين تساءل حسن، وهو ينهض غير عابئ بحديثنا:

- أما آن الأوان لتناول الشيشة ؟

لم يشأ منصور أن يحرج أخي بأننا لم ننته بعد من تناول الحلوى والفواكه، حيث كان يقشر لنفسه برتقالة، وقام باستدعاء النادلة الفلبينية طالبًا منها فاتورة الحساب، لكنه همس في أذني ونحن خارجان من باب المطعم، مشيرًا إلى حسن، الذي سبقنا بعدة خطوات:

- أخوك هذا سيظل جلفًا إلى الأبد!

على مقهى «ذكريات» في دبي، فوجئت بأن منصور لقي الترحيب نفسه الذي لقيه في مطعم «دانيال»، ولكن هذه المرة من النادل المصري الذي هتف فور أن رآه:

- أهلًا بالأستاذ منصور وأصدقائه... أين الأستاذ صلاح؟

- لا أدري... فليس بيننا موعد الليلة!

«كأن المقهى في قلب القاهرة وليس في دبي» هكذا قلت في نفسي، فالضجيج المنبعث من زواياه هو الضجيج نفسه، وحركة النادلين وأصواتهم العالية، التي تنادي على «الطلبات» كما لو كنا في القاهرة، حتى أم كلثوم تردد أغنية «فكروني» بالإحساس ذاته، الذي كانت تترنم به في مقاهي القاهرة.

لكن هناك أيضًا بعض الاختلافات؛ فالمقهى أكثر نظافة ونصاعة من شبيهه عندنا، كما أنه أكثر اتساعًا، أما المقاعد والمناضد هنا فتتسم بالأناقة والفخامة، كما لو كانت خاصة بأحد الصالونات الكبرى، وليس بمقهى!

أفقت من شرودي على صوت أخي حسن، وهو يأمرني:

- بعد أن نتهي من هنا... اذهب لتنام فورًا... غدًا أمامك عمل كبير... لا تسهر... أفهمت؟

حرّكت رأسي بالإيجاب من دون أن أنطق حرفًا، أما منصور فوزع عينيه بيننا بالتساوي، ثم همهم بكلمة لم أفهمها، ولأن طعم الشيشة كان أكثر حلاوة بما لا يقاس مما ندخنه في مقاهي القاهرة، فقد ظللت أدخن بشراهة؛ هربًا من التفكير فيما هو قادم من علاقتي بأخي.

بصراحة أكثر... لقد قمت بتأنيب نفسي بقوة لأني أذعنت لأوامر حسن، وكأني مازلت طفلًا، حيث كان يجب أن أرد عليه وهو يأمرني بأن أذهب لأنام. ولكن لم يطاوعني لساني ولا شجاعتي على رد الصاع صاعين لشقيقي، الذي ورث عن أبي فظاظته وغلظته. صحيح أنه من وفّر لي عقدًا للعمل هنا، لكن ليس معنى ذلك أن أنصاع أمامه هكذا، وكأني عبد له اشتراه من سوق الرقيق؟ ترى هل تركت القاهرة هربًا من بطش أبي لأسقط في مطب جبروت أخي؟!

هاجمتني غربان الوساوس هذه، وأنا أنفث الدخان بكثافة في فضاء المقهى، بينما أم كلثوم مازالت تكرر بملل «فكروني إزاي... هو أنا نسيتك»!

في طريق العودة إلى الشارقة، كرر أخي أوامره لي وهو ينزل من السيارة أمام العمارة التي يقطن بها، أما أنا فلم أرد عليه، واكتفيت بإيماءة من رأسي تفيد الموافقة!

دار منصور بالسيارة أكثر من مرة حول البناية، التي يقطن بها حتى استطاع أن يقتنص موقفًا لسيارته، وهو يهتف مبتهجًا:

- ياه... أخيرًا وجدناك!

ثم أكمل:

- يقولون إن الشارقة قبل سنوات قليلة جدًّا كانت تعج بمواقف لا حدود لها.

- وماذ حدث؟

- أبدًا... بعد 11 سبتمبر 2001، بدأ العرب يفدون إلى هنا، بعد أن أغلقت أبواب أوروبا وأمريكا في وجوهنا باعتبارنا إرهابيين!

قال منصور ذلك وهو يضحك، قبل أن يستمر في كلامه:

- لكن الحرب على العراق، واحتلاله هذا العام، هو الذي فجّر الأزمة هنا أكثر من أي شيء!

- كيف؟

ألقى منصور التحية على حارس العمارة الهندي «افتخار» مذكرًا إياه بألا ينسى أن ينظف سيارته في الصباح، ونحن في المصعد أجابني منصور قائلًا:

- لقد دخل العراقيون إلى هذه البلاد أفواجًا بالآلاف بعد الحرب، بعد أن فتح لهم الشيخ زايد بكرمه المعروف الأبواب من دون مشكلات!

وأنا أبدّل ملابسي لاحظت أن منصور يعلّق في غرفة نومه صورة والده الأستاذ عبد العليم وأمه خالتي عنايات، بين صور أشقائه الآخرين، ولكن المفاجأة تمثلت لي في كونه يضع صورة صفاء سعيد الشرنوبي، في برواز صغير على «الكوميدينو» بجوار سريره.

تجرأت وسألته وأنا أنظر إلى البرواز:

- هل مازلت تذكرها يا ابن خالتي؟

بصوت مبحوح وعيون يملؤها كل حزن العالم، قال لي منصور بعد برهة، ودمعتان تحرقان خده:

- ومن يقدر على نسيانها؟!

ثم أشار إلى قلبه الموجوع وهو يهمس بحسرة:

- إنها هنا... تسكن هنا... وإلى الأبد!

ندمت على سؤالي... ونمت!

***

7

شقيقي حسن

- ستكون ضمن العاملين في قسم الهواتف المحمولة.

باقتضاب ووجه مقطّب قال لي موسى الوحش مدير المبيعات في كارفور في دبي، ثم أعطاني عقد العمل لأمهره بتوقيعي.. لم يمهلني حتى أكمل قراءته... بل أمرني قائلًا:

- ألم يخبرك أخوك بما فيه؟... ضع إمضاءك بسرعة.

نفذت أمره فورًا بارتباك ظاهر، وأخذت نسخة من عقد العمل وطويتها في جيبي، ثم اصطحبني يقظان مشاعل، المسؤول عن قسم الهواتف المحمولة، لأتسلم عملي في الحال.

كان أخي حسن قد قدمني إلى موسى الوحش وانصرف إلى عمله، حيث استدعى هذا الأخير يقظان مشاعل الذي حضر توقيعي على العقد، ثم سألني، بعد أن هنأني، ونحن في الطريق إلى القسم:

- هل هذه أول مرة تعمل فيها بائعًا للهواتف المحمولة؟

خجلت أن أخبره أنني كنت نادلاً في مقهى شعبي بالقاهرة، أي أنني كنت أبيع أيضًا ولكن الشاي والقهوة والشيشة، لكني تذكرت نصيحة حسن الذي ألح في تكرارها على أذني في الطريق وهي: «إنني كنت أعمل في محل لبيع الهواتف المحمولة في وسط القاهرة»!

كذبت على يقظان، وقلت له إنني ظللت عامين أمارس هذه المهنة في مصر... قلت ذلك بلغة محايدة ومن دون اكتراث، خشية أن يكتشف كذبي. لا أدري إن كان قد صدّق كلامي أم لا؟ لأنه ابتسم ولم يعلّق. كان يقظان في الثلاثين من عمره تقريبًا، أشقر الوجه، ذا عينين خضراوين وأنف مستقيم ومدبب، طويلًا نسبيًّا مع ميل إلى النحافة، أما فمه فرقيق مثل شفاه الأطفال. كان درزيًّا من السويداء بسورية، وقد شرح لي منصور فيما بعد، نقلًا عن صلاح الغندور، ما معنى أن يكون المرء درزيًّا!

قال لي منصور إن الدروز طائفة من طوائف الشيعة، ويمكن اعتبارهم على يسار الإسلام.

- أي إنهم ليسوا مسيحيين؟

ضحك منصور من سؤالي، وهو يؤكد لي أن جهلنا، نحن المصريين، بغير السُّنّة بالغ الفداحة، ثم راح يعدد الفرق التي تنضوي تحت لواء الشيعة، فهناك العلويون والاثنا عشرية أو الجعفرية، والإسماعيلية والزيديون في اليمن، والدروز وغيرهم.

- كيف عرفت ذلك؟

بأسى من كان يجهل أمرًا، أخبرني منصور أنه لم يعرف بهذه الفرق والأطياف إلا عندما جاء إلى دبي، واحتك برجال منهم قدموا من بلاد عربية مختلفة، وقد دفعه الفضول لأن يكتشف أسرار هذا العالم الإسلامي الذي نكاد نجهله تمامًا في مصر، ولا نعرف عنه إلا بعض العناوين. وقد زوّده صلاح الغندور ببعض الكتابات عن الشيعة وأطيافها.

- أين يعيش الدروز؟

أجاب منصور بصدر رحب قائلًا:

- معلوماتي تقول إنهم يتركزون في سورية ولبنان والقليل منهم في الأردن وفلسطين.

- باختصار... هل هم مسلمون حقًا؟

- طبعًا... بل يسمون أنفسهم «الموحّدون»... أي إنهم يؤمنون بالله الواحد الأحد، كما تؤمن به أنت. «قال ذلك وهو يضحك»!

حكاية الدروز هذه كانت أول ما أثار انتباهي في دبي بخصوص تعدد وتنوع الطوائف والملل والأديان، التي تضج بها هذه المدينة الفريدة، ولكن الذي شغلني أكثر في البداية هو كيف يمكن أن يعمل عدد من الناس في مكان واحد، وهم من بلدان مختلفة يتحدثون لغات ولهجات متباينة، وينتمون إلى أديان ومذاهب متعددة؟ ذلك أن يقظان مشاعل حين اصطحبني إلى مقر عملي في كارفور، قدمني إلى زملائي كما قدمهم إليّ، فكانت المفاجأة مدهشة بالنسبة إليّ، لماذا؟ لأن قسم بيع الهواتف

المحمولة يعمل به عشرة أفراد: ثلاثة من فلسطين واثنان من سوريا وفتاة مغربية ومثلها فليبينية وشاب باكستاني وشاب لبناني، ثم أنا المصري الوحيد!

لم أشعر بترحيب كبير من قبل زملائي، ولكنني لم ألقَ أيضًا أي مشاعر سلبية منهم، باستثناء نائل أبو شمالة الفلسطيني من غزة، الذي كان على علاقة سيئة بكل الزملاء عدا الفلسطينيين!

يحتل كارفور مساحة ضخمة جدًا في قلب «سيتي ستر دبي» الذي تم افتتاحه مع نهاية القرن الماضي، فكان أعجوبة الأعاجيب، حيث يرتاده كل جنسيات العالم التي تضج بها المدينة، فما من شيء تبحث عنه إلا وتجده هناك، من أول المأكولات بكل أصنافها، والهدايا والملابس والمجوهرات والتحف، حتى المكياجات والأجهزة الكهربائية، وطعام القطط والكلاب!

ما من شيء يخطر على بالك، أو لا يخطر، إلا وله مكان في «سيتي ستر دبي».

الحق أقول لكم: لقد خطفني المكان بنظافته واتساعه وازدحامه من اللحظة الأولى، فشعرت بحجم ضآلتي، وأنا أحتلّ موقعي في قسم بيع الهواتف المحمولة!

في اليوم الأول ظللت أراقب زملائي وهم يعملون، اقتربت قليلًا من الفلسطيني عامر صوالحة، فشعرت بأنه يبتسم لي ابتسامة صفراء، لا تحمل أي تشجيع على أن أظل بجواره، فانصرفت إلى السوري زاهر تقي الدين،

فرحب بي في البداية، وأطلعني على بعض أنواع الموبايلات الموجودة وكم سعرها، لكنه سرعان ما اندمج في حوار طويل مع الفتاة الفلبينية، فأحسست بأنني إلى المنبوذين أقرب!

في الثانية ظهرًا جاءني أخي حسن واصطحبني لتناول الغداء في قاعة المطاعم. لم يسألني ماذا أريد، بل طلب لي وجبة من «كتاكي» مثلما طلب لنفسه. كانت قاعة الطعام مزدحمة جدًّا، حيث اصطفت مطاعم هندية وإيطالية ولبنانية وأمريكية بجوار بعضها في نصف دائرة تقريبًا، بينما احتلت المقاعد والمناضد المساحة الضخمة أمامها.

وقفت أتأمل المشهد العام، فرأيت نساء أجنبيات شبه عاريات يبحثن عن طاولة يمكن الجلوس عليها وسط ضجيج وصراخ أطفال هنود متشبثين بأذيال فساتين أمهاتهن الملونة!

اخترقت خياشيمي رائحة طعام لم أعرفها، لكن يبدو أنه لذيذ حيث تتطاير أبخرة الدخان من الصحون، التي يحملها رجل روسي غالبًا وهو واقف حائر لا يعرف أين يجلس. أزعجتني لغة رنانة عصبية يتحدث بها اثنان من الهنود بجواري. ارتطم طفل عربي وهو يجري بعامل التنظيف، حيث سقطت من يديه صينية كان يحملها، فانكفأ الطفل على وجهه وراح يبكي!

أثارتني مؤخرة فتاة تسير نحو المطعم اللبناني بحركة راقصة، فرشقتها بعينيّ حتى اختفت في الزحام.

- هيّا...

صرخ أخي في وجهي وهو يحمل صينية الطعام، ثم أسرع الخطى نحو منضدة يستعد أصحابها للانصراف. جلسنا وشرعت في التهام ما أمامي. كنت جائعًا جدًّا، وكان طعم دجاج «كتاكي» يثير لعابي، لكن حسن قضى على وجبته في زمن قياسي، حيث كان يضع قطعة الدجاج مع الخبز مع أصابع البطاطس في فمه دفعة واحدة، ثم يملأ معدته بجرعة من البيبسي. لم أكن أتخيل أن يوجد هناك أحد قادر على التهام الطعام بأسرع مني، لكن حسن فاقني في مقدرته، حتى أنه لم يتنبه إلى بقايا الطعام التي تناثرت حول فمه وشاربه.

كان حسن في السابعة والثلاثين من عمره، طويلًا نسبيًّا، ذا شعر خشن كثيف وعينين ضيقتين، بشرته الخمرية الفاتحة خفّفت من جهامة ملامحه، التي زادت بعد أن ترك شاربه ينمو حتى غطى على شفته العليا.

لاحظت أن بقعة الصلاة في جبهته قد اتسعت وازداد لونها قتامة عما قبل!

بعد أن أفرغ آخر محتويات البيبسي في فمه تجشأ بصورة مقززة، ثم أشعل سيجارته، وهو يرنو إلي مادًّا سبابته في وجهي قائلًا:

- أنصت جيدًا... لقد دفعت رشوة للمدير موسى الوحش حتى يوفر لك عقد العمل.

- أعرف... لقد أخبرتني بذلك من قبل.

- اسكت حتى أنتهي من كلامي.

ثم همس بنبرة حادة وقاطعة:

- وعليه، فإنك مطالب بأن تمنحني ثلث راتبك لمدة عام.

لم أعلق، ولم يزد، بل أطفأ سيجارته، ثم قام وتركني، وبعد أن سار أربع خطوات نظر إلى الخلف وأمرني بفظاظة:

- لا تتأخر عن عملك، وقت الراحة لا يزيد على نصف ساعة.

تأملت بقايا سيجارته المطفأة، واكتشفت أنه لم يناولني واحدة من سجائره، على الرغم من علمه أنني أصبحت ضمن طائفة المدخنين منذ زمن!

مرقت أمامي امرأة سودانية تفوح منها رائحة أنثوية مميزة فرنوت إليها، فابتسمت لي بأسنانها ناصعة البياض، فغضضت من بصري مثبتًا نظري نحو رماد سيجارة أخي في المطفأة!

في مساء تلك الليلة مر منصور ابن خالتي على كارفور، واصطحبني معه لتناول العشاء، ولما شعر بأنني مهموم، حاول أن يهوّن عليّ بأن وضع في كاسيت السيارة شريطًا لعمرو دياب الذي أحبه، كما يعرف، لكنني لم أستجب، فسألني ما رأيك لو نتناول طعامًا مصريًا خالصًا؟... نظرت إليه باندهاش متسائلًا:

- هل يوجد مطعم مصري هنا؟

- بالطبع.

ثم أردف:

- في دبي يوجد أكثر من 180 جنسية، ولكل جنسية مطاعمها وثيابها وأماكن ترفيهها... إلخ.

بصراحة كنت جائعًا، فوجبة «كتاكي» واحدة في النهار لا تكفي لشاب مثلي، خاصة وأن الوقوف طوال عشر ساعات في العمل يستهلك مني البدن والأعصاب.

أمام مطعم «فرحات» في الشارقة أوقف منصور سيارته، كان اسم المطعم مضاء بلون أحمر، لكن حرف الراء كان مطفأ، وقد لاحظ منصور تأملي لواجهة المطعم، فابتسم قائلًا بأسى:

- للأسف، المصريون هنا لا يجيدون فن تسويق أنفسهم.

لم أفهم ماذا يقصد، فأومأت بإشارة استفهام، فتوقف منصور أمام مدخل المطعم رافعًا رأسه إلى اللافتة هاتفًا، وهو يشير بسبابته:

- منذ شهر وحرف الراء هذا مطفأ، ولم يحاول أصحاب المطعم المصريون إصلاحه.

ولأنني لم أُبدِ اهتمامًا يليق بحماس منصور وهو يتحدث، فقد لكزني في كتفي قائلًا:

- لا يوجد محل واحد في الإمارات، به خلل في لافتته أبدًا.

ثم بطريقة مسرحية مدّ منصور ذراعه بحركة نصف دائرية، مشيرًا إلى المحالّ التي أمامنا وهو يصيح:

- انظر جيدًا... كل اللافتات كاملة الحروف ومضاءة بصورة براقة.

فور دخولنا المطعم، اخترقت أذني أغنية صاخبة لمطرب لم أستطع تحديد اسمه، تنطلق من تلفزيون وضع في أقصى يسار صالة الطعام... أقبل عدد من «الجراسين» ليصافحوا منصور بحرارة وبعضهم احتضنه وقبّله، وقد عاملهم ابن خالتي بودّ شديد، وهو ينادي على كل واحد منهم باسمه.

بدا لي المطعم مكتظًّا ومزدحمًا، يظلله صخب مصري لا تخطؤه الأذن... قادني منصور نحو منضدة صغيرة في الزاوية، لم يكن يجلس أحد عليها، لكن بقايا الصحون والطعام التي تركها الزبائن السابقون مازالت كما هي.

- أرأيت.. لم يتقدم أحد لتنظيف المنضدة.

قال لي منصور ذلك وهو مبتئس، مؤكدًا لي أنه من المحال أن تجد مثل هذه الأمور في مطعم لبناني أو سوري أو أجنبي، فالخدمة هناك على خير ما يرام، بينما نحن هنا نعمل بتثاقل، ومن دون تقدير يليق بفضيلة إتقان العمل.

- ربما لا يوجد عدد كاف من العاملين هنا.

- بالعكس... إنهم أكثر مما هو مطلوب.

علّق منصور على كلامي بهذه العبارة، ثم أضاف:

- هل تعلم أن معظم العاملين هنا، وكلهم مصريون، يحملون شهادات عليا؟

- كيف؟

- لم يجدوا عملًا في مصر، فقبلوا بأي عمل هنا.

تابع منصور كلامه موضحًا لي أن هؤلاء الشباب يتابهم شعور متناقض، فهم يمارسون مهنة لم يتعلموها ولم يعرفوا فنونها، وهي خدمة الزبائن، بل، والأدهى، أن الواحد من هؤلاء يظن أنها مهنة منحطة، لا تليق بما درسه وتعلمه في الجامعة، سواء كانت تجارة أو آدابًا أو حقوقًا.

لذا، أكد لي منصور، يكابدون هنا همًّا نفسيًّا دائمًا، وهم يخدمون كل من هب ودب كما يتخيلون!

- ورواتبهم؟

- قليلة لا ريب، لكنها أفضل كثيرًا من أن يظلوا أسرى البطالة في مصر.

انحرفت بعيني نحو جدران المطعم، فشاهدت صورًا مرسومة لعبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ ونجيب محفوظ وفاتن حمامة وعمر الشريف وأحمد زويل فابتسمت، لكن منصور الذي ظل يلاحق نظراتي أخبرني أن هذه الصور مرسومة بأسلوب سوقي رديء بكل أسف!

لم أفهم ماذا يقصد بالضبط، لكنه واصل كلامه قائلًا:

- إن الأستاذ صلاح الغندور هو الذي اقترح عليهم أن يزينوا جدران المطعم بصور هؤلاء العظماء.

أقبل أحد «الجراسين» معتذرًا، ثم أخذ ينظف المنضدة، وهو يسألنا ماذا نريد أن نأكل.

طلبنا بامية وأرزًا ولحمًا وباذنجان مخللًا، التهمت الطعام بسرعة كعادتي؛ إذ كان شهيًا ولذيذًا، لكن قبل أن يطلب منصور ما يتيسر من الحلوى، سألني فجأة:

- ما سبب أحزانك اليوم؟

شرحت له ما حدث مع أخي حسن، وكيف يريد أن يستولي على ثلث راتبي لمدة عام.. كانت جمرات الغل تتقد في صدري وأنا أتحدث، لدرجة أن دموعًا هطلت من عيني من دون أن أدري؛ الأمر الذي دفع منصور لأن يناولني بعض المناديل الورقية!

- هوّن عليك... هل أخبرك بمقدار الرشوة التي أخذها مديركم الفلسطيني؟

- لا..

- وماذا كان ردُّك عليه؟

- لم أنطق بكلمة.

في طريق العودة إلى المنزل، جاء صوت أم كلثوم من إذاعة الأغاني صادحًا «فات الميعاد»، بينما اعتصم منصور بمقود السيارة لاعنًا الزحام الذي اعترضنا عند «الميجا مول». كان باديًا أنه يرهف السمع لأداء كوكب الشرق، فلم يحاول أن يجرح شدوها بالحديث عن مشكلتي مع أخي. أنا أيضًا لم أسعَ للكلام؛ فقد كنت أعرف أن إحساسه بأم كلثوم تغير عندما تعرف إلى بدر المنياوي، حيث لقنه كيفية تذوق فن سيدة الغناء، فأنصت

له منصور باهتمام، لدرجة أنهما كانا يحددان مواعيد خاصة للاستماع إليها فقط، ودراسة أغنياتها وأدائها المعجز كما كان يردد دومًا!

في المنزل أعدّ لنا منصور كوبين من الشاي، ثم أشعل سيجارة وهو يمدد قدميه على الطاولة التي تتصف الصالة، ثم قال:

- لا حل لك سوى الرضوخ لأخيك وإعطائه ثلث راتبك.

- ولكن هذا ظلم.

- هل تملك حلًا آخر؟

لم أعلق، فلم أكن أملك أي حل آخر، وكنت أعلم ذلك علم اليقين، وكان منصور أيضًا يدرك ذلك تمامًا، لكنه أهداني عبارة مطمئنة قبل أن يندس في سريره لينام!

- لا تحزن... لكل ظلم نهاية!

•••

8

امجد صفوان

قلت لنفسي: إذا كان حسن سيخطف من راتبي الثلث، فلن يبقى لي سوى 1800 درهم فقط، سأرسل منها لأبي مئة دولار أي نحو 370 درهمًا، وعليّ أن أعيش بما تبقى، بل وأوفر منه.

أعرف جيدًا أنني لن أدفع إيجارًا ولن تحرقني فاتورة الكهرباء والماء بقيمتها، لأن شركة كارفور منحتنا سكنًا مجانيًا، كما ستتحمل دفع فواتير المياه والكهرباء، ولكن ذلك لا يعني أن المبلغ المتبقي معي شهريًا سيلبي حاجاتي كما أريد!

فالمدينة مرتفعة الأسعار في كل شيء، وإذا استطعت مقاومة المغريات هنا، وهي بلا حدود، فكيف سأواجه ضغط العمل ورتابته من دون ترطيب الوجدان قليلًا بلذة الشراء والاقتناء؟

شارع المرقبات الذي تتوسطه البناية، التي أسكن فيها يعد من أهم شوارع دبي القديمة؛ إذ إن خور دبي قد شطر المدينة إلى نصفين: المنطقة القديمة؛ ويطلق عليها اسم «ديرة»، أما ما بُني بعد الخور، فيقال له «بر دبي».

كنت أستثقل نطق هذه الكلمات الخاصة بالمدينة وأحيائها فور وصولي، ثم تعودتها بعد ذلك، بل أحببت إيقاعها ورنينها، مثل جسر المكتوم، وجسر القرهود ينطقون القاف جيمًا، فيصبح الجرهود، ونفق «الشندغة»، وشارع الرقة، ومناطق أبوهيل والمنخول والقصيص والعوير... إلخ، هذه التسميات التي ألفتها بمرور الأيام.

15 شابًا يقطنون معي في الشقة، حيث أعيش مع أربعة مصريين في غرفتي، وهناك أربعة سوريون، واثنان لبنانيان يحتلون الغرفة المجاورة، بينما يقطن الغرفة الثالثة والأخيرة فلسطينيان وأردني ومغربي وتونسي! تلخصت الصدامات الخفيفة بيننا جميعًا حول مواعيد استخدام الغسالتين، وكذلك نظافة المطبخ والحمام، ولكنها لم تصل إلى مشكلات ضخمة.

لم أمكث مع منصور ابن خالتي في شقته أكثر من أسبوع، ثم انتقلت بحقيبة ملابسي إلى هذه الشقة الواسعة؛ حين أخبرني المدير أن هناك مكانًا شاغرًا ينتظرني مع زملائي. في البداية أرعبتني فكرة أنني سأقيم مع خمسة عشر شخصًا في شقة واحدة، ولكن حين رأيت اتساع الشقة، وأنها مزودة بحمّامين ومطبخ واسع وغسالتين أوتوماتيكيتين، زالت مخاوفي، وانكمش اضطرابي بصورة لافتة.

أخي حسن يعيش مع سبعة أفراد فقط في شقة من غرفتين، وهي ميزة لا ريب تناسب وضعه الوظيفي، فهو يعمل الآن Supervisor، أي ملاحظ أو مفتش على قسم من الأقسام التي يضج بها كارفور، بينما أنا مازلت موظفًا صغيرًا احتل مكانه قبل أقل من شهر واحد فقط!

أمجد صفوان هو أكبر مشكلة نعانيها في السكن، أو بالتحديد في غرفتي، فهو من عمري تقريبًا، لكنه ولد في مصر الجديدة لأب يشغل منصبًا مرموقًا في وزارة التموين. ليس له أشقاء، ويبدو أن والدته - مدرسة الكيمياء - بالغت في تدليله لدرجة أنه لا يجيد صنع أي شيء لنفسه؛ فإذا حاول أن يفتح علبة البيبسي، معشوقه الأول الذي لم يتوقف عن تناوله حتى ونحن في السجن، اضطرب وارتبك حتى تسقط من يده العلبة فيسيل البيبسي على ملابسه وفوق الأرض، وإذا تحرك في الغرفة هام على وجهه، فيصطدم بالسرير أو المنضدة أو حتى الباب!.. ومع ذلك، فهو مدجج بلسان لا يتوقف عن إطلاق رصاصات الكلام، ويتمتع بقدرة خارقة على الجدال، حيث لا يسمح لأحد منا أبدًا أن يخرج من مناقشه منتصرًا؛ فدائمًا أبدًا يختلف مع الجميع، ودائمًا أبدًا يصر إصرار الرهبان على إثبات أن آراءه هي الأصوب!... ودائمًا أبدًا يتقن فن المراوغة في الحديث، فيضرب الأمثال، وتستغرقه التفاصيل من دون هوادة حتى يصاب المتحدث معه بالضجر، فينسحب قبل أن تنتهي الجولة، حتى لو بدا أنه خسر المناقشة أمامه.

كل هذا يهون بجانب هوسه اللامعقول بهيفاء وهبي، حيث راح يعلّق صورًا عديدة لها، وبزوايا مختلفة، على جدران الغرفة وحول سريره، بل وفوق شاشة تليفونه المحمول الذي ضبطه بحيث يطلق مقطعًا من إحدى أغنياتها إذا اتصل به أحد! لدرجة أن أشرف نادر وبَّخه أكثر من مرة على هذا الافتتان اللامنطقي بمطربة، وهو في هذا العمر:

- إن المراهقين فقط يا أمجد، هم من يصنعون صنيعك!

كل هـذا يهـون أيضًـا أمـام قذارته الفائقـة التـي أزعجتني كثيـرًا ونحن مكومان داخل زنزانة في سـجن ديبي بسـبب إيرينا الروسـية، فأمجد صفوان ابـن مصـر الجديدة يكره الاسـتحمام، ولا يأنف مـن أن يظل مرتديًا قميصه وملابسـه الداخلية لمدة أسـبوع كامل، ولا يخجل من أن رائحة جوربه النتنة تسـبب له مشـكلات كثيرة، كادت تودي مرة بحياته!

حدث هذا بعد إقامتي في الشـقة بأسـبوع واحد فقط عندما عاد محسـن عبـد الغفور، زميلنا في الغرفة نفسـها، مخمورًا ليلة الخميـس. وما إن دخل الغرفة حتى اسـتفزته الرائحة النتنة لجورب أمجـد صفوان، فهتف بصوتٍ عالٍ:

- ابن المضاجعة... ألا يستحي؟

كنت في الغرفة وحيدًا، فكّرت قليلًا أن أخفف من حدّته، ولكن قبل أن أجد العبارة المناسـبة، صرخ في وجهي قائلًا:

- والله سأقتله!

ثـم قفز نحـو المطبخ وأحضر سـكينًا كبيرًا وأخفاه تحت وسـادته، بعد أن ألقـى الجـورب القذر مـن النافذة، وظـل منتظرًا عودة «النتـن» كما كان يسميه!

كانـت رائحة الخمر طافحة من فم محسـن عبد الغفور، فلم أعرف ماذا أفعل؟ نظرت إليه باستغراب لا يخلو من القلق من الخطوة التالية... تأملني وهو يشعل سيجارة قبل أن يقول:

- أنت جديد هنا... ولا تعرف شيئًا... لقد حذرته عشرات المرات من ملابسه القذرة، التي يتركها هنا وهناك لتسمّم جو الغرفة.

- ولكن..

- إنه حيوان لا يحسّ، فأنا أعاني مرض الحساسية في أنفي، وهذه النتانة تثير غضبي إلى أقصى حد!

لم أعلّق، وحاولت أن أتخيل شكل المعركة التي ستحدث بين لحظة وأخرى، فأمجد صفوان شاب طويل ذو عضلات لا بأس بها، بينما محسن عبد الغفور متوسط الطول، ممتلئ بصورة لا تليق بعمره الثلاثين، ولكنه قادم من سوهاج ومزوّد بلكنة صعيدية وغضب دائم ضد ما يراه غير مناسب، أو جارحًا لكرامته!.. حتى أن شاربه الكثيف منح ملامحه قسوة تؤكد أنه سينفذ تهديده، ويقتل أمجد الذي يقبع تحت ملامح رقيقة وبشرة ناعمة أنثوية!

لم أسعَ إلى الحيلولة دون نشوب العراك المتوقّع، ربما خوفًا من الدخول في مواجهات لست قادرًا عليها، وربما تحرقني رغبة لأرى صراعًا عنيفًا يعوّض انسحاقي الدائم وخذلاني في الحياة. كان من الممكن أن أطلب معاونة زملائنا في الغرف الأخرى لوقف نزيف الدم المنتظر، ولكني لم أفعل.. أو أن أستخرج المصحف الشريف وأضعه أمام محسن عسى أن يرتدع من كلام الله، وهو المؤمن الذي يحافظ على أداء صلاة الفجر كل يوم، لكنه يبتهج بتناول الخمر كل خميس، قائلًا لنا إن الله سيغفر له هذه المعصية مادام مواظبًا على الصلاة!.. ولكني لم أفعل أيضًا. وهكذا ظللت

مترقبًا نشـوب الصدام، وأنا أسـير عدة انفعالات: الخوف والتوتر والبهجة والقلق!

حيـن تناثرت في فضاء الغرفـة الألفاظ البذيئة، وهي مختلطة برذاذ دم أمجد ومحســن، هــرع بقية الزملاء من الغرفتين الأخريــن ليحولوا بينهما، وبالفعـل نجحـوا في اصطحاب أمجـد إلى غرفتهـم، بينما أمســك الباقي بمحســن وألزمـوه المكـوث فـي غرفتـه. ولكـن العجيـب أن محســن لم يحاول قط أن يخرج السـكين من تحت وسـادته، بل اكتفى بلكمات سريعة وعنيفـة في وجه أمجد، الذي رد شـتائم محســن فور دخوله بشـتائم أقذع منهـا.. وهكذا في لحظة اشـتبك الخصمان بالأيـدي والأرجل في البداية، ثـم قـذف كل منهما الآخر بـكل ما تطوله يـداه من مطفأة سـجائر، وكوب زجاج، ووسـائد، حتى تم إيقاف العراك بقوة على أيدي زملائنا الســوريين والفلسـطينيـين واللبنانيـين!

لـم يكتفِ مديرنا موسـى الوحش بخصم ثلاثة أيام لـكل منهما، بل قام بنقل محســن عبد الغفور من الشـقة إلى شقة أخرى، ثم دعانا جميعًا، نحن المصريون فقط، إلى مكتبه وهو يصرخ في وجهنا منذرًا:

- إذا حدث هذا مرة أخرى، فسأقوم بإنهاء خدماتكم على الفور!

لم يعرف أحد أبدًا من وشـى بهما، لأن كلًا منهما - محســن و أمجد - أقســم أمام أشـرف نادر - زميلنا الرابع في الغرفة وأكثرنـا احترامًا - أنه لم يتحـدث فـي الأمر مع المدير... لكن أشـرف أكد لي أن أحد الفلســطينيين اللذيْن يسكنان معنا هو من تبرع بإبلاغ المدير!

لم يكن أشرف نادر ينطق عن الهوى، بل كان يدرك تمامًا أن كل ما يدور في الشقة ينقل إلى موسى الوحش عن طريق الفلسطينيين تحديدًا؛ فهو يقطن هذه الشقة منذ عامين، أي إنه أقدم المصريين هنا، وقد لاحظ بذكائه اللافت أن أخبار الشقة وصراعات ساكنيها من كل الجنسيات توضع كل صباح على مكتب المدير في كارفور!

- هذا أخبث رجل يمكن أن تقابله!

هكذا قال لي أشرف نادر، وهو يستعرض ألاعيب موسى الوحش وتاريخه المزري، كما وصفه.

كان أشرف نادر يكبرني بعامين، وقد أتى إلى دبي بحثًا عن الرزق بعد أن أنهكته القاهرة وقسوتها.

- أنا أعول أربعة أشقاء وأمي.

في لحظة أسى ونحن ندخن الشيشة على مقهى «أم الدنيا» في الممزر، شرح لي قصة حياته وتاريخه مع الهموم، منذ فقد أباه وهو في السنة النهائية بكلية الخدمة الاجتماعية! بشرته القمحية وعيناه الغائرتان، منحته خصالًا درامية لبطل إغريقي قادم من كهوف الأساطير.

كان أشرف نادر هو الوحيد من زملائي في السكن الذي قدمته إلى منصور ابن خالتي، ثم الأستاذ صلاح الفندور فيما بعد، وقد احتل الرجل مكانًا مرموقًا في قلب كل منهما، بل وسعى الأستاذ صلاح إلى معاونته في توفير وظيفة أرقى تناسب مؤهلاته العلمية. وبالفعل استطاع أشرف نادر أن

ينضم إلى هيئة التدريس في وزارة التربية والتعليم في دبي، باعتباره مدرسًا للتربية الخاصة، بناء على دعم قوي من الأستاذ صلاح.

لكن العجيب أنه لم ينتظر أكثر من عام واحد فقط، في وظيفته الجديدة حتى أقدم على الزواج بابنة خالته، التي أحبها بشغف منذ كانت تبكي أمامه وهي صبية، حين تعجز عن حل مسائل الجبر في المدرسة الإعدادية!

***

9

الأستاذ صلاح الغندور

اليوم الذي قابلت فيه الأستاذ صلاح الغندور أول مرة سيظل محفورًا فوق جدران ذاكرتي إلى الأبد؛ لأنه الرجل الوحيد الذي استطاع أن يحرر ذاتي من أسر الذل، ويطلق من روحي فراشات الحرية!

في مساء خريفي بديع، وبالتحديد في 15 يناير 2004، وعلى مقهى «ذكريات» في دبي، صافحت الأستاذ صلاح الغندور للمرة الأولى في حياتي. كان منصور ابن خالتي قد مرّ علي في مقر عملي بكارفور في مساء ذلك اليوم، وقد بادرني فور أن انتهيت من كتابة فاتورة بيع أحد الهواتف المحمولة:

- هل تناولت عشاءك؟

- لا

- إذن ، نحن مدعوان على العشاء!

وأنا أرتدي ملابسي بعد أن نزعت ثياب العمل، سألته:

- من صاحب الدعوة؟

- الأستاذ صلاح الغندور.

في مقهى «ذكريات» استقبلنا الرجل بابتسامة ودود وسؤال فوري:

- هل وجدت موقفًا لسيارتك بسهولة؟

- أبدًا، لقد ظللت أدور حول المكان ربع ساعة من دون جدوى... لذا أعتذر عن التأخير.

نطق منصور بهذه العبارة وهو يقدمني إلى الأستاذ صلاح، الذي هتف قائلًا:

- هون عليك... لا داعي للاعتذار.

بدا لي أن صلاح الغندور يعرفني جيدًا، فقد صافحني بحرارة صائحًا:

- أهلًا أهلًا بابن الخالة العزيز.

ثم أردف مبتسمًا:

- لقد حكى لي منصور عن علاقتكما وصداقتكما كثيرًا.

اكتفيت بترحيب خجول ومضطرب، حتى أنني ارتبكت وأنا أجلس على المقعد، فكدت أسقط على الأرض، لولا أن قبض منصور على يدي بقوة.

كان صلاح الغندور قد أكمل عامه الثاني والأربعين في نوفمبر الماضي، ومع ذلك لاح لي أنه أصغر من عمره بنحو سبع سنوات؛ فهو طويل يتمتع برشاقة ملحوظة، خمري البشرة، ذو عينين سوداوين عميقتين، ينطلق منهما بريق ذكاء استثنائي؛ شعره الأسود الناعم لا يعود إلى كرم الطبيعة،

بـل إلى الصبغة التي عرفت طريقها إليه، قبل عشـرة أعوام، بعد أن اشـتعل رأسـه شيبًا، كما قال لي بعد ذلك، وأنا أنثر أمامه بذور مأساتي التاريخية.

لفـت انتباهي أناقته الشـديدة وطريقته الرقيقة في تناول الشـيشـة، فضلًا عن حضوره الطاغي في المكان، لدرجة أنه سأل الجرسـون إن كان بالإمكان وضع أغنية لأم كلثوم، بدلًا من الضجيج الذي ينطلق من جهاز الكاسـيت، كما قال، فإذا بالجرسون يسـتجيب على الفور قائلًا له:

«أنت تأمر يا أستاذ صلاح».

- ما رأيك في تناول سندوتشات «شاورمة» تركي؟

فاجأني بالسـؤال، لأني كنت شـاردًا أتأمل سـلوك الرجـل، الذي أحبه منصور ابن خالتي كثيرًا وحدثني عنه أكثر!

تـرددت قليـلًا قبـل أن أتمتم وأهز رأسـي بالإيجاب، فـي الوقت الذي أسعفني فيه منصور قائلًا:

- ما ألذ «الشاورمة» التركي... هل يستطيع أن يرفض؟!

قال ذلك وهو يضحك، ويكاد يضع سبابته في عيني!

أخرج الأسـتاذ صلاح ورقة بمئة درهم من محفظته، وطلب من جرسـون المقهى أن يبتاع لنا سبعة سندوتشـات «شاورما» تركي من محل اسـتانبول المجاور.

التهمت السـاندوتشـات بسـرعة، ثم تناولت البيـسي بهدوء، وأنا أسـتمتع بالشيشـة. لاحظـت أن صلاح الغندور لا يشـرب المياه الغازية، بل طلب

شـايًا بعد أن ينتهي مـن الطعام، حيث تناول سـاندويتش واحدًا فقط، بينما قضينـا أنـا ومنصور على السـتة الباقية بالتـساوي.. كان يأكل ببطء نسـيًّا، وينصت باهتمام إلى التقرير الشفهي، الذي كان يقدمه منصور عن التحقيق الصحفي الـذي كلفه بـه، وكان حول علاقـة المثقـف بالسـلطة. تحدث منصور باستفاضة ذاكرًا أسماء الشـخصيات التي تناولها التحقيق، وكيف أن بعضهـم رفض أن يتحدث في التليفون، وأصر على أن يصوغ رأيه كتابة ويرسله عن طريق الفاكس.

لم يحاول الأسـتاذ صلاح مقاطعة منصور، بل كان يهز رأسه بالموافقة، وهو يهمـس بالإيجاب بين الحين والآخر، فلما انتهى ابن خالتي من تقديم تقريره، راح الأسـتاذ صلاح يوجه له عدة أسئلة، مصحوبة بإرشادات بدت لي مهمة من بريق الإعجاب، الذي كان ينطلق من عيني منصور.

- هذه الجلسـة لا تحسـب، أنتما مدعوان في منزلي الخميس المقبل.

قالها الأسـتاذ صـلاح وهو يدفع الحسـاب، ويبـدو أنه ترك «بقشيشًا» سخيًا، لأن لسان الجرسون انهمر عليه بدعوات وتشكرات لا حدود لها!

أريـد أن أقول لكم، إنـه إذا كان اللقاء الأول بالأسـتاذ صلاح في مقهى «ذكريـات» قد بهرنـي وجعلني من المغرمين به، فإن اللقـاء الثاني الذي تم في منزله أشعرني بفخر لا مثيل له، لأني أعرف هذا الرجل الآسر!

كانت هذه أول مرة أدخل فيها إلى بيت عامر بأسـرة مصرية في دبي، أو حتى غير مصرية، حيث قدمني الأسـتاذ صلاح إلى زوجته، التي اسـتقبلتنا بملابس زاهية وابتسـامة لبلبة تشبه رائحة الفواكه.

كانت العمارة - أو البناية كما يقولون هنا - تقع في الشارع الرئيسي في حي القصيص، الذي يبعد عن قلب دبي بنحو خمسة كيلومترات فقط جهة الشمال الشرقي. منذ اللحظة الأولى، أدهشتني العمارة بفخامتها ونظافتها وتصميمها الحديث، حيث الزجاج الأخضر يحتل واجهتها الأمامية. أما شقة الأستاذ صلاح فهي في الطابق الثالث، ومكونة من ثلاث غرف واسعة بصورة لافتة، وحجرة استقبال ضخمة، وثلاثة حمامات، ومطبخ فسيح!

أول ما أثار تعجبي هو مئات الكتب، التي رُصّت بإتقان فوق مكتبة، ذات تصميم بديع وفريد أحاطت بنا في حجرة الاستقبال! إضافة إلى تلفزيون ضخم وجهاز تسجيل حديث استقر بين أرفف المكتبة وخشبها! أما جدران الشقة، فقد ازدانت بصورة كبيرة لطفلين يبتسمان، ولوحات بعضها بديع وبعضها لم أفهمه، رسمها فنانون مصريون وعرب وأجانب، كما شرح لنا بفخر صاحب المنزل!

باختصار، وكما أوضح لي منصور، فإن تصميم الشقة من الداخل، كان يتكئ على المزاوجة المدهشة بين الطراز العربي والأوروبي خاصة الفرنسي والإيطالي.

- الدكتورة منى رشاد.. زوجتي وأستاذة الأدب الإنجليزي في جامعة زايد.

نعم.. رأيت عصفور الغرام يرفرف حول جبين الأستاذ صلاح، وهو يقدم لنا زوجته التي كانت ترتدي فستانًا أحمر أنيقًا، ومزدانًا بزهور صغيرة بيضاء.

جلست سيدة المنزل بيننا بثقة امرأة ناجحة وبصورة طبيعية، حيث سألتني عدة أسئلة تقليدية تتفق مع هذه الزيارة الأولى من نوع: منذ متى أعمل في دبي؟ وما طبيعة عملي هنا؟ وعلى أي شهادة جامعية تحصلت؟ إلى آخره...

كانت إجاباتي مقتضبة وبصوت مهموس، وعيوني من فرط الخجل تصافح السجادة الجميلة، التي تتوسط أرضية الصالون! ثم استأذنت السيدة في الانصراف لتشرف على إعداد طعام العشاء!

تبين لي بوضوح أنها ليست المرة الأولى التي ترى فيها منصور ابن خالتي، فقد تعاملت معه بتلقائية، وامتدحت الحوار الذي أجراه مؤخرًا مع الشاعر السوري المشهور محمد الماغوط.

- بعد نحو عشر دقائق ستعرض قناة art أقدم فيلم عربي في حوزتنا.

هكذا قال الأستاذ صلاح وهو ينظر في ساعته، فهبَّ منصور متسائلًا:

- ما هو؟

- إنه «الوردة البيضاء» لعبد الوهاب. وقد عرض لأول مرة في دور السينما عام 1933.

تأملت حماس الأستاذ صلاح وهو ينطق بهذه العبارة، وتعجبت من لهفة منصور على معرفة اسم الفيلم، وتساءلت بيني وبين نفسي: «أمازال هناك من يهتم بأفلام الأبيض والأسود؟ وهل يوجد إنسان الآن يستمع إلى عبد الوهاب؟! إن هذه الأفلام بطيئة الإيقاع ورديئة التمثيل»!

لكن يبدو أن شرودي واندهاشي وربما امتعاضي، الذي بدا على ملامحي، لفت انتباه الأستاذ صلاح الذي سارع يسألني:

- ألا تحب عبدالوهاب؟

أجبت بسرعة تعجبت أنا شخصيًا منها:

- لا... ولا الأفلام الأبيض والأسود!

لم ينزعج الأستاذ صلاح من إجابتي التي شعرت بأنها كانت خشنة، فندمت، بل ابتسم وراح يشرح لنا بهدوء سرّ اهتمامه بهذه الأفلام القديمة، حيث قال إن هذه الأفلام هي مرآة عصر ولّى وانقضى، وهي وثيقة نادرة لمجتمع كان قائمًا وراسخًا، «أنا لا أشاهد قصة أو أتابع حبكة، عندما أطالع هذه الأفلام، فأنا أعرف مدى سذاجة صناعة السينما قديمًا، بل أتأمل كيف كان الناس يتحدثون، وما طبيعة الملابس التي يرتدون وموضتها؟ وكيف كان وضع المرأة المصرية في المجتمع آنذاك؟! سواء كانت تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية، أم كانت من الفقراء! هل تعلمان مثلًا أنه لا تكاد توجد كلمة إنجليزية واحدة، ينطق بها ممثل أو ممثلة في أفلام ما قبل 1952، بينما تحتشد تلك الأفلام بمفردات وتعبيرات فرنسية عديدة؟».

- كيف؟

تساءل منصور مندهشًا؟

وقبل أن يجيب الأستاذ صلاح، التفت بعنقه نحو اليسار ليتابع دخول الخادمة الفلبينية وهي تحمل صينية عليها عصير البرتقال.. تأملت الخادمة بطرف عيني، ورأيت وجهها الذي يكتسي ملامح فلبينية، وحلمت للحظة

أن أمسك نهديها البارزين بيدي وأعبث بهما، وعندما استدارت للانصراف، أريكتني مؤخرتها المكتنزة، وحفظتها في ذاكرتي ذخرًا لأحلام الليل وقسوة الوحدة!

- هل أنت معنا؟

أفقت من مطاردة نهدي الخادمة ومؤخرتها على سؤال منصور، فأجبت فورًا:

- نعم... نعم!

كان الأستاذ صلاح يشرح لنا لماذا لم يستخدم المصريون قبل يوليو 1952 مفردات إنجليزية في أفلامهم، لأنها كانت لغة المحتل، كما قال، لذا كانت الطبقة الراقية تنفر من التعامل بها، وتميل نحو استعمال الفرنسية، ولعل هذا من النتائج الثقافية لثورة 1919.

في هذه اللحظة دخلت الدكتورة منى رشاد وهي تقول، كأنها تكمل آراء زوجها:

- لا تنسوا أن هذه الأفلام توضح أن المرأة المصرية كانت تتصرف بحرية وثقة، فلا حجاب ولا انغلاق ولا خوف من الرجال.

- حقًا يا منى... لقد وصل المجتمع المصري إلى درجة مخيفة من الانحطاط في الأعوام الأخيرة، بكل أسف، وأول ضحاياه المرأة!

كان الأسى يلون كلمات الأستاذ صلاح الأخيرة، لكنه واصل حديثه عن الأفلام القديمة شارحًا سر افتتانه بها، فالقاهرة - آنذاك - كانت مدينة ساحرة

وهادئة ونظيفة كما نلحظها في تلك الأفلام، تحافظ على خضرتها وترعاها، فالحدائق كثيرة والأشجار تنتشر على جوانب الشوارع، والتماثيل تتوسط الميادين، كل هذا نلحظه في أفلام الأربعينيات والخمسينيات والستينيات، أما الآن، فالصورة أسوأ، والوضع رديء على كافة المستويات؛ فالقاهرة صارت مدينة أشبه بامرأة عجوز لا تزيدها مساحيق التجميل إلا فجاجة وسخرية!

- والأسعار هل نسيت؟

سألت الدكتورة منى وهي تضحك، فبادلها زوجها ضحكًا بضحك، وهو يقول:

- تلك قصة أخرى، فأسعار الطعام والملابس والرواتب والإيجارات إلخ... والتي نراها في الأفلام القديمة ليس لها علاقة بأسعار اليوم على الإطلاق، فكل شيء كان رخيصًا جدًّا، لكن لا تنسوا أن رواتب الموظفين والعمال كانت أيضًا قليلة جدًّا!

- وعبدالوهاب يا أستاذ صلا ...

لم تدع الدكتورة منى منصور ابن خالتي يكمل حرف الحاء، إذ قالت وهي تتقدمنا جميعًا نحو المائدة:

- هيا إلى العشاء لأن الحديث عن عبدالوهاب لن ينتهي.

ثم أردفت وهي تضحك:

- أنا أعرف زوجي جيدًا، فهو من عشاق عبدالوهاب وأم كلثوم، ولن يتوقف عن سرد عبقريتهما!

كانت المائدة عامرة حقًا، فهناك اللحوم المشوية والمقلية، والدجاج والمحاشي المتنوعة والمكرونة بالباشمل، والسلطات الخضراء، بينما كانت تتوسط المائدة زجاجة نبيذ أحمر.

في أول الأمر لم أكن أعرف ماذا تحتوي هذه الزجاجة، ولكن الأستاذ صلاح بذكائه الحاد أدرك ذلك، فلم يسع إلى إحراجي وهو يشير إليها موجهًا كلامه نحوي:

- أنت تعرف طبعًا فوائد النبيذ الأحمر؟

لم ينتظر مني أي إجابة؛ إذ عقّب فورًا:

- مع اللحم الأحمر يفضل تناول النبيذ الأحمر، ومع اللحم الأبيض كالأسماك والدجاج يفضل النبيذ الأبيض.

ثم ضاحكًا:

- هذه عادات فرنسية أصلًا ولا تنسوا أنه مفيد جدًّا لإذابة الكوليسترول، الذي يتراكم على شرايين القلب ويسبب الجلطات المميتة.

أثناء ما كان يقدم لي كأس النبيذ، نصحني بجدية:

- الإفراط في تناوله لا يفيد، بل قد يضر.

لم يشرب الأستاذ صلاح سوى كأسين فقط وببطء، بينما زوجته اكتفت بواحد، في حين أن منصور تجرع أربع كؤوس، أما أنا ففعلت مثل صاحب المنزل الذي أعاد حديث الأفلام القديمة، وهو يقشر لنفسه برتقالة قائلًا:

- أرجو أن تلاحظوا مقدمة الأفلام القديمة، وبالمناسبة تكتب عادة بخط جميل وبديع، لتكتشفوا أن الذين يتولون المسائل الفنية والتقنية دائمًا

من الأجانب، خاصة الأرمن، فتجد المصور اسمه «كارفاش»، ومهندس الصوت اسمه «كاليليو»... وهكذا.

- ما معنى هذا يا أستاذ صلاح؟

سأله منصور، وهو يعب رشفة من الكأس في جوفه، فأجاب الرجل:

- معناه بسيط... إن المجتمع المصري آنذاك، كان يحتضن الأجانب من دون مشكلات، وكان الأجانب - الذين اخترعوا السينما - أمهر منا بلا جدال في المسائل التقنية.

- ولا تنسوا أن النجوم العرب أيضًا وجدوا حضنًا دافئًا في مصر.

بهذه الجملة اختتمت الدكتورة منى رشاد الجلسة على المائدة، وهي تعاون الخادمة الفلبينية في رفع الصحون.

في أثناء عودتنا سألت منصور عن أبناء الأستاذ صلاح، فقال لي: عنده ولدان الأول في الصف الأول الإعدادي والثاني في الخامس الابتدائي، وهما الآن في رحلة مدرسية إلى لندن لتفوقهما.

عندما استلقيت على سريري في تلك الليلة لم أستطع النوم بسهولة، فكلام الأستاذ صلاح عن السينما المصرية شغلني، كما أن بيته البديع وزوجته الجميلة وعشاءه اللذيذ وابناءه.. كل هذا أثار اهتمامي، لكن خادمته الفلبينية اقتحمتني بنهديها ومؤخرتها، فلم أفلح في الانفكاك منها، إلا بدخول الحمام وتعريتها من كافة ملابسها وأنا مغمض العينين؛ لأضاجعها بقوة خيالي وأنا غارق في بحر اللذة!

•••

10

هند المغربية

حين نزعت هند القطعة الأخيرة من ملابسها ورأيته أمامي لأول مرة في حياتي، هذا الذي كان الشغف به يحرقني كل ليلة، والحلم برؤيته ولمسه وتقبيله يطاردني في أحلام اليقظة، والشعور بالحسد الذي كنت أكابده تجاه منصور ابن خالتي يلازمني دومًا، لأنه رآه وتذوقه وعانقه عندما كانت صفاء الشرنوبي تلون سماء حياته.

هذا الذي كنت أجهل أين يستقر بالضبط في جسد المرأة، وما هو لونه، وما هي درجة حرارته ورائحته، وكيف يمكن إتمام السيطرة عليه واختراقه، ودكه دكًا حتى أصطاد عصفور اللذة من بين غاباته!

أقول، عندما نزعت هند ملابسها ورأيته هكذا أمامي فجأة أسفل بطنها، لم أجد سلاحي عامرًا، ولم أشعر به متنفضًا وساخنًا، ولم أحسه ملهوفًا وتوّاقًا لمعرفة سر الأسرار، بل وجدته منكمشًا نائمًا، متدليًا كقطعة جلد ميتة بين فخذيّ، لا حول له ولا قوة، حاولت إنهاضه بسحر المرأة العارية التي أمامي فلم أفلح، أمسكته بيدي ودعكته برفق عسى أن يتمدد وينطلق فلم أنجح!

جنّ جنوني... كيف انطفأ نور غريزتي؟ وأين ذهبت خيالاتي وهواجسي؟

بل كيف خمدت نيران الرغبة المشتعلة في جسدي، منذ أن قذفت بي الأيام فجأة من طور الطفولة إلى طور الرجولة؟ هل أصبت بمرض مفاجئ قضى على أحلامي الجنسية إلى الأبد؟ هل الرعب من أن يقتحم الشقة أحد هو الذي هدّ كياني ونزع عنّي الشهوة؟ لقد أكدت لي هند أن المكان آمن تمامًا، وأنه ما من أحد سوف يأتي أبدًا!

هل جسدها الذي يحتشد أمامي بمفاتن لا حصر لها لا يرضيني؟ ومن أنا أصلًا حتى يرضيني أو لا؟ وهل رأيت غيره قبل ذلك لأقرر هل هو جسد بديع أم لا؟ إذن، كيف نام هذا الحيوان الآن؟ ولماذا لا ينطلق ويهفو ويصبو نحو التي جرجرتني إلى هنا؟

ترى ماذا ستقول عني هند؟ هل ستسخر مني وتنعتني بأني شاب فاقد الرجولة؟ هل أقسم لها أنني مكتمل الرجولة، وأن حيواني هنا يتمدد ويتصبب بقوة لدرجة يكاد يخترق بها حائطًا من الأسمنت؟! هل أخبرها بما أفعل كل يوم تقريبًا في الحمام؟

لن تصدقني، حتمًا لن تصدقني، فهأنذا أقف أمامها عاجزًا، وهي التي خططت ورتبت ونظمت هذا اللقاء!

آه... هل سحرتني؟ يقولون إن المغربيات لهن قدرة خارقة على السحر، وأنا مؤمن تمامًا بأن السحر موجود والسحرة منتشرون؛ لأن القرآن الكريم ذكره وذكرهم، حتى لو كان منصور ينكر وجود السحر، ويقول إنه وهم اخترعناه لنبرّر فشلنا!

ولكن لماذا تسحرني هند وتقهر رغبتي الجنسية؟ أليست هي التي تقرّب مني منذ خمسة أشهر؟ أليست هي أول من بادرت وأمسكت يدي ونحن نتناول غداءنا في المطعم المغربي الذي دعتني إليه؟ أليست هي التي مالت عليّ وقبلتني على خدي داخل المصعد ونحن قادمان إلى هنا؟ لقد كدت أطير فرحًا وهي تطرح عليّ أن نلتقي وحدنا، حيث أدركت تمامًا من نظرة عينيها أن هذا اللقاء لن يكون بريئًا.. آنذاك كنا نتناول الغداء في مطعم مراكش المغربي في شارع الشيخ زايد.

كانت سعيدة بعد حصولها على وظيفة أفضل في شركة علاقات عامة، قبل أسبوع واحد فقط!

- هذه الدعوة على حسابي بمناسبة العمل الجديد.

قالت لي وهي تجلس مبتسمة، ثم أضافت:

- أظن أن هذه أول مرة تدخل فيها مطعمًا مغربيًا.

- نعم.

قلتها بصوت خفيض، وكأنه من العيب أن أكون في دبي منذ خمسة أشهر من دون أن أرتاد مطعمًا مغربيًا.. كانت هند ترتدي بلوزة خضراء ضيقة ومفتوحة عند الصدر، حيث من السهل رؤية الجزء العلوي من نهديها، أما بنطلونها الجينز الأسود، فكان ضيقًا بصورة لافتة وكأنه ملتصق بمؤخرتها وفخذيها!

حين أخبرتني في الموبايل أنها ستمر أمام منزلي في الثانية ظهرًا بسيارتها لتصحبني إلى المطعم، كنت فرحًا بها ولها. أخيرًا تخلصت

هند من سخافات المدير موسى الوحش وملاحقة زملاتنا بقظان مشاعل ونائل أبو شمالة، اللذين لا يكفان عن مشاكستها ومطاردتها عسى أن ينالا وطرهما منها.

كنت ألاحظ هذه المطاردة وأتابع هذا التحرش كل يوم تقريبًا، ونحن نمارس عملنا في كارفور، لكني لم أكن قادرًا على فعل شيء، بينما هي تمتلك من الجرأة وسلاطة اللسان وقوة الشخصية ما يجعلها توقفهما عند حدهما.

لقد هددت نائل أبوشمالة مرة أنها ستبلّغ عنه الشرطة، إذا حاول لمسها ولو بطريقة عفوية؛ حيث صرخت في وجهه قائلة:

- لا تلمسني... فأنا أعرف خداعك ووسائلك القذرة.

- لم أقصد... صدقيني يا هند.

- لا... بل تتعمد أن تلمسني، وأنا مشغولة بالبيع!

لقد رأيت هذه الواقعة بنفسي، وتجنبًا لأي احتكاك لا أرغب فيه وغير قادر على مواجهته، تظاهرت بأني منشغل بترتيب الموبايلات في فاترينة العرض، وأنا أتلصص بطرف عيني لأراقب نتائج الصدام بين هند ونائل أبوشمالة!

كنت أعرف كيف تكون غاضبة بشكل حقيقي، ومن دون انفعال، من خلال نظرة عينيها التي تضيق وتنفتح في لحظة باعثة شررًا وغيظًا، كما أن بشرتها الخمرية تزداد قتامة كلما اعتراها غضب أو حزن.. لا أذكر بالضبط متى بدأت تهتم بي وأنشغل بها، لكني أذكر جيدًا مواساتها لي، عندما

استدعاني المدير موسى الوحش ووبخني بناء على شكوى قدمها ضدي زميلي الباكستاني منير خان. اتهمني منير بأنني أضعت دفتر الفواتير، ولما أقسمت للمدير أن هذا لم يحدث، لم ينصت إليَّ، وظل يلاحقني بعبارات التوبيخ والتهديد بخصم يومين من راتبي بسبب الإهمال حتى رنّ الموبايل الخاص به، فسكت فجأة وهو ينظر إلى شاشته ليعرف من المتصل. آنذاك رمقني بحدة وأمرني بالانصراف!

- أقسم لك يا هند أنها مكيدة.

- أعرف... إنهم لا يرغبون في وجودك هنا.

- مَنْ؟

أشارت بعينيها إلى اثنين من زملائنا الفلسطينيين، اللذين كانا منهمكين في شرح إمكانات موبايل نوكيا الجديد لعدد من الزبائن.

- وما دخل الباكستاني؟

- إنهم يحركونه كيفما شاءوا، وهو ينفذ كلامهم تقربًا وزلفى للمدير!

في هذا اليوم المشحون، اصطحبتني هند لأول مرة بسيارتها نحو مقهى الليدو التونسي في ديرة، ودعتني لتناول شاي مغربي بالصنوبر. بهرتني أناقة المقهى ونظافته، ولكني لم أستطع التخلص من التوتر الشديد، الذي استولى على كياني كله من جراء توبيخ وتهديد موسى الوحش. سرحت في صورة ضخمة معلقة على الجدار بجوار صورة الشيخ زايد، فقالت لي هند وهي ترنو إلى الصورة نفسها:

- هذا هو الحبيب بورقيبة.

لم أفهم جيدًا ماذا قالت بالضبط، فأدركت ذلك وكررت بصوت واضح وإيقاع بطيء، وهي تنطق عبارتها حرفًا حرفًا:

- الحبيب بورقيبة... رئيس تونس السابق.

لم أسمع به من قبل، ولم أهتم أن أستفسر عنه، ولكن هند لم تمنحني فرصة للتجوال بنظراتي في المقهى، حيث هتفت وهي تشعل سيجارتها:

- حذار من منير خان... فالباكستانيون خبثاء!

منذ أن التحقت بالعمل هنا، وأنا لا أشعر بالارتياح تجاه منير هذا، فله نظرات ثعلب يتظاهر بالطيبة، وعلى الرغم من أن شعره الأسود الناعم كان يستفزني لغزارته وكأنه يغطي وجهه كله، فإنني كنت أتحاشى النظر إليه. ومع ذلك حاولت الحفاظ على علاقة ودودة معه ومع الجميع، فلماذا يحاول أن ينشر لي صورة المهمل، وهي غير صحيحة؟

لم تدعني هند أسبح في بحر هواجسي، فأفصحت عن السر بضربة واحدة:

- لقد سمعتهم بالصدفة، إنهم يريدون توفير وظيفة معنا لشاب فلسطيني.

سألتها بارتباك:

- وهل تعتقدين أنهم يخططون لطردي!

- ليس عندي دليل أكيد، لكني أخمن ذلك!

سقط قلبي بين قدميّ في لحظة من هول الرعب، لو فقدت وظيفتي هنا لانهارت أحلامي. ماذا أقول لأبي الذي شتمني أول أمس، عندما كنت

أتصل بأمي، فانتزع منها موبايل أختي ثريا وأطلق علي وابلًا من الشتائم؛ لأني تركته هناك وسافرت ثم كرّر عبارته المشؤومة التي لدغني بها كثيرًا: «الفاشلون فقط من يبحثون عن الرزق خارج بلدانهم»!

كيف سأواجه أخي حسن إذا تم الاستغناء عن خدماتي، لن يتوقف عن إهانتي واتهامي بالإهمال ولكن...

- هه... أين ذهبت؟

أفقت من مخاوفي على صوت هند، وهي تضغط على يدي ضغطة خفيفة، فقلت من دون تفكير:

- أبدًا... أنا معك!

- لا تقلق... أنا أيضًا معك، ولن أجعل هؤلاء الأوباش يكيدون لك.

لا أدري كيف واتتني الشجاعة لأسألها لماذا تهتمين بي؟ لكنها ابتسمت وهي تتناول رشفة من الشاي:

- أنا أحب المصريين... وأعشق لهجتكم كثيرًا.

- ماذا؟

- نعم أحبكم كثيرًا، منذ كنت طفلة أشاهد أفلامكم ومسلسلاتكم ونجومكم وأستمع لأغنياتكم... أحب عبدالحليم وأم كلثوم وحسين فهمي ونور الشريف ويسرا وعادل إمام، حتى أفلام الأبيض والأسود أحبها جدًّا، أنا مفتونة بشادية وفاتن حمامة وسعاد حسني ورشدي أباظة وأحمد رمزي وحسن يوسف وشكري سرحان.

كانت هند تتحدث بطلاقة عن غرامها بنجومنا وفنانينا، ثم انتبهت هنا فقط أنها لا تتكلم معي إلا باللهجة المصرية، ليس الآن فحسب، بل طوال الوقت، لأني سمعتها مرة تتحدث في الموبايل بلهجة لم أفهم منها شيئًا، وقد أخبرتني أنها كانت تتكلم مع أمها في المغرب، ولكني لم أفطن آنذاك أن لها لهجتها الخاصة التي لا تتفاعل بها معي أبدًا، فهي تتقن المصرية بصورة لافتة، ولا تستخدم غيرها في الحديث معي.

- أشكرك.

هذا ما قلته، ولم أستطع أن أزيد كلمة واحدة بعد وصلة المديح، التي كالتها للمصريين، لكنها علقت على شكري بعبارة دالة:

- أنت شاب طيب... وقد ارتحت إليك منذ رأيتك لأول مرة.

في مقهى الليدو منذ خمسة أشهر، أعلنت ارتياحها لي، وفي مطعم مراكش قبل أسبوع واحد فقط أمسكت يدي وهي تهمس «يجب أن نجلس في مكان وحدنا»... فلماذا أقف الآن مشلولًا؟ رغبتي لا تطاوعني وهي عارية أمامي تقلّب في جواز سفري ومحفظتي. ألم يشتعل جسدي ويتصب حيواني، وهي تضحك ونحن في المطعم، عندما قالت لي:

- سنأكل «كسكس» ... أشهر طعام مغربي.

لقد توقفت برهة بعد أن نطقت أول حرفين من «كسكس»، ثم أكملت الاسم، فجن جنوني من فرط الشهوة، لكنني لم أستطع أن أمد يدي لألمس يدها، فقالت ضاحكة:

- هكذا تسمونه في مصر... أما عندنا في المغرب فله اسم آخر.

- ماهو؟

بغنج ودلال وابتسامة مغرية صدحت:

- عندما نلتقي وحدنا... سأخبرك!

إنها عارية الآن، وأنا أتظاهر بأني أريد أن أغسل وجهي، فذهبت إلى الحمام عسى أن ينفخ الله فيّ نيران شهوتي فأنقض عليها.. إنها تضحك الآن وبشدة، صوتها يجلجل في المكان، هل لاحظت أنه مازال نائمًا ومطموسًا بين فخذي؟.. يالها من فضيحة لم تكن في الحسبان! ماذا تقول؟ إنها تناديني.. فلأخرج إليها:

- هل اسم عائلتك «الزبال»؟

فضيحة أخرى، وهل أنا في حاجة إلى فضائح جديدة؟ كانت تقلّب في جواز السفر وتضحك، ابتسمت وأشرت بيدي بما معناه أن ليس لي ذنب في لقبي!

فتحت ذراعيها ونادتني بدلال:

- اقترب.

جسدها خمري ومتناسق، ونهداها نافران ومستعدان، وها هو باب الأسطورة الذي يحيرني منذ سنين يقبع أسفل بطنها، فلماذا أنا غير قادر على اقتحامه! ولماذا يخذلني جسمي الآن!

اقتربت برفق، فأنعشتني رائحتها.

لكنني لم أدر الفارق بين رائحة جلدها وبين رائحة البارفان الذي تطيبت به. تمددت بجوارها على السرير مأخوذًا بنفاذ الرائحة وحلاوتها.. صعدت فوقي وبدأت تقبلني بشهوة، استجبت لعنفوانها وقبلتها، راحت تدعك بطني بيطنها، فلم تجد ما تأمله، دعتني إلى أن أمتطيها، ففعلت لكن من دون جدوى، مدت يدها وأمسكته ثم بيدها الأخرى قبضت على يدي وقادتها نحو نهديها فبطنها، ثم وضعتها فوق باب الأسطورة، فارتعشت رعبًا وتوترًا وسحبت يدي بسرعة... انكفأت فوقي مرة أخرى، وهي مقطوعة الأنفاس لتدعك بطنها ببطني بحرقة شديدة وشبق طاغ، فلم ينهض وظل ذاويًا ... توقفت فجأة بغضب أعرفه تمامًا من حركة عينيها ولون بشرتها، ولكنه أخف وطأة من غضب عزة سليمان في الليلة الفاصلة، ومع ذلك تماسكت وابتسمت، وهي تهم بالنزول من فوقي صائحة:

- لا يهم... يبدو أنك مجهد اليوم... هيا بنا!

***

11

المزعــج

خمســة أيـام مرّت منـذ عجزت عن مضاجعـة هند، وأنا غيـر قادر على الكلام. الاكتئاب انغرز في قلبي وشـلّ لسـاني، فرائحتهـا مازالت ملتصقة بجلـدي لتعلـن كل لحظة أنني أخفقت، وأن رجولتي طعنت فوق سـريرها وذبحت، حاولت التخلص من الرائحة بمزيد من الاستحمام فلم أفلح، بل كانت تـزداد عنفوانًا، وكأن الماء والصابون يؤكـدان حضور تلك الرائحة، ويعمقان مدى التصاقها بجسـمي!

حتى البارفـان لـم ينجح فـي محوهـا، لدرجة أنني غامرت واقتنيت زجاجـة عطر غالية ثمنها ضعضع ميزانيتي، ومع ذلك لم أستطع التخلص مـن رائحة هند، التـي داهمتني في ليلـة زفافي، بينما زوجتـي ترقد محبطة وحزينـة بجـواري، وكأنها بصمةٌ علـيّ الحياة بها لتعلن لـي كل لحظة أنني غير مكتمل الرجولة!

المحـزن في الأمر والمثيـر جدًّا أنني بعد اليوم المشـؤوم ذاك، اعترتني رعشة الجنس وأنا أشاهد قبلة حميمة في فيلم أجنبي على قناة mbc2، فلم

أنمالك نفسي وقمت إلى الحمام يسبقني بلهفة هذا الحيوان الذي خذلني يوم هند.

لقد كان عامرًا ومتحفزًا ومستعدًا لاختراق ألف امرأة، فابتهجت به وله، وجرجرت هند وهي عارية إلى سرير خيالي، وضاجعتها حتى ارتوينا، ومع ذلك في الصباح، رأيتني مهمومًا وطائر الغم ينقر في صدري! تلاحقني أحداث اليوم المرفوض، وتجللني رائحة هند التي لا تزول لا بماء ولا بصابون ولا بعطر، وكأنه عقاب إلهي؛ لأني لم أستطع أن أنجز مهامي الذكورية معها.

أليس من الجائز أن الله قد قتل نمر ذكورتي في تلك اللحظة بالذات؛ حتى لا أرتكب جريمة الزنى، فيعصمني من الرذيلة ويحميني من شطط نفسي؟! هل كان الله رؤوفًا بي حقًا بحيث جعل غرائزي لا تشتعل قط، بينما هند تتمدد عارية أمامي!

هل هي حكمة إلهية أن أحلم طوال عمري برؤية امرأة عارية ومضاجعتها، ثم لا أفلح في القيام بالمهمة عندما تحين الفرصة؟ ماذا تقصد يا الله؟ أجبني... ارحمني، فأنا مؤمن بك وأحبك وأخشى عذابك، لكن الشهوة يا الله تفتت أعصابي وتشطر كياني كله؟

فلماذا يا الله جعلتني قاب قوسين أو أدنى من التهام تفاح الأنوثة، ثم أغلقت فمي فجأة، ونزعت أسناني فجأة، فصرت عاجزًا عن تناول أشهى الأطعمة؟ أخبرني يا الله... هل أفرح لأنني لم أسقط في بئر المعاصي وظللت عبدك المطيع، الخانع؟ أم أحزن لأنك ذبحت ذئب شهوتي

وحرمتني من أم اللذائذ؟ سبحانك... سامحني يارب... واغفر لي جنوني وهوسي!

خمسة أيام مرّت منذ اليوم البغيض ولم تتصل هند سوى مرة واحدة، لم أجرؤ على الرد عليها خجلًا، فلم تعاود الكرّة، وكأنها انتظرت عدم ردي لتنهي علاقتنا، التي لم تكتمل أصلًا! هل أرسل لها «مسج»، على موبايلها؟ ماذا أقول فيه؟ ولماذا لم تحاول هي أن ترسل لي «مسج» عندما لم أرد على اتصالها؟

رأسي سينفجر وحزني باتساع البحر، والرائحة تطاردني. واليوم في الصباح همس في أذني يقظان مشاعل، وهو يضحك: «لن تجد من يدافع عنك بعد ذهاب هند... فانتبه إلى عملك».

ماذا يقصد هذا الشرير؟ هل أنا مهمل في عملي؟ هل لاحظ أن هناك علاقة بيني وبينها؟ هل قالت له هند عما حدث في منزلها؟ هل يحذرني من مؤامرة تحاك ضدي لإطاحتي من وظيفتي؟

ثم ما الضرورة لأن يذكر هند الآن؟ هل ارتبط بها فترة، فغمرته لحظة حنين نحوها؟ لم ألاحظ شيئًا يدل على ذلك، لكن من يدري؟

استبد بي الجوع فقمت إلى الثلاجة وأحضرت تفاحة، أكلتها من دون شهية، وأنا أتساءل: كيف أخرج من هذه الورطة؟ وهل هي ورطة هند أم ورطتي؟ هل أخبر منصور ابن خالتي بما جرى في اليوم البائس؟ هل سيشمت ويسخر أم سيراعي ويقدر؟ لن أستطيع أن أخبره بأن أول امرأة أراها عارية في حياتي، وأول امرأة أقبلها في حياتي لم أتمكن من إتمام

عملية المضاجعة معها حتى النهاية... لا لا، لن أقدر أن أخبر منصور بالخيبة التي أنا فيها!

انفتح باب غرفتي فجأة بعنف، فاضطربت بشدة. كان أمجد صفوان كعادته يتحدث في الموبايل بصوته العالي وهو يضحك ويسب. لا يطرق الباب هذا الشاب أبدًا قبل دخوله الصاخب... نزع حذاءه، فانتشرت رائحة جوربه النتنة في المكان بسرعة لافتة.

أشرت إليه بتوسل أن يغسل جوربه وقدميه، فرد وهو يشعل سيجارة، ومن دون أن ينظر إلي:

- فيما بعد... فيما بعد.

منذ معركته مع محسن عبدالغفور، وأمجد صفوان لم يحاول أن يغير من عاداته المرذولة أبدًا، فقذارته كما هي. ومن عجب أنه كان يمتلك مقدرة فائقة على التبجح بأن ملابسه نظيفة بحجة أنه لا يتعرق! لذا فلا يوجد داع للاستحمام كما كان يردد، وأننا - نحن المنكوبين - بروائحه المزعجة لا نفهم أن هناك أجسادًا من الممكن أن تظل تسعى طوال الأسبوع، من دون الحاجة إلى استحمام أو تغيير الملابس!

عبثًا حاول أشرف نادر أن يشرح له أنه من المحال ألا يتعرق أحد في مدينة الشمس الجهنمية هذه، من دون فائدة، كذلك حاول أن يبين له أن الجسد - أي جسد - يخرج بانتظام إفرازات من مسام الجلد، ومن ثم يصبح الاستحمام ضرورة قصوى لتنظيفه من هذه الإفرازات ذات الرائحة الكريهة. لكن أمجد صفوان لم يكن ينصاع لأي كلام، ولا يسمح لأحد

بأن يواصل حديثه من دون أن يتدخل لإيقافه، ثم يشرع هو في شرح وجهة نظره بأداء مسرحي وصوت عالٍ، مع الاستغراق في التفاصيل.

لا يكل أمجد أبدًا من الكلام والإصرار على أن ما يقوله هو الصواب ولا صواب غيره، فنضطر جميعًا إلى السكوت والانصراف عنه من باب القرف منه، وهو مازال يطلق نيران آرائه الساذجة على رؤوسنا! لكنه أحيانًا - والحق أقول - أراه يلقي ببعض جواربه النتنة في سلة المهملات، عندما ينفعل أحدنا ويشتد انتقادنا له، لكنه يحافظ - أيضًا - على أن تظل رائحة ملابسه الكريهة تسطو على فضاء حجرتنا، وكأنه يسعد بتغذينا عندما نستنشق قذاراته!

- ما بك؟ ما كل هذا الهم الذي يسكن عينيك؟

قالها ولم ينظر إليّ، كان دائم الحركة بلا سبب محدد، سواء في غرفة السكن أو سجن دبي. يعشق التحدث وهو واقف دومًا بينما جسده الفارع يهتز بصورة آلية يمينًا ويسارًا. لم يتنظر مني إجابة، بل تبرع لشرح حالتي وتفسيرها من دون أن يسمع مني كلمة واحدة، حيث قال: «يبدو أن هناك امرأة تشغلك، أو أنك مفلس»، ثم أضاف موضحًا: «هذه البلاد يستحيل أن تحيا فيها يومًا من دون مال».

هل أخبر أمجد بما حدث لي مع هند؟

طردت هذا الخاطر فورًا! فمن أمجد هذا لأطلعه على دخائلي وأسراري وخذلاني؟ لقد صدق بقوله إن هناك امرأة تشغلني! هل أجعله يشاطرني همي، عسى أن أتخفف قليلًا من وطأته فوق قلبي؟

آه... فكرة رائعة، ماذا لو طلبت منه أن أذهب معه إلى الأماكن، التي يقتنص منها الروسيات ويضاجعهن، لأجرب حظي مرة أخرى مع امرأة مغايرة؟

منذ جئت إلى هنا والكل يخبرني أن أمجد صفوان يوزع أمواله وجسده على العاهرات الروسيات، وقد نصحه محسن عبد الغفور أكثر من مرة أمامي أن يحتاط ويرتدع، فالإيدز ليس له علاج، كما أن ثمن غربتنا لا يجب أن يبدد فوق أسرّة البغايا. وكان أمجد يفخر بعاهراته، ويدعي أنهن من يسعين لطلبه، وأنه لا يدفع مليمًا لأي منهن لقاء مسرات الجسد، بل يدفع فقط ثمن البيرة أو الويسكي!

هكذا يقول لنا... فماذا لو طلبت منه أن يصطحبني معه، عسى أن أنجح؟ أنا واثق تمامًا أنني مكتمل الرجولة، ولكن ليس عندي تفسير لما حدث مع هند، فلأجرب رجولتي مرة أخرى مع امرأة روسية، هل قلت روسية؟ كيف سأتعامل معها واللغة عائق لا حيلة لي بتجاوزه؟ أنا بالكاد أعرف بعض المفردات والعبارات الإنجليزية التي أتفاهم بها مع الزبائن! وكم من مرة أنقذتني هند بتدخلها لتتعامل هي مع زبون أجنبي، عندما أخفق في مواصلة الحديث معه بالإنجليزية. وإذا كنت لم أفلح في المضاجعة بالعربية، فهل أنا قادر على ممارسة الجنس بلغة أجنبية لا أجيدها أصلًا؟ لا لا... لن أطلب من أمجد شيئًا، كفى فضائح!

- هل معك مئتا درهم حتى أول الشهر؟

لكزني أمجد في كتفي وهو يطلب مني المبلغ، فاضطربت قليلًا ونظرت إليه وتذكرت قول محسن عبد الغفور عنه: «إياك أن تقرضه أي أموال ولو فلسًا واحدًا، فهو لا يرد دينه إلا بشق الأنفس».

أما أشرف نادر فقد لفت انتباهي إلى أن أمجد يعد من أكبر الذين يقترضون من البنوك هنا، وحين لا يجد بنكًا يقرضه يدور علينا، فهو لا يعرف كيف يدبر أموره أبدًا، ولما سألته كم راتبه:

- أظن أن راتب موظف الكاشير يزيد قليلًا عن رواتبنا.

أول نصيحة قدمت لي هنا بعد يومين من سكني في هذه الشقة، هي عدم التعامل ماليًا مع أمجد صفوان تحت أي ظرف، وقد شدد كل من محسن عبد الغفور وأشرف نادر على هذا الأمر. وأذكر أن محسن قد قال لي مرة: «إن أمجد ليس ملزمًا بإرسال أي مبالغ لأهله في القاهرة فهو وحيد وأبوه مستور، فضلًا عن أن راتب وظيفته في كارفور أكبر بما لا يقاس».

أثناك كنا نجلس ثلاثتنا في الغرفة ليلًا، فسألت بسذاجة: «أين تذهب نقوده؟». ضحك أشرف ومحسن، وهتفا بصوت واحد:

- الروسيات... والخمر.

ثم استطرد أشرف قائلًا:

- لاحظ أنه لا يعترف بذلك أبدًا، ويزعم أن النساء هن من يرغبن في مضاجعته من دون أي مقابل!

وأكمل محسن بسخرية:

- لا تنس أنه وسيم وطلق اللسان، ويتقن الإنجليزية!

قررت ليلتها أن أتحاشاه قدر المستطاع، ولكن روائحه الكريهة التي تلاحقنا في الغرفة، وفي السجن، أجبرتني أكثر من مرة أن ألفت نظره إلى ضرورة أن يجد حلًا لها! كان لا يتحرج أن يبتاع حذاء بائسًا لا يزيد ثمنه على خمسة عشر درهمًا فقط؛ حيث تفوح منه روائح نتنة بعد أول مرة يضع قدميه داخله! كما لا يتورع عن شراء أردأ الملبوسات وأرخصها بحجة التوفير، وعلى الرغم من أن أشرف نادر نصحه كثيرًا أمامي أن «الغالي ثمنه فيه»، كما يقول مثلنا الشائع، فقد كان لا يرضخ لأي رأي ليس نابعًا من ذهنه!... حتى السيارة الفورد التي ابتاعها كانت مستعملة ومنهكة، فلم ينصت إلى أي نصيحة بعدم شرائها! الأمر الذي جعله ينفق باقي النقود التي اقترضها من البنك لتصليحها! ومع ذلك كان يحتشد بجرأة مدهشة تجعله يفخر بأنه الوحيد بيننا الذي يمتلك سيارة، زاعمًا أنها في أفضل حال، على الرغم من أنها كانت تتعطل كل أسبوع تقريبًا، ويضطر إلى الذهاب بها إلى الميكانيكي!

والآن يطلب مني أن أمنحه مئتي درهم حتى أول الشهر، وها هو يكرر طلبه بينما ينفث دخان سيجارته في وجهي!

ماذا أفعل؟ إذا رفضت فسوف أخسره، ولن أجرؤ على أن أطلب منه اصطحابي معه إلى وكر الروسيات. صحيح أنني مازلت مترددًا بشأن هذه الخطوة، إلا أنني قد أحتاج إليه يومًا!

وإذا قبلت ومنحته المال الذي يريد، فلن يبقى معي إلا دراهم معدودات، بعد أن أرسلت إلى أبي أول أمس المئة دولار المعتادة كل شهر!

قبل أن أجيب أسقط أمجد بحركة يده العفوية وقلة تركيزه مطفأة السجائر على الأرض، فتناثر الرماد وأعقاب السجائر في الغرفة، فكرر طلبه بتوسل للمرة الثالثة وهو يهم بإزالة آثار ما أسقطته يداه.

أخرجت متني درهم من جيبي ومنحتها له، وأنا أغمغم بصوت خفيض:

- أرجوك... أنا أحتاج إليها ضروري أول الشهر... فلا تخلف وعدك.

خطفها مني في لمح البصر، ونهض قبل أن يكمل تنظيف أرضية الغرفة من أعقاب سجائره ورمادها، وهو يقول:

- طبعًا... طبعًا.

ندمت لأنني أعطيته ما طلب، فأداؤه الذي أكد به أنه سيرد المال يثبت عدم جديته، وأن المتني درهم قد لا أحصل عليها مرة أخرى، على الأقل في الموعد المحدد للسداد!

قررت أن أنتهز الفرصة وأطلب منه الذهاب معه إلى عالم الروسيات العاهرات، وقبل أن أنطق بحرف تلقى أمجد «مسج» على موبايله، فقرأه وهو يضحك ثم قام وارتدى ملابسه القذرة نفسها، وجوربه النتن نفسه، ثم نثر على جسده بعض العطر، وهمّ بالخروج، وهو يتحدث مع إحداهن في الموبايل قائلًا لها بسعادة:

- سأكون عندك خلال ثلث ساعة!

سألته:

- الساعة تجاوزت الثانية عشرة بعد منتصف الليل، فأين أنت ذاهب؟

لم ينظر إليّ، وهو يهتف صائحًا:

- الحياة مع النساء لا تبدأ إلا بعد منتصف الليل يا جاهل!

لم أجرؤ على أن أطلب منه أن يأخذني معه إلى عاهراته، فبقيت في غرفتي وحيدًا، أندب حظي التعس، وأحسد أمجد الذي يتعامل مع النساء بكامل رجولته، على رغم أنه من أصحاب الروائح المقززة!

رن الموبايل للحظة ثم سكت، فأدركت أنها شقيقتي ثريا... هكذا تعودنا أن تطمئن عن حالي كل ليلة بهذه الرنة من القاهرة، فأرد عليها برنة مماثلة من دبي!

ثم فجأة وجدتني أبكي بحرقة، متذكرًا أمي وأشقائي، كاتمًا صوتي وأنا أصرخ:

- أين أنت يا أماه؟

●●●

12

العاشق

- لا تنسَ موعدنا الليلة عند الأستاذ صلاح.

كانت هذه المرة الثالثة التي يؤكد فيها منصور ابن خالتي هذا الموعد، ثم أضاف قبل أن ينهي اتصاله بي عن طريق الموبايل:

- سأكون عندك في تمام الثامنة... فلا تتأخر، فأنت تعرف صعوبة وجود موقف للسيارة أمام منزلك!

لم تكن بي رغبة للذهاب، صحيح أن اللقاء مع الأستاذ صلاح يثير انتباهي؛ لأنه يدهشني بحديثه وثقافته الموسوعية، إلا أنني لست في حالة نفسية طبيعية بعد يوم الخيبة مع هند، وأخشى أن يشعروا بذلك، فيستجوبونني كما فعل منصور أول أمس ونحن جالسان في مقهى «ذكريات»!

كان سعيدًا بزيارته الأولى إلى صنعاء، التي أمضى فيها أسبوعًا كاملًا لحضور فعاليات مؤتمر الشعر الحديث، وكان كريمًا معي فأحضر لي خنجرًا يمنيًّا هدية. تحدث منصور بشغف عن أهل صنعاء وطيبتهم

وحفاوتهم بـه، ثم توقف كثيرًا عند عاداتهم في تناول القـات والطقوس المصاحبة لذلك، وكيف حاول أن «يخزّن» معهم بعضًا من هذا القات فلم يفلح! كما لم يَفُتْهُ أن يشرح لي الطبيعة المغايرة للعمارة اليمنية، التي ليس لها مثيل - كما يقول - في العالم.

كنـت أنصت مـن دون اكتراث، أو كنـت أحاول أن أبـدو مهتمًا بمتابعة أحاديثه عن اليمن، لكنه لاحظ شرودي المنقطع وافتعالي في الرد، وحزني البادي، فتوقف فجأة وسألني، وهو يغرز عينيه في عيني:

- ما بك؟

ارتبكـت، فأبعـدت وجهـي متعللًا بالنـداء على الجرسـون ليبدل جمر الشيشة.

- هل أصاب خالتي أو زوجها أي مكروه؟

خرجت هذه العبارة من فم منصور بحدة، فتذكرت أبي: ترى ماذا يفعل لـو علم بما حدث لي مع هند؟ هل سـيلعنني لأنـي كدت أعصي أوامر الله وأضاجـع امرأة في الحرام؟ أم سيشـتمني وينعتني بالفاشـل، لأني أخفقت فـي القيام بمـا يجب أن يفعله الرجل تجاه امرأة فاتنـة، تناديه وتتمدد عارية أمامه؟

لا أدري رد فعله، لكنني متيقن تمامًا من أني لن أسـلم من قذارة لسـانه، سواء امتطيت هند وقطفت لذتي، أو اعترتني الخيبـة وانتكسـت!

جاوبت منصور بصوت محايد:

- لا... هم بخير والحمد لله.

كشفني منصور بنظرة عينيه السوداوين المشرقتين على الدوام، فهو ابن الخالة والصديق الذي يلازمني منذ كنا طفلين لا نعرف خبايا النساء، فكيف أهرب من هذه النظرة!

- أقسم أن هناك شيئًا غير طبيعي؟

- أبدًا... أبدًا...

قبل أن يعلّق رنّ الموبايل الخاص به، لم أعرف من المتصل، لكنها امرأة تهمه، لأنه كان يضحك بانتشاء وهو يخاطبها بود شديد، مؤكدًا لها ضرورة أن يلتقيا في الغد!

ظننت أن هذه المكالمة التي طالت قليلًا ستنسيه مسألة استجوابي، ليعود إلى مواصلة الحديث عن اليمن وأهله، ولكنه ما إن أغلق الموبايل حتى باغتني، وأنا أضبط جمر الشيشة سائلًا:

- هل تعرض لك حسن بسوء؟

لم ينسَ، ومازال يحاول أن يقتنص مني إجابة. هذا هو منصور الدؤوب والملحاح، إذا أراد شيئًا فلن يسكت حتى يحصل عليه!

قررت ألا أخبره بشيء عن نكستي مع هند، وأنا أتأمل قميصه الأزرق وأناقته، ثم خطر لي أن أبادر أنا بسؤاله واستفزازه، فقلت له:

- أخي حسن بخير... ولا يوجد شيء.

ثم أضفت مسرعًا حتى لا أعطيه فرصة ليوافيني بسؤال آخر:

- أريد أن أتوجه إليك بسؤال.

وضع كوب الشاي على المنضدة قبل أن يصل إلى فمه، ومد عنقه في اتجاهي وهو يرفع حاجبي الدهشة مرددًا بثقة تلازمه دومًا:

- تفضل... هات ما عندك.

- كيف تحل مشكلاتك الجنسية؟

كل من كان في مقهى «ذكريات» في هذه الليلة استمع إلى قهقهة منصور، فحول بصره نحو المنضدة التي نجلس عليها.. نظرت إليه مستغربًا من نوبة الضحك، التي انتابته عندما استمع إلى سؤالي، وبعد أن أخذ نفسًا عميقًا فور انتهائه من القهقهة، قال لي وهو يرمقني بنظرة ودودة:

- الآن فقط تسأل عن الجنس ومشكلاته!

- أريد أن أعرف.

في هذه اللحظة كسا وجه منصور حزن عميق فجأة، ثم اعتدل على كرسيه وهو يهمهم بصوت غير مسموع، كان يرنو إلى لا شيء، أو كأنه يتأمل إنسانًا غير مرئي ويخاطبه بأسى، وهو يتحدث بهمس:

- أدرك تمامًا عذابك، لكن تأكد أن عذابي بسبب الحرمان من الجنس يفوق عذابك، فقد مارسته عن حب وبانتظام مع المرحومة صفاء لمدة سنوات قبل اليوم المشؤوم. ثم خطفها مني النيل في لحظة غدر وحرمني إلى الأبد من أجمل المشاعر وألذ الأحاسيس. لو كنت تحب القراءة لأطلعتك على ما كتبته بعد رحيلها وحتى هذه اللحظة.. لا يكاد يمر يوم من دون أن أكتب سطرًا أو سطرين عن صفاء وأحزاني بعد غيابها. أنت لم

تـذق الجنـس حتى الآن - أو هكذا أظن - أي أنـك لا تعرف طعمه، أما أنا فقد ذقته ورأيته ومارسته وشربته؛ لذا يصبح الحرمان منه أشـد وأنكى من حرمانـك منـه. أنـت لا تدرك معنى أن يصير العالم كله مـلء كفيك عندما تحب، وتلمس من تحب وتقبّلهـا وتحتضنها. أنت لا تعرف معنى أن تنزع عنها ملابسـها قطعة قطعة، فتبدى أمامك عارية بكامل رونقها، فيـسري في وجدانك شعور بأن الكون كله ملك يديك، مادامت حبيبتك بين أحضانك هكذا عارية ودافئة ومقبلة وسخية!

كنت ألمس السـماء وأداعب النجوم وأربت على ظهر القمر، كلّما ضمّنا سـرير واحد أنا وصفاء! كنت أفرح كثيرًا وأنا أشم رائحتها في جسـمي، بعد أن نفترق وأتمنى ألا تزول هذه الرائحة عني أبدًا.

يواصل منصور كلامه، وكأنه يحدّث نفسـه:

كنت أراقب حبورها بعد اكتمال النشـوة وكيف تقفز فوق السـرير بهجة وسـرورًا، وهي تحاول أن تسـوي شعرها بيدها، ثم تلتصق بي كهرّة صغيرة بحثًا عن الدفء والأمان.. حينئذٍ كنت أفرح كثيرًا؛ لأني اسـتطعت أن أمنح معشـوقتي ما يليق بها من مسـرات الجسـد، كما وهبتني هي سعادة لا مثيل لها، عندما صرنا روحًا واحدة وجسـمًا واحدًا!

يتحدث عن الرائحة بفخر... هو سـعيد برائحتها ويتمنى ألا تزول، وأنا منكوب برائحة هند وعاجز عن إزالتها!

- والآن يا منصـور... ماذا تفعل؟

أوقفتـه عـن مواصلـة الحديث بهـذا السـؤال، لأن كلامه أثـار غريزتي وأوضـح لي كم أنا محروم سـواء كنـت هنا أو هناك، فـلا القاهرة أنصفتني

ووفرت لي المرأة والغرام، ولا دبي أسعفتني لاكتشاف سر الأنثى والتمتع برجولتي!

- لي صديقة فليبنية ألتقيها بانتظام...

وقع عليّ الخبر كالصاعقة... منصور مرتبط بامرأة من الفلبين، متى وكيف وأين؟ ثم اكتشفت سذاجتي وتساءلت: إذا لم يرتبط منصور، فمن يرتبط؟ طوال الوقت والفتيات يطاردنه تقريبًا، وطوال السنين وهو مستمتع بصحبة فتاة ما حتى تزوج سرًّا من صفاء الشرنوبي!

لم ينس منصور أبدًا نصيبه من الجنس اللطيف، فما الغرابة إذن في أن يصادق فتاة فليبنية؟ كم أنا ساذج حقًّا، فهو يجيد الإنجليزية ومن السهل أن يتواصل معها، ثم إنه يمتلك شقة خاصة به، يستطيع أن يستقبل فيها أي إنسان وفي أي وقت، بينما أنا محشور مع خمسة عشر شابًا في شقة، لا خصوصية ولا يحزنون! حتى عندما وفرت هند مكانًا خاصًا، لم أستطع أن أفعل شيئًا... ما أتعس أيامي!

- هل تحبها يا منصور؟

فوجئ بسؤالي، فتخفف من أسر الذكرى واستعاد مزاجه الطبيعي، واستأذن في الانصراف إلى الحمام، وعندما عاد كرر سؤالي على نفسه بصوت عال وابتسم، ثم طلب شايًا آخر لكلينا، ومتقمصًا دور الأستاذ راح يشرح لي:

- الرجل حيوان و...

قاطعته مندهشًا:

- نعم؟

- دعني أكمل من فضلك: الرجل حيوان، هذه حقيقة لا مراء فيها، كما قال الأستاذ صلاح الفندور، وأنا أتفق معه تمامًا في كل آرائه المتعلقة بهذا الأمر.

- وما هي هذه الآراء؟

- انتظر قليلًا من فضلك..

يقول الأستاذ صلاح إن 5٪ فقط من ذكور الحيوانات هي التي تكتفي بأنثى واحدة، أما الباقي وهو 95٪ تقريبًا، فإن الذكر لا يقنع أبدًا بأنثى واحدة، فالأسد على سبيل المثال لا يمكن أن يعيش من دون أن تكون تحت سلطانه ست لبؤات على الأقل، حيث إنه يضاجع أثناء كل ثلث ساعة تقريبًا في موسم التزاوج. كما أن التيس الواحد يجامع من ثلاثين إلى خمسين أنثى في هذا الموسم، كذلك لا يكتفي الوعل والثور والغزال والأيل بأنثى واحدة. ثم لماذا نذهب بعيدًا، حتى بعض الطيور لها الخصال الجنسية ذاتها، فالديك يوضع في حظيرة تضج بعشرين دجاجة، إذ يقوم بتلقيحها كلها من دون كلل، وهكذا. باختصار، فالرجل مثل الحيوان، مجرد مصنع إنتاج حيوانات منوية، وفي حاجة ماسة يوميًّا - خاصة في شبابه - إلى التخلص من هذه الحيوانات التي تلهب جسده وتقضّ مضجعه، ولا توجد وسيلة للتخفف من إلحاح الجسد وضغط الرغبة سوى ممارسة الجنس.

- والحب؟

تناول منصور رشفة من الشاي وواصل كلامه، أو آراء الأستاذ صلاح:

- إذا لم يقترن الحب بممارسة جنسية منتظمة مع الحبيبة، فلن يصمد كثيرًا، وسيلجأ العاشق - الرجل - إلى امرأة أخرى تلبي أشواقه الجنسية حتى لو لم يحبها - بل من الوارد جدًا أن يقدم الرجل على خيانة - وأضع تحتها خطًا - حينه ويتذوق فواكه امرأة أخرى، لا لشيء إلا لأن السلوك الحيواني مازال يمسك بجهازه النفسي والجنسي، ولم يحاول أن يهذب ويزنن هذا السلوك!

- والحرام؟

هنا ضحك منصور بهدوء وهو ينظر إليّ، ربما بقدر من الشفقة، ثم استطرد مجيبًا:

- شهوة الجنس أقوى بما لا يقاس من الرادع الديني؛ فالرجل منذ التاريخ يلهث خلف جسد المرأة ضاربًا عرض الحائط بالعواقب المنتظرة، سواء في الأرض أو في السماء، إذا ضاجعها بصورة غير شرعية! لم تستطع كل التحريمات الدينية أو حتى الوضعية أن تمنع ممارسة الجنس خارج مؤسسة الزواج، فسطوة الرغبة هي الأصل، ثم أضاف ضاحكًا: «يا أخي لقد وجدنا في هذه الدنيا بسبب هذه السطوة»!

- هل تحب صديقتك الفلبينية؟

اعتدل منصور في مقعده وهو يهمس:

- ممارسة الجنس بانتظام خلقت بيننا مودة ما بامتداد ستة أشهر، لكن الحب شيء آخر، شيء لا يمكن وصفه بعبارات وكلمات، تجد نفسك

مشدودًا إلى فتاتك، إلى كل ما يتعلق بها: ملامحها، طريقة كلامها، ملابسها، همساتها، شرودها، أداؤها في السرير، حتى سخافتها أحيانًا وتقلباتها - باعتبارها امرأة - لا تمثل لك إزعاجًا، بل تمنحك نعمة الصبر عليها واستيعابها، لأنك متيم بها! أما المودة الناتجة عن ممارسة الجنس فلن تدوم سوى عام أو عامين فقط؛ لأن الملل سينخر في عظام هذه العلاقة التي تفتقد للحب.

فجأة خطر لي أن أسأله:

- هل يحب الأستاذ صلاح زوجته؟

حدجني منصور باستغراب، لكنه هز رأسه بالإيجاب، ثم بدأ يسرد لي باختصار علاقة الأستاذ صلاح بزوجته، كما سمعها منه:

- يحب زوجته بلا ريب، وقد قال لي ذلك ولاحظته أنا بقوة، فالدكتورة مني رشاد مفتونة به، كما أن الأستاذ صلاح يعشقها، فالنظرات التي بينهما تؤكد ذلك. لقد اقترن بها منذ أربعة عشر عامًا تقريبًا، وهي تصغره بنحو سبع سنوات، وكل عام يصطحبها في رحلة إلى بلد أوروبي ليجددا غرامهما، كما قال لي، فضلًا عن أنه أسهم بنصيب كبير في الوقوف بجانبها وهي تعد رسالة الدكتوراه، فكان يترجم لها النصوص التي هي بحاجة إليها، ويساعدها في البحث عن الكتب والمراجع المطلوبة. ثم إنه لا يكف عن الحديث عن فوائد الزواج وضرورته، وكم من مرة حرضني على أن أبحث عن فتاة مناسبة لأقترن بها، موضحًا لي أن «رحيل صفاء يجب ألا يجعلك تخاصم الحياة وتركن للوحدة»!

- هل حدثته عن صفاء وعلاقتك بها؟

- بكل تأكيد، حكيت له كل شيء وبالتفصيل، وقد ساعدني بآرائه وحكمته على التعامل مع موت صفاء المفاجئ بصورة طبيعية، حتى أتمكن من تجاوز هذه الصدمة.. أنا فعلًا مدين لهذا الرجل بالكثير.

ثم ضرب كفًا بكف متعجبًا، وهو يقول لي:

- هل تدري أنه يعرف بدر المنياوي؟

- حقًّا؟

- بل هما صديقان منذ زمن حتى هذه اللحظة، ولا تنسَ أن الأستاذ صلاح من سكان شبرا المظلات؛ أي إنهما جيران أيضًا!

لماذا تأخرت يا منصور، هأنذا أقف في شارع الرقة منذ ثلث ساعة تحت سياط الرطوبة، وأنت لم تصل في الثامنة كما اتفقنا؟ لقد ابتل قميصي تمامًا من جراء العرق الذي يسيل من كل مسام جلدي، فكيف سأذهب إلى الأستاذ صلاح وأنا بهذه الحالة المزرية!

ليتني تمكنت من الإصرار على عدم الذهاب، ولكن منصور نهرني وأخبرني أن غيابي عن سهرة الليلة سيحزن الأستاذ صلاح، الذي دعاني بنفسه مساء أمس، فلماذا تأخرت يا منصور؟ ومتى ستنتهي من مكالماتك الطويلة؟ فموبايلك مشغول منذ ثلث ساعة! يبدو أنك هائم الآن مع صديقتك الفلبينية ونسيتني هنا، لتجلدني الرطوبة وتكويني ذكرى هند وروائحها.

ماذا أفعل؟ هل أصعد إلى الشقة لأذود عن نفسي سخافات هذه الرطوبة اللعينة؟

أشفق عليك يا ابن خالتي، فالزحام الليلة فوق التصور، ولن تجد موقفًا لسيارتك على الأغلب، فلأنتظرك وأمري إلى الله! ترى هل يمكن أن أمتلك سيارة في هذا البلد؟ ياه... حلم جميل، ولكن... ها هو منصور يتصل بي... «أعتذر بشدة فالزحام شديد... ثلاث دقائق فقط وأكون عندك».

حين صعدت في السيارة أنعشني هواء المكيف، فكأني استعدت روحي المختنقة، وسألت منصور:

- كيف كان يعيش الناس هنا من دون مكيف؟

- لا أدري... ولكن هيا إلى الأستاذ صلاح، فهو يعد لك مفاجأة!

***

13

المثقف

لم أكن أتخيل أن شؤون السياسة يمكن أن تستهلك أعصاب الناس وأوقاتهم هكذا، إلا حين أتاحت لي الظروف المكوث خمس ساعات متواصلة في منزل الأستاذ صلاح. كنا آخر الواصلين إلى المنزل - منصور وأنا - وقد عاتبه الأستاذ صلاح على التأخير بالكلام ونظرة العين، ولكنه حافظ على ابتسامته الودودة وهو يرحب بي ويقدمني إلى الحضور، وهم: عبدالزهرة أبو العباس صحافي عراقي وزوجته اعتقال عبد الجبار، وسعد شينو شاعر عراقي وزوجته سارة حكو، وجمال عبدالناصر قاص سوري وزوجته سوسن بيرقدار، وعماد بيضون صحافي لبناني!

من أول لحظة بدا لي أنهم جميعًا أصدقاء، وأنها ليست المرة الأولى التي يلتقون فيها معًا، كما أنهم، رجالًا ونساء، يعرفون منصور جيدًا، ويتحدثون معه بتلقائية ومودة باعتباره صديقًا مقربًا.. لكنني لم أرهم بعد ذلك أبدًا إلا في فيلا سمية الأبراشي.

صدام حسين كان بطل الحديث بامتياز، على الأقل، بامتداد الساعات الأولى من السهرة، فالرجل يحاكم الآن من قبل حكومة أمريكية «عميلة»،

كما وصفها بغضب القاص السوري جمال عبد الناصر، بينما راح الصحافي اللبناني عماد بيضون، الذي سخر مني فيما بعد في الفيللا إياها فكرهته، يؤكد أن صدام يلقى مصير كل ظالم نكّل بشعبه وأذلّه، ولكني لم أعرف أنه شيعي إلا عندما احتدّ في الهجوم على رئيس العراق السابق، فأوقفه الأستاذ صلاح الغندور بابتسامة قائلًا: «أكل هذا الهجوم لأنه اضطهد أقاربك من الشيعة؟»! ضحك عماد بيضون من هذه الملاحظة، على الرغم من أن سعد شينو أوضح أن «صدام اضطهد الجميع بمن فيهم اليزيديون الذين أنتمي إليهم». لم أفهم ماذا يقصد بكلمة «اليزيديون»، وقررت أن أستفسر عنها من منصور فيما بعد! كان صوت أم كلثوم ينهمر علينا من جهاز الكاسيت بأغنيات لم أسمع بها من قبل مثل «جدّدت حبك ليه»، و«الأهات» التي أصر جمال عبدالناصر على أن يسمعها.

لم أنتبه إليها، فليس لدي طاقة لسماع أم كلثوم، وتساءلت: هل يمكن أن يكون لعمرو دياب نصيب في هذه الجلسة؟!

كانت سخونة الحوار بين الجميع تزداد مع الوقت، إلا أن الدكتورة منى رشاد - بذكائها اللمّاح - كانت تقطع المناقشة في كل لحظة حادة لتقدم المشروبات، أو تشير إلى «المزّات»، أو تسأل: «هل يريد أحد مزيدًا من الثلج؟»، أو تنادي على الخادمة الفلبينية التي أراقب مؤخرتها بعينيّ في الذهاب وفي الإياب، وهي تضع الأكواب وصحون السلطات، أو ترفع مطفأة السجائر وتنظفها! كانت علب البيرة «الهينيكن» تفرغ بسرعة مذهلة في بطون الجميع، باستثناء الأستاذ صلاح الذي تجرّع واحدة فقط، ثم بدأ

يتناول الويسكي بتؤدة، حتى النساء اللاتي انتحين جانبًا، ودخلن في ثرثرة خاصة، لم أستطع أن أتبين محتواها، تناولن البيرة وإن بصورة قليلة!

استفزتني رائحة الطعام الشهي، حيث بدأت صاحبة المنزل وخادمتها في وضع الصحون على المائدة الرئيسية، بينما صوت الحاضرين يعلو ويخفت تأييدًا لصدام حسين، أو تنديدًا بالاحتلال الأمريكي، غير منتبهين إلى أم كلثوم وهي تنوح: «يا اللي عمرّت وأخليت». في الحقيقة لم يكن هناك من يؤيد صدام إلا الصحافي السوري، وكما قال هو بصوت مرتفع: «ليس حبًّا في سواد عينيه، بل كرهًا في بوش وعصابته»، ثم أضاف بحدة: «إنه الاستعمار القديم يعود من جديد يا أصدقائي»! هنا وقف الشاعر العراقي سعد شينو، موجهًا سبابته في عين جمال عبدالناصر صارخًا: «لقد قتل صدام أخي، وابن أختي، واعتقلني ستين من دون سبب منطقي، فلم يكن أخي معارضًا سياسيًّا، بل انتقامًا مني لأني رفضت نظم قصيدة، تمتدح القائد الأعظم، وانتصاره في أم المعارك، كما كان يدّعي»!

وقبل أن يعلق جمال عبدالناصر، تركت سارة حكو زوجة الشاعر مجلس النساء، وتقدمت نحو جمال صارخة في وجهه: «لقد خطفوا شقيقي وعمره خمسة عشر عامًا فقط، يعني مجرد صبي، ولم نعرف عنه شيئًا حتى الآن، لدرجة أن أمي ماتت قبل ستة أعوام كمدًا وقهرًا على فلذة كبدها»!

- من الذين خطفوه؟

هكذا سألت الدكتورة منى رشاد بنبرة متألمة، فأردفت سارة، وهي تشعل سيجارتها يأسًا:

- رجال الأمن الذين زرعهم صدام في كل مكان في العراق!

انتهز الأستاذ صلاح لحظة السكون التي أعقبت الردود الغاضبة للشاعر وزوجته؛ حيث لم يكن هناك سوى صوت المرأة، التي مازالت تتوجّع في جهاز الكاسيت وهي تقول: «الأنس كان أنت». وبدّل مجرى الحديث تمامًا - الأمر الذي أعجبني جدًا - حين دعا الجميع إلى تناول أنواع المحاشي المصرية، التي تتفنّن زوجته في طهيها، فوقف الجميع في وقت واحد تقريبًا، ودار بعضهم حول نفسه حائرًا، وذهب آخرون نحو المائدة الرئيسية ليلقوا نظرة على الطعام، ثم عادوا إلى أماكنهم من دون أن يعدوا الصحون لأنفسهم، فقد تولت كل زوجة تجهيز صحن كبير لزوجها مزدان بأشهى المأكولات، وقدمته له في مجلسه. أما عماد بيضون ومنصور وأنا، فقد شكرنا سيدة المنزل التي عرضت خدماتها علينا لإعداد الصحون الخاصة بنا، وقال منصور وعماد - تقريبًا في نفس واحد ضاحكين - دعينا نختار ما نشاء، فالطعام كله لذيذ!

أكلت بشهية منفتحة، ربما لأول مرة منذ يوم الحسرة مع هند، ويبدو أن البيرة قد أسهمت في إشعال شهيتي؛ حيث إنني تجرعت ثلاث علب من «الهينيكن» في وقت قصير، مع قليل من الخس والجزر واللوز والجوز. لم أنتبه إلى الحوارات الجانبية التي دارت بين الجميع، ولم أهتمّ بها، كما لم يهتمّ أحد بي؛ فقد كنت مشغولًا بمراقبة الخادمة الفلبينية، وهي تواصل عملها بهمة في تنظيف المنضدة من بقايا الطعام المتساقط، أو رفع الصحون الفارغة.

كانت قامتها القصيرة وحجمها القليل بشكل عام، لا يتناسب مع نهديها الكبيرين المتضخين كثمار المانجو الضخمة التي لم أرها قط في حياتي إلاّ في كارفور. رشقت عيني في مؤخرتها حين انحنت لتلتقط ملعقة سقطت منها، فاضطرب كياني كله، وانتفض سلاحي وتمدّد، ورغبت في مضاجعتها في التو واللحظة، لكن، اقتحمتني صورة هند العارية، ووقوفي بائسًا أمام سريرها، ثم وجدت رائحتها النفّاذة تتسلّل إلى أنفي لتطرد رائحة المحشي والدجاج التي غمرت أصابعي وفمي، فارتبكت وسقطت مني الملعقة على الأرض، محدثة جلبة أثارت انتباه صاحبة المنزل، التي أسرعت وأحضرت لي غيرها. خجلت من نفسي، عندما رنا إليّ منصور متسائلًا بعينيه عما بي، وقام ليحضر علبتين من البيرة أعطاني إحداهما! فتناولتها على الفور، وأنا أتابع خروج الطفلين من غرفتهما؛ ليهمسا في أذن أمهما وهي تأخذ منهما الصحون الفارغة.

تذكرت أنني لم أنتبه أبدًا إلى وجودهما من قبل، كما لم أعرف هل خرجا وأخذ كل منهما صحنه الخاص، أم أن والدتهما قد أرسلت إليهما هذه الصحون مع الخادمة؟

كانا جميلين بصورة لافتة، بل كانا أجمل من الصورة التي تزين جدار الصالة.

«إنه جبان... اختبأ في حفرة كالفأر المذعور»!

أفقت من شرودي على هذه الصرخة، التي انطلقت من فم الشاعر العراقي كالسهم، فرأيت عماد بيضون يحاول أن يمسح يده بمنديل ورقي

وهـو يقـول: «لو كان بطلًا - كمـا يزعمون - لما هتف في ذعر: لا تطلقوا النار... أنا رئيس العراق... كان من المفروض أن يقاوم جنود الاحتلال».

- على الأقل ابناه أشرف منه... فقد قاوما حتى لقيا حتفهما!

مازالـوا يتحدثـون عن صـدام حسـين... ما لـي أنا وما لـه، ومازالت أم كلثوم تنادي: «الانسـجام أنت». لِمَ لا يجدون حلًا لمآسـاتي مع هند؟ ولِمَ لا تتوقف هذه المرأة عن النواح قليلًا؟

هل أقف الآن وسـط هذه الصالة الفخمة وأشـير إليهم أن يسـكتوا، حتى أخبرهـم بأنني لـم أتمكن من مضاجعـة أول امرأة تنزع ملابسـها أمامي... ولا أعرف السـبب؟ لقد راح صـدام وراحت أيامه، أما هنـد فمازالت تتقد رائحتهـا في أنفي، وإذا كان ابناه بَطَلَيْن، كمـا ادّعى أحدهم، ترى من الذي قـال ذلـك؟ لقـد لعبت الخمر برأسـي، فلـم أعد أعـرف مَنْ قال مـاذا؟... ومَـنْ رد بكيـف؟... ولكـن إن كانـا بطلين حقًـا؛ لأنّهما وجّها سـلاحهما نحـو الأمريكان، فهل أعد أنا من الأنذال، لأن سـلاحي خاب وانطفأ فوق سـريرها؟!.. قمـت وذهبـت نحو علبـة «هينيكـن» توجد فـوق المائدة... أخذتهـا بهدوء وعدت إلى مكاني، ولـم أكن أعرف أن منصور يراقبني، إلا حينما حاول أن يأخذها مني هامسًـا:

- كفاك شرابًا... فقد تناولت أكثر مما يجب.

أبعدت يده بقوة هاتفًا:

- دعها.

ملاءة الصمت التي غطّت الجميع، نبهتني إلى أنني تّصرفت بصورة غير لائقة، وأن صوتي كان عاليًا جدًّا لدرجة جذبت اهتمام الرجال والنساء الذين اجتمعوا هنا. لم أعرف ماذا أفعل، وشعرت بعروقي تنفر، وأصابعي تقبض على العلبة بقوة، وكأن أحدًا يريد أن يخطفها مني، فطأطأت رأسي في الأرض، وأنا مرتعب مما قد يحدث في الخطوة التالية، فهربت إلى الألوان الحُمْر والخطوط الزُّرق والدوائر البرتقالية التي تزيّن السجادة تحت أقدامنا، وتساءلت: ألا يمكن أن يصنع الله معجزة الآن، ويحولني إلى سجادة مثل هذه، فأصبح مفيدًا وممتعًا، فلا أتعرّض لتوبيخ أو لعتاب من أحد؟ بل يمكنني - كسجادة - أن أتجاوز مأزقي مع هند، فإذا تعرّت أمامي - أو فوقي - فلست مطالبًا - باعتباري سجادة - أن أنفضّ عليها، لكنها حتمًا ستدوسني بالأقدام، مثلما سيفعل هؤلاء الذين سكتوا عن الكلام فجأة وتوقفوا عن ذكر صدام وسنينه!

- اشرب... في صحتك.

لا أعرف كيف وقف الأستاذ صلاح أمامي هكذا، فقد رأيت حذاء أسود لامعًا يقترب ببطء من مرمى ناظري، ويدوس على السجادة - التي تمنيت أن أكونها - بثقة، ويقف قبالي تمامًا، وقبل أن أرفع رأسي لأرى صاحب الحذاء، واصل كلامه بنبرة حادة مخاطبًا منصور:

- دعه وشأنه... فليشرب ما يشاء.

ثم التفت بأداء مسرحي، شعرت بأنه مفتعل، نحو الجميع، وهو يهتف بصوت عالٍ:

- فلنشرب نخب الصديق الجديد لجماعتنا.

لم أرد على أية كلمة من شلال التوبيخ، الذي انهمر فوق رأسي في طريق عودتنا.

وظللت أنظر من زجاج السيارة إلى الشوارع الهادئة، ويريق أضواء المحالّ المغلقة من دون أن ألتفت إلى سيل الشتائم الذي يخرج من فم منصور، ليدخل أذني اليسرى وينفلت من اليمنى... ولكنني فوجئت بأن ابن خالتي يؤنّبني على نظراتي الخبيثة إلى الخادمة الفلبينية، وعدم الاستماع إلى نصائحه بعدم الإفراط في تجرّع البيرة!... لم أهتم بأي شيء مما قاله، ولكنني تعجبت كيف فطن إلى أنني كنت أختلس النظر إلى مؤخرة الخادمة، وقد ذكر المؤخرة بالتحديد، على الرغم من حرصي الشديد على ألا يلحظ أحد هذه النظرات المسروقة!

شعرت برغبة شديدة في التبول، فقد أمسكت نفسي طويلًا، ولم أطلب الدخول إلى الحمّام في منزل الأستاذ صلاح من باب الحرج، لذا ما إن أوقف منصور السيارة أمام باب العمارة التي أسكن فيها، حتى هرولت نحو المدخل، فلم أستمع جيدًا إلى ما قاله لي بعد أن نزلت من السيارة، لكني تعثّرت في الدرجة الثالثة من السلم، فانكفأت على وجهي، ولم أتبين أن خنصر يدي اليسرى قد جرح، إلا وأنا أغسل وجهي، بعد أن تخلصت من فائض البول الذي أذلّ أعصابي.

ألقيت بجسدي كله فوق السرير وأنا مهدود القوى، فصدمتني رائحة هند الملتصقة بالوسادة فقذفتها بعيدًا في الوقت الذي رنّ فيه الموبايل رنة واحدة، فأدركت أنه «مسج» من شقيقتي. لم أستطع أن أقوم لأرد، وتركت جسدي يغوص تدريجيًا في السبات، محاولًا اصطحاب الخادمة الفلبينية في حضني، لكنني اكتشفت أن دموعي تنهمر بيسر، على الرغم مني، فلما مسحتها زاد معدل تدفّقها، فبتّ حائرًا بين شهوتي ودموعي فترة لا أعرف مدتها، حتى هلّ أمجد صفوان بصخبه وضجيجه ورائحته، وصوته العالي في الموبايل.. تذكرت أنه لم يردّ لي المال الذي اقترضه مني، فهممت بأن أطالبه بإعادته، لكني أحجمت من باب الحياء. كان يضحك بقوة وهو ينزع ملابسه ويلقيها برائحتها النتنة كيفما اتفق... بدا لي أن المرأة التي يتحدث معها في الموبايل لا تتوقف عن الثرثرة، لأنه لا يملك فرصة للرد إلا بالضحك والهمهمات الصوتية.. حسدته للمرّة الألف على هذه الجرأة في التعامل مع النساء، ووجدتني - ولا أعرف كيف - أنتهز انتهاء المكالمة، التي كان غارقًا في بحرها، وأقول له برجاء وتوسّل:

- خذني معك!

***

14

إيرينا الروسية

قال لي أمجد صفوان :

- أعطني 500 درهم... لأجعلك تضاجع أجمل فتاة.

- ماذا... أجمل فتاة حقًّا؟

- نعم... لم يخلق مثلها في العالمين!

- كفاك سخرية يا أمجد من فضلك... ما اسمها؟

- إيرينا... من روسيا.

قلت لنفسي... «لم نفلح مع المغرب، فهل ستنجح مع روسيا»... حسنًا... ثم ناولته 300 درهم وأنا أخبره:

- لي عندك مئتان... إذن المجموع 500 درهم.

- اعذرني... ليس معي أي نقود الآن؛ لذا يجب أن تدفع المبلغ كاملًا!

رضخت لطلبه من دون مقاومة تذكر، على الرغم من أنه لن يتبقى معي حتى آخر الشهر سوى 75 درهمًا فقط، بعد أن خطف حسن شقيقي ثلث راتبي كالعادة، وبعد أن حولت 100 دولار إلى أبي في مصر!

كنت ملهوفًا لاكتشاف مدى صلاحية ذكورتي بعد يوم هند المشؤوم، صحيح أنني أمارس العادة السرية كل ليلة تقريبًا وبنجاح، بعد حادثتي المؤسفة مع ابنة المغرب، إلا أن ذلك لا يشفع لي الاستمرار هكذا في الحياة، من دون أن أضاجع امرأة بشكل حقيقي!

شهر كامل مرّ الآن، ولم أخبر أحدًا بما جرى، وأول أمس طاردني منصور بنظراته وأسئلته: «ماذا بك؟ ذهنك مشغول دائمًا، هل وقعت في بحر الحب؟».

حتى أخي حسن وبّخني أمس بشدة - ونحن نتناول غداءنا في مطعم كتناكي - لأنني أصبحت أنسى كثيرًا، كما أبلغه المدير موسى الوحش. حاولت أن أدافع عن نفسي، فلم ينصت إليّ، بل أمرني بأن أنتبه حتى لا أخسر وظيفتي، ثم مال عليّ وهو يهمس: «أدرك أن هنا كثيرًا من الفلسطينيين، يريدون إنهاء خدمات أي أحد ليضعوا مكانه واحدًا من بني جلدتهم!».

ثم أضاف بصوت عالٍ، مزوّد بإيقاع نصائحي:

- على أية حال، ليس الفلسطينيون فقط كذلك، بل كل الجنسيات هنا تحابي بعضها.. عمومًا لا تخطئ... حتى لا تسمح لأحد باصطياد أخطائك!

لـم أعلّق علـى كلامه، ولكنـه ألقى جملـة كالقنبلة علـى الطاولة، وهو ينصرف مشيرًا إلى وجهي:

- يبدو أنك تحب... هذه السحنة تؤكد أن وراءها امرأة!

فكـرت قليلًا في تهمة النسـيان التي ابتلاني بها المدير، فلم أجد سـوى أنني أخبرت أحـد الزبائن قبل أيـام أن موبايل نوكيا 6600 لـم يعد متوافرًا لدينا! في حين أننا تسـلّمنا كمية كبيرة منه قبل أسبوع!

هذا هو الخطأ أو النسـيان الوحيد الذي ارتكبته في عملي، وقد نلت عنه اللوم الشـديد من المدير موسـى الوحش، حين علم بالأمر من الجاسوس الباكسـتاني منير خان وصديقه نائل أبو شـمالة! فلماذا إذن يشكوني لأخي ويهدّدني؟ ثـم مـا حكايـة أن سـحنتي الآن وراءها امرأة؟ ألهـذه الدرجة طفحـت مأسـاتي مع هنـد على ملامحي! فها هو حسـن، وقبلـه منصور، وقبلهمـا أمجد صفوان، كلهم أشـاروا وصرّحوا وأعلنوا أن حالتي ليسـت طبيعية، وأن مزاجي العام أصبح الآن أسيرًا لامرأة ما!

لعنـة اللـه عليك يـا هند... يـا معذبتي وسر بلواي.. لكنني لن أرضخ لعجزي معك، ومصيـبتي بين فخذيك.

نعم... نعم، اليوم سأذهب مع أمجد في التاسـعة مسـاء لألقاها... اسمها «إيرينا»... نعم «إيرينا» كما قال لي.. وأنا واثق أنني سـأنجح معها!

لقـد أخبرتـه بطريقة حاولت فيها أن أبدو لا مباليًـا، أنني أريد أن أجرب النسـاء اللاتي يعرفهن... وهكذا تمّ الاتفاق بيننا على السـعر. في التاسعة إلا ربعًا، اتصل بي أمجد ليخبرني أنه سـيتأخر نحو نصف سـاعة قبل أن يصل

إليّ. شككت في أمره، ربما لن يأتي، فندمت لأنني أعطيته المال قبل بلوغ الأرب، ومع ذلك ظللت واقفًا أمام باب العمارة أنتظره - كما كنت - منذ الثامنة والنصف.

تأملت العابرين في الشارع من دون اكتراث كبير، لكن الصدور شبه العارية والأرداف الفاتنة، كانت هي التي تجرجر عيني خلفها... تلقيت «رنة» على الموبايل من أختي ثريا، فصنعت مثيلها وأرسلت لها «رنة»، لكنها عادت مرة أخرى وبسرعة لتكرر «رنتها» لثوانٍ ثم تغلق الموبايل. لم أرد، لكنها فعلت ذلك مرتين وبسرعة. اعتراني قلق، فغامرت وطلبتها، على الرغم من أن رصيدي قليل جدًّا، فأخبرتني أنهم نقلوا أبي إلى المستشفى قبل ساعة، بعد أن اشتد سعاله وصار ينزف دمًا من فمه!

ارتجف فؤادي لحظة من الذعر، وتساءلت: ترى هل يموت؟ إنه خبر مهم ومفرح، ولكن ثريا لم تخبرني ماذا عليّ أن أفعل، لقد صبت المعلومة في أذني بحياد على ما أظن! هل يجب أن أخبر حسن أخي؟ أم أنهم قد أبلغوه قبلي؟ ما هذا السخف؟ هل هذا وقته، فليذهب أبي إلى الجحيم، ولأنهيّأ جيدًا لهذه الليلة الحاسمة!

تأخر أمجد حتى بلغت الساعة التاسعة والنصف، الأمر الذي أصابني بخيبة أمل كبيرة، أنستني أن أبي ينزف الآن في المستشفى!

- لقد فعلتها الملعونة... أعتذر بشدة.

أوقف أمجد لساني عن الاحتجاج بهذه العبارة، وهو يشير إلى سيارته المستعملة، ثم راح يشرح كيف تعطلت منه عند مول بورجمان، وكيف

تمكّن - بمهارته - من تحديد سبب العطل، وكيف نجح في إصلاحه حتى جاء إلى ميعادي.

في الطريق إلى بيت «إيرينا»، ظل أمجد ينصحني وهو يضحك: «إياك أن تخذلنا»، «سمعة المصريين الآن بين يديك، أقصد بين فخذيك»، «لا تنقضّ عليها فجأة فهي ليست بهيمة»!

- هل تجيد اللغة العربية؟

سألته وأنا مضطرب، وكل ذرة في كياني ترتجف من هول المغامرة.

- قليلًا جدًا.

ثم أضاف ضاحكًا:

- هذا هو الفعل الوحيد بين اثنين الذي لا يحتاج إلى اللغة... إنها لغة الجسد يا ساذج!

أوقف أمجد سيارته في شارع جانبي خلف مستشفى دبي في حي البراحة، ثم أخرج زجاجة بارفان من تابلوه السيارة، ونثر منها على نفسه، ثم أعطاها لي وهو يقول:

- يجب أن تدوّخها بعطرك فور دخولك!

تعجبت... كيف يتحدّث عن العطر هكذا، ولا ينتبه إلى رائحته القذرة طوال الوقت. رشْشت العطر على جسدي كيفما اتفق وبسرعة، وحينما نزلنا من السيارة، أوقفني بإشارة من يده، وهو يدور حولي ويتأملني من أعلى إلى أسفل، ثم غمغم بصوت مسموع نسبيًا:

- لا بأس... أناقتك مقبولة اليوم!

ابتسمت دون أن أعلّق، فقد اعتبر أمجد القميص الجديد الذي اشتريته أمس من سوق «نايف» بعشرة دراهم دليل أناقة.. ترى هل يعلم أن هناك قمصان تعرض في «سيتي ستر»، تبلغ قيمة الواحد منها أكثر من 700 درهم؟!

صافح أمجد حارس العمارة الهندي، الذي أبلغ الشرطة عندما وقعت الواقعة، بطريقة تؤكد معرفته به، بل ونفحه سيجارة وعبارة ضاحكة باللغة الهندية. كنت أعرف أن أمجد تعلم بعض المفردات والجمل الشائعة بلغة الأوردو، وقد حاول أن يلقنها لي، فلم أفلح ولم أهتم، وكان يقول: إن الهنود متشرون مثل النمل في بلاد الخليج، فعلينا أن نعرف على الأقل بعض العبارات، التي تيسر لنا التعامل معهم.

الغريب أن منصور ابن خالتي كان يردد الكلام نفسه، وكان يجد لذة، وهو يحاول أن ينطق بعض الكلمات الهندية شارحًا لي معناها، ومؤكدًا في الوقت نفسه أننا نحن العرب، ظللنا نلهث خلف الغرب منذ قرنين، ولم ننتبه أبدًا إلى سحر الحضارة التي أنجزتها بلدان الشرق.

على باب المصعد، نظر أمجد في ساعته، ثم اتصل بالموبايل، تحدث بالإنكليزية التي يجيدها، ثم أمسك بيدي صائحًا:

- هيّا.

جرجرني خلفه نحو السلم، وهو يقول:

- لن ننتظر المصعد... إنها في الدور الأول.

كان يصعد السلم بسرعة قافزًا أربع درجات مرة واحدة.

لهثت خلفه والعرق يسيل مني في خط مستقيم على عمودي الفقري، ولكنه ارتطم بآخر درجة من السلم فانكفأ على وجهه، وكاد يوقعني فوقه.

استقبلتنا إيرينا بفستان أحمر وابتسامة واسعة، ثم قالت بلهجة مصرية واضحة وهي تصافحني:

- «إزيّك»!

ارتبكت بشدة، ولم أعرف كيف أرد، فجمالها الباذخ، وطولها الفارع، وشعرها الأسود الناعم والمنسدل على كتفيها، جعلني أتخيل أنني أقف أمام تمثال كامل الأوصاف... لكزني أمجد في كتفي، وهو يقول:

- إنها تسألك «إزيّك»... فجاوبها!

- بخير.

أربعة أحرف هي كل ما استطعت إخراجه من فمي وبصعوبة، ثم فهمت من أمجد أنها كانت تريد أن تقدم لنا الكونياك، ولكنه رفض بحجة أنني لن أحتمل تذوّقه، وطلب منها علب البيرة.. كان يتحدث معها بالإنكليزية، التي يتقنها كل منهما فيما يبدو.

- سأشرب معك البيرة ثم أنصرف.

- إلى أين؟

- سأنتظرك أمام العمارة بعد ساعة.

حين خرج أمجد، سمعتها تتحدث مع أحد في الداخل، فانتابني رعب. ترى... من بالداخل، وماذا يفعل الآن؟ ما هذه الورطة التي أوقعتني بها يا أمجد؟! لكنني ضحكت من حالي، حين وجدتها قادمة نحوي، وهي تحمل صحنًا به طعام تتبعها قطة بيضاء صغيرة، مازالت تتوجه إليها بالحديث، حيث وضعت الصحن في زاوية الصالة التي أجلس فيها، بينما راحت القطة تلتهم الطعام بشهية.

لا ريب أنها كانت تتحدث مع قطتها باللغة الروسية، التي كنت أسمعها أحيانًا من بعض زبائن كارفور، فأتعجب من حكمة الله في خلقه، وكيف حباهم كل هذه اللغات المتباينة ذات الإيقاعات الغريبة.

سألتني بلغة عربية ركيكة «هل تحب القطط؟» فأجبتها بإيماءة من رأسي تدل على الموافقة، فأشارت إليّ كي أنظر إلى اللوحات المعلقة على الحائط، والتي تصور قططًا في أوضاع متعددة.

تأملت اللوحات كما طلبت من دون تركيز، ولما التفت نحوها لأبدي إعجابي من باب المجاملة، وجدتها قد نزعت فستانها الأحمر، فبدت أمامي نصف عارية، فارتجفت، ثم تقدمت نحوي ببطء، ومدت يدها لتمسك بيدي، وقادتني وأنا مقطوع الأنفاس نحو الغرفة الداخلية!... سرت معها مسلوب الإرادة، أفكر في الخطوة التالية، وهل سأتمكن من إنجازها، أم ستكرّر بلواي مع هند؟ تركت يدي وألقت نفسها على السرير. كانت الإضاءة ذات لون أحمر خافت، يناسب مثل هذه اللقاءات الساخنة التي أشاهدها في الأفلام، كما أن الغرفة كانت تعبق بعطر نفّاذ يزداد حضوره

كلما اقتربت منها ولامستها.. قامت بنزع ما بقي من ملابسها قطعة قطعة، ثم قذفت بها في وجهي بغنج، وأشارت برأسها أن أفعل مثلها!

المصيبة التي وجدتني غارقًا فيها لم تخطر لي على بالٍ قط، فهذه الفتاة الروسية أجمل من رأت عيني.. فهي أجمل من هند ومن أمي وخالتي عنايات ومن شقيقتيّ نجاة وثريا، بل وأجمل من الممثلات الشهيرات مثل سعاد حسني ويسرا وليلى علوي... ومن كل نساء الأرض، فكيف سأتمكن أنا بائس الحظ من مضاجعة هذه الحسناء الفريدة؟

لعنة الله عليك يا أمجد، لقد طلبت منك أن توفر لي امرأة لأعاشرها، لا ملكة جمال الكون، التي يعجز أي رجل سويّ - وليس أنا - عن مجرد التفكير بأن يراها عارية، فما بالك لو كان الأمر مرتهنًا بامتطائها واقتحامها؟!

نفذت أوامرها ونزعت ملابسي، لكني شعرت بارتباك في جهازي الهضمي ورغبة شديدة في التغوّط، سألتها بخجل: «أين الحمام؟» وعندما عدت كانت تداعب قطتها، وهي ممددة على سرير الفتنة.

أومأت لي أن أقبل بعد أن وضعت قطتها على الأرض برفق، وهي تطلب منها الانصراف، كما فهمت، لأن القطة خرجت فورًا من الغرفة، ثم فتحت ذراعيها على اتساعهما وهي تبتسم بدلال، اقتربت منها ببطء، فمالت على جنبها لتفتح درج الكوميدينو، وتخرج منه شيئًا ناولتني إياه!

«عازل ذكريّ»... يا للكارثة، كيف سأستخدمه أصلًا، ومازال صاحبنا مرتخيًا ومنكمشًا بين فخذي! لماذا لم يخبرني أمجد الملعون بهذا العازل

لأستعدَّ؛ فأنا لم أستخدمه قط، وهذه أول مرة أراه فيها. «قطعة بلاستيك»... هل تنقصني هذه القطعة، فأنا مازلت حائرًا غير قادر على بث الشهوة في أعضائي وشراييني!

آه يا إيرينا... لماذا تركت بلادك وجئت إلى هنا لتبيعي جسدك لسارقي اللذة؟ وها هي اللذة أمامي لا تحتاج حتى إلى سرقة، وأنا أعاني الإخفاق في تذوقها! لكنني سأحاول... لابد من النجاح.. اقتربت منها، انكفأت فوقها، قبلتها بشغف فمنحتني شفتيها إلى آخر أنفاسها.

رنَّ هاتفها المحمول، فأبعدت فمي عن شفتيها بهدوء، واستدارت لتتناول الموبايل من تحت الوسادة! نظرت إلى رقم المتصل قبل أن ترد، تحدثت قليلًا بالروسية ثم أغلقته، وهي تهمس في أذني بالإنكليزية «آسفة»!... قامت فوقي وقبلتني في عنقي ثم صدري، ثم نظرت إليه وأمسكته بلا مبالاة، داعبته فلم يستجب، قبلته فلم يتصب، تركته يفلت من يديها وهي تحرك كتفيها وتمط شفتيها في إشارة، تؤكد أنها لم تفهم إلى متى سيظل هذا الحيوان ميتًا؟!

أبعدت شعرها المتساقط على عينيها إلى الخلف بحركة سريعة من رأسها، ثم نزلت من فوقي، جلست على حافة السرير، أمسكت الموبايل وطلبت رقمًا تحدثت معه بالإنكليزية.. لم أفهم ماذا قالت؟ لكنها لم تُطل.

وفور انتهائها رن الموبايل الخاص بي لحظات ثم توقف... خرجت من الغرفة وجاءتني به وهي تحمل قطنها بحنان، مازالت تتحرك في المكان

عارية. كانت أختي ثريا هي من اتصلت، ماذا تريدين مني يا ثريا؟ أعرف أن أبي ينزف في المستشفى، ولكني هنا أنزف مأساتي على سرير إيرينا كما فعلت مع هند، فدعيه ينزف يا ثريا واتركيني لعاري وذكورتي المستباحة!

ارتديت ملابسها وجلست في الصالة واضعة قطتها على حجرها ولم تتكلم.. ارتديت ملابسي بهدوء، وأنا مطأطئ الرأس.. لكنني لم أعقد رباط حذائي.

نظرت إلى أكواب البيرة، فاكتشفت أنني لم أشرب حتى نصف كوب، شعرت برغبة شديدة في التبول، ولكنني تحرجت أن أطلب منها دخول الحمام مرة أخرى.

خرجت من دون أن أنطق بحرف، وأنا لا أعلم أن هذه أول وآخر مرة أراها فيها على قيد الحياة، كما أنها لم تودعني بكلمة، بل ظلت تداعب قطتها وتدللها.

لم أنتظر المصعد، ولم أفكر به أصلًا.

هبطت السلم ببطء وأنا منهك الجسم والعصب، تخايلني صورة إيرينا، وهي تناولني العازل الذكري.. نظرت في ساعتي فاكتشفت أن كل هذه الأحداث الجسام لم تستغرق أكثر من نصف ساعة فقط!

جلست على الرصيف أمام العمارة في زاوية مظلمة نسبيًا.. رن هاتفي لحظة ثم توقف. كانت ثريا، فوجدتني أصرخ بصوت عالٍ قائلًا:

«فليذهب أبي إلى الجحيم يا ثريا... دعيني وشأني»!

حـاول أمجـد صفوان أن يخفّف مـن آلامي.. لا أعرف كيـف فهم أنني أخفقت فيما ينجح فيه الرجال عادة عندما يلتحمون بالنسـاء العرايا، فأنا لم أتحـدث معه بأي كلمة منذ جلسـت إلى جواره في السـيارة، ربما قرأ ذلك في وجهي، أو أخبرته إيرينا بما تـم، ولكنه كان لطيفًا علـى أية حال، وهو يقول لي مواسيًا:

- كثير منا يرتعب من المرة الأولى فلا ينجح.

لـم أعلّـق واكتفيت بتأمل الشـارع مـن نافذة السـيارة حتـى وصلنا إلى المنزل.

عندما ألقيت برأسـي على الوسادة في تلك الليلة، لم أتذكر تمامًا وقائع ما حدث مع إيرينا، ولا تفاصيل ملامحها، ولا حتى عطرها النفّاذ، بل كنت أسيرًا لتفاصيل أخرى بطلتها هند ورائحتها وغنجها... وخيبتي.

●●●

15

موسى الوحش

استدعاني المدير موسى الوحش إلى مكتبه وانهال عليّ تعنيفًا وتوبيخًا، لأنه مرّ أمام قسمنا مرتين هذا النهار ووجدني شاردًا لا أقوم بعملي، ودليله على ذلك أنني لم أنتبه لوجوده!... كانت هذه أول مرة ألاحظ أن له عيني ثعلب مُتربّص، وأنه يصبغ شعره بلون أحمر قانٍ.. لم يكن يزعجني تقريعه، بقدر قرفي من الرذاذ المتطاير من فمه نحوي، وهو يواصل تهديداته بإنهاء خدماتي.

دافعت عن نفسي باستحياء، فقد كنت أتعجب من اتهامه لي بأنني لم أكن أراه، وهو يمر كالعادة من باب مراقبة سير العمل، إذ كان يقوم بجولته اليومية هذه كل ساعة تقريبًا من ساعات الدوام.

وكان دائمًا يتفقدنا جميعًا بحركات مسرحية تثير السخرية منه؛ نظرًا لقصر قامته، وشاربه الغريب الذي يعود شكله إلى عصر باشوات زمان!

قلت لنفسي: يتهمني بأنني لم ألاحظ وجوده في أثناء مروره أمام قسم الموبايلات، وهل استطعت أنا أن ألاحظ مفاتن إيرينا وأقدّرها، وهي عارية أمامي لألاحظك أنت أيها «البُرص»؟

- لماذا لا ترد؟

صرخ وهو يمد سبّابته في وجهي!

- آسف...

قلتها بصوت خفيض وقلب منقبض.. كرر وعيده بإنهاء خدماتي فورًا، إذا صدر مني أي خطأ مهما كان صغيرًا، ثم أمرني بالانصراف، وقبل أن أفتح الباب لأخرج، ارتطم في أذني رنين سؤاله الغريب:

- كيف حال أبيك الآن؟

تعجبت كيف عرف أن والدي ظل أربعة أيام في المستشفى يعاني نزيفًا حادًا بسبب السعال المتواصل... لقد أدخلوه المستشفى في نفس اليوم المشؤوم، الذي رأيت فيه إيريتا على قيد الحياة أول وآخر مرة! ظل هناك تحت العناية المركزة، ولما استقرّت حالته، خرج قبل ثلاثة أيام، وعاد إلى البيت ليواصل سبابه وعصبيته على أمي وشقيقتيّ!

ترى... من أخبر موسى الوحش بمرض أبي؟

نعم... لقد تحدثت مع بعض زملائي في القسم عن الوضع الصحي البائس لوالدي، وأنه راقد في المستشفى لا حول له ولا قوة، لذا، ربما حكى له واحد من هؤلاء، أو ربما أخبره شقيقي حسن بحالة أبي. نعم حسن الذي لا يكفّ منذ أسبوعين على الأقل عن تلقيني نصائح دينية، يتصدرها ضرورة المواظبة على أداء الصلاة في أوقاتها!

- أبي بخير.. شكرًا.

هكذا قلت له وانصرفت. ثم تخيلت لو أن موسى الوحش نفَّذ وعيده وأنهى خدماتي، فماذا أفعل؟ هل سأبحث عن عمل هنا في دبي؟ وهل سأحصل على وظيفة بسهولة؟ أم سأضطر إلى أن أعود إلى القاهرة؛ ليستقبلني أبي بوابل من شتائمه التي لا تنتهي؟ لكن هل سيجرؤ موسى الوحش على طردي من العمل، وهو الذي قبل رشوة كبيرة من حسن؛ حتى يوفر لي هذه الوظيفة؟ أنا لا أعرف مقدار الرشوة التي تلقّاها، لكنني موقن أنه مبلغ كبير. وكما قال لي مرة منصور ابن خالتي إن الوحش لن يغامر بتعييني في هذه الوظيفة - وهو يعلم جيدًا أن لا خبرة لديّ في هذا المجال - إلا إذا كان مبلغ الرشوة مغريًا.

لقد نصحني أخي حسن أكثر من مرة بضرورة الانتباه في العمل؛ حتى لا أخسر وظيفتي، وكرّر أمامي أن كثيرًا من الفلسطينيين يريدون توظيف أناس من بني جلدتهم بدلًا منا! ولكنّ حسن لا يعرف أن شرودي وعدم انتباهي وتوتري الدائم... كل ذلك يعود إلى المصيبة التي أحملها في قلبي، ولم أكن أعلم عنها شيئًا. من يصدّق أن تتعرى النساء أمامي، فأعرض عنهن، ولا أتمكن من كشف السر الأزلي للمرأة؛ حتى أنا لا أصدق أحيانًا ما حدث، وتراودني أحاسيس غريبة باستمرار، فكأن هند لم تكن، وكأنني لم أذهب إلى مخدع إيرينا الروسية لأتعرى وأعود خائبًا! ماذا لو علم حسن بما جرى لي؟ هل سيشفق عليّ آنذاك ويتوقف عن اتهامه لي بأني فاشل، كما يفعل أبي معي باستمرار؟!... ثم ماذا لو وصل أمر مصيبتي إلى مسامع موسى الوحش، كيف سيتعامل معي؟ وما هو رد فعله؟ هل سيغفر لي

حينها سهوي وشرودي في أثناء العمل؟ لا أظن... فالرجل يتسم بخصال انتقامية، تغذّيها دومًا رغبة متأججة في السخرية من الآخرين وتسفيههم!

لا أعرف من أين جاء بهذه النفس الشريرة؛ فالمعلومات عنه شحيحة، كما كان يقول لي أمجد صفوان وزملائي في السكن، فهو من مواليد غزة التي تعلّم فيها حتى المرحلة الثانوية، بعدها التحق بكلية التجارة في جامعة القاهرة، وفور تخرجه غادر مصر إلى الكويت فترة، ثم استقرّ هنا في دبي.

يقول أمجد إنه رآه مرة مصطحبًا زوجته وابنه في مول «بورجمان»، وإن زوجته آية في الجمال، وأطول منه، وتصبغ شعرها بلون ذهبي، وإنها تعمل في العلاقات العامة بإحدى الشركات، كما سمع من أحدهم!

لكن من أين تمتلئ نفسه بكل هذا السواد؟ لا أحد يعلم، ولكن، هل حقًّا سينهي خدماتي كما كرر أكثر من مرة؟ وإذا أنهاها... ماذا سأخسر أكثر مما أخسره على أسرّة الغواني؟ وهل يوجد فقدان أفدح من فقدان الرجولة؟!

الرجولة أم الوظيفة؟ أنا أم موسى الوحش؟ هل مقدور عليّ أن أكافح لأحافظ على وظيفتي؟ أم مكتوب على جبيني أن أفتش عن سرّ الخيبة، التي تلمّ بي كلما تعرت أمامي امرأة؟ هل أخبر حسن أخي عن المعضلة التي تلاحقني، عسى أن يتفهم أحوالي ويجد لي مخرجًا؟ أم سيشمت بي ويحتقرني، وعندها لن أسلم من سياط لسانه إلى الأبد؟ هل آمن لأمجد صفوان بكشف السر، وأبلغه أن واقعة إيرينا ليست الأولى، لعله ينصحني ماذا أفعل لأتجاوز هذا الكابوس؟ إذا قلت لأمجد، فقد أصبح

مضغة الأفواه، فهو لا يؤتمن وثرثار، وقد أفشى لي كثيرًا من أسرار معارفه وأصدقائه، وبعضهم يعيش معنا في السكن!

لم يبقَ سوى منصور ابن خالتي، فهل أتجرأ وأطلعه على مخبوء صدري، الذي يرهق مني النفس والروح منذ أكثر من ثلاثة أشهر؟ وهل سينصت منصور إلى شكواي بصدر رحب؟ وهل يملك من الوقت ما يخصّصه لي، وهو المشغول دومًا بعالمه الصحفي وسفرياته، وصديقته الفلبينية، والأستاذ صلاح، والقبض على صدام حسين ومحاكمته؟... فأمس ظل يضحك ويضرب كفًا بكفّ، ونحن جالسان على مقهى «ذكريات»، وهو ينقل لي آراء صحفي عراقي يعمل معه في المؤسسة، إذ لفت انتباهه إلى عجرفة صدام حسين خلال المحاكمة، وكيف يتعامل بقسوة وعنجهية مع القاضي وأعضاء المحكمة، بل ويسبهم!... ولما سأله منصور ماذا يعني هذا الأمر؟ صرخ في وجهه الصحفي العراقي قائلًا: «إذا كان الرجل مسجونًا منذ مدة، ويحاكم وهو يعلم أن الإعدام مصيره، ومع ذلك فهو متمسك بجبروته وفظاظته مع القضاة، فتخيل كيف كان يتعامل معنا وهو رئيس، وأي ديكتاتور كان يحكمنا، بل أيّ كابوس كنا نعيش تحت وطأته»!.

لا يريد منصور أن ينسى هوسه بالسياسة أبدًا، ولا يملّ من الكلام عنها، ومحاولة تحليل مواقف الدول ومستقبل الصراعات السياسية، وكان يسخر مني؛ لأني لا أشاطره الاهتمام نفسه.. كنت أغار من حيويته وقدرته على رؤية أمور أبعد من ذاته، ومناقشة قضايا لن تعود عليه بالنفع مباشرة، وكان يحدس هواجسي حياله، فيقول لي أحيانًا من دون سابق إنذار «الاهتمام بشؤون السياسة متعة ذهنية، لا يقدّرها الخاملون عقليًا

أمثالك»... ولما كنت أبدي امتعاضي، على استحياء، من هذه الآراء التي تهزأ بي بوضوح، كان يضحك وهو يستطرد: «السياسة تعني رغيف الخبز وكيلو اللحم وتذكرة الأوتوبيس»... هكذا كان يقول لي في القاهرة، وها هو يكرّر الكلام نفسه في دبي، حتى حين غرقت صفاء زوجته في النهر، لم يتوقف عن شراء جرائد المعارضة، خاصة العربي والأهالي، قبل أن يلتحق للعمل بها، ومتابعة الأحداث، وقد رأيته أكثر من مرة يمسح دمعتين، تسللتا من عينيه من دون أن يدري، وهو شارد على المقهى، ثم يحرّك رأسه يمنة ويسرة بقوة وبسرعة كأنه ينفض عن نفسه غبار الحزن، ثم يمسك الصحيفة؛ ليطالع فيها رأيًا أو عمودًا لأحد كُتّابه المفضلين!

هل أخبر منصور بوقائع ما جرى لي على أسرّة الغواني والعاهرات؟ أم أنتظر لأجرب حظي - أو جسمي - لمرة ثالثة؟ وهل أحتمل الصبر لمرة أخرى، أو بالأحرى هل يمكن أن أحْتَمِلَني إذا كان مصير المرة الثالثة هو نفس مصير المرتين السابقتين؟ وهل مقدور عليّ أن أظل نهبًا هكذا لألاعيب جسدي، فيخطف مني التركيز في العمل، ويعرّضني لتقريع دائم من قبل مدير مكروه، يتصيّد أقل الأخطاء ليكيل لي الانتقادات بالجملة؟

كنت أقف هكذا في القسم نصف غائب عن الوعي، تلاحقني الأفكار والوساوس حين رنّ الموبايل، فكانت هند!

***

16

الحقيبة

لم يستغرق لقائي مع هند المغربية أكثر من ساعة ونصف الساعة.. انتظرتها حسب الميعاد في شارع الرقة أمام مطعم أوتوماتيك. كانت الرطوبة خانقة كالعادة في هذا الوقت من أوائل سبتمبر، فغرقت في عرقي اللزج والمقرف؛ خاصة وأن قميصي الأزرق كان مصنوعًا من قماش رخيص الثمن، فالتصق بجسمي وفاقم توتري. ترددت في أن أدخل المطعم لأنعم بهواء المكيف، ولكنني خشيت أن تكون أسعار المشروبات مرتفعة فتضطرب ميزانيتي، فتحملت اختناق المناخ على مضض لأكثر من ثلث ساعة، وهند لم تظهر بعد.

طَفَتْ على شاطئ ذكرياتي وقائعُ اليوم المشهود مع هند، فوجدتني أطأطئ رأسي خجلًا وكأن هناك من يحاسبني، ثم زاحمتها إيرينا الروسية فجأة حينما رأيت قطة تحوم حول مدخل المطعم، فتذكرت حفيدة القياصرة مع قطتها. ولكن سرعان ما عادت هند لتحتل صدارة تفكيري لتضمحل صورة إيرينا تدريجيًا.. تأملت هنديين يتكلمان بصوت مرتفع،

وهما يسيران أمامي، ويتحدثان بلغة عجيبة تثير الضحك، فضحكت. نظرا إليّ في وقت واحد، وبادلاني الضحك من دون أن يعرفا لماذا أضحك؟

اللعنة... تأخرت هند والرطوبة البائسة كأنها حبل متين، يلتف حول أعصابي فيخنق روحي! ترى... ما الذي دعاها للاختفاء طوال ستة أشهر تقريبًا منذ لقائنا الفاشل؟

ولماذا تذكرتني الآن؟ ماذا تريد مني بالضبط؟ هل ستدعوني لتكرر التجربة مرة أخرى على سريرها الوثير؟ ليتها تفعل، لكنني لن أجرؤ على أن أطلب منها ذلك، أو حتى ألمّح لها، فما حدث أمر لا ينسى، كما أنني لست واثقًا بالمرة في قدرتي على إتمام فعل الجنس معها، إذا تعرّت أمامي مرة أخرى؛ لذا من الأفضل ألا تدعوني إلى مخدعها اليوم أو غدًا، حتى لا تتكرر المأساة وأصبح أسيرًا لرائحتها التي مازالت عالقة في جسدي حتى هذه اللحظة، فأنا أشم هذه الرائحة فجأة من دون سابق إنذار، ومن دون سبب منطقي، فقد تغزوني وأنا أتأمل قبلة حارقة في فيلم يعرض في التلفزيون، أو أشاهد رجلًا وامرأة يسيران في سيتي ستر وهما ملتصقان يدًا بيد، أو تقتحمني رائحة هند دومًا، وأنا أمارس العادة السرية في حمام السكن! نعم... لقد تراجع نفوذ هذه الرائحة الآن بعد مرور هذه الأشهر، ولكنها موجودة وتعلن عن سطوتها فجأة وبصورة مخيفة لدرجة، تجعلني أشعر بصداع شديد لا تزول أوجاعه إلا بالنوم!

بعد 45 دقيقة وصلت هند بسيارة مازدا.. تساءلت: من أين لها بهذه السيارات الحديثة؟ اتصلت بي قائلة إنها ستكون أمام المطعم بعد خمس دقائق، وعليّ أن أستعد؛ لأنها لن تستطيع الوقوف أكثر من ثوانٍ بسبب

الزحام الشـديد في شارع الرقة.. اضطربت أعصابي وشعرت برغبة جارفة في دخـول الحمـام لقضـاء حاجتـي، تماسـكت قـدر اسـتطاعتي، ولكن التقلصات التي سقط في معطبها جهازي الهضمي بدت أقوى مما أحتمل.

أنعشني الهواء المنبعث من مكيف السـيارة، فأيقنت أن الرطوبة هنا أقسى مما يتخيل أحد، ثم شعرت خطأ أن الرغبة في قضاء الحاجة قد زالت؛ ذلك أنني فور جلوسنا في مطعم مراكش بشـارع الشيخ زايد عاودتني منغصات الجهاز الهضـمي، فاسـتأذنتها لدخول الحمام، حيث تخلصت من عذابات الجسـد وتقلصات جهازي الهضمي دفعة واحدة!

كانت هند ترتدي فستانًا بيًّا قصيرًا مكشوف الصدر بحمالتين، ومرصّعًا عنـد نهديهـا بوردتين كبيرتيـن حمراوين، طلبت لنا شـايًا مغربيًّـا، دون أن تسـألني مـاذا أريد أن أشـرب، وكنت قد غسـلت وجهي مرتيـن بالصابون في حمام المطعـم؛ لأزيل رائحة العـرق الذي تصبب مني بسـبب توحش الرطوبة وأنا أنتظرها.

- أمي ماتت.

قالتهـا وهي تشـعل سـيجارة، لم تنتظـر أي تعليق منـي، حيث أضافت بسـرعة من دون أن أنطق بكلمة:

- هذا سبب غيابي عن دبي الأشهر الأخيرة.

ورطة لم تكن في الحسـبان، ماذا أقـول لها؟ وهل يمكن أن أطلب منها لقاء آخر في سريرها، وجثة أمها مازالت ساخنة في القبر؟!

- البقية في حياتك.

- أشكرك... كيف حال العمل؟

حكيت لها باختصار سخافات المدير موسى الوحش وملاحقته لي وتهديده إياي بإنهاء خدمتي.. كانت تنصت لي بنصف تركيز، فقد كانت مشغولة بتليفونها المحمول، تتأمله وتبحث فيه عن رسائل وصلتها أو تصوغ رسالة لأحد، كما أنها تلقت عدة مكالمات طوال المدة التي جلسناها معًا، وأنا أيضًا رنّ هاتفي مرة من قبل أختي ثريا، فرددت عليها برنة مماثلة.

حاولت أن أستثير اهتمامها فسألتها:

- هل كانت مريضة؟

- مَنْ؟

- والدتك!

- آه... طبعًا... كانت تكابد السرطان منذ سنين.

بدا لي واضحًا أنها لا تريد أن تتحدث عنها، فتوقفت عن طرح الأسئلة، بل توقفت عن الكلام كله، وتأملت الجرسون، وهو يرفع «برّاد» الشاي المغربي إلى أعلى ويصب منه الشاي بأداء مسرحي، ذكرني ببائع العرقسوس في مصر وطريقته في الصب!... لاحظت أن هند تناولت بعض حبوب الصنوبر.. التي جاء بها الجرسون مع الشاي ووضعتها في فنجانها.

قلدتها، لكنها تناولت حفنة أخرى من الصنوبر، وبدلًا من وضعها في الشاي قذفتها في فمها دفعة واحدة وراحت تمضغها، أحببت الصنوبر.. لكني لم أستسغ طعم الشاي المغربي، ومع ذلك أتيت عليه كله، فقد كنت جائعًا.

- هل تأكل كسكس بالدجاج؟

تعجبت كيف أدركت أنني جائع، خشيت أن أعلن موافقتي فترتبك ميزانيتي، ولكنها لم تسمح لي بالتفكير طويلًا؛ حيث قالت:

- أنت ضيفي، وأنا سأدفع الحساب!

نادت على الجرسون مباشرة وطلبت كسكس بالدجاج لي ولها! تأملت ديكورات المطعم الغارق في المنمنمات المجلزة بالإضاءة الخافتة!

التهمت الكسكس بسرعة، لم تأكل هند إلا القليل، فوددت لو تناولت ما بقي في طبقها؛ لأني لم أشبع، لكنني تحرّجت، ثم أشعلت سيجارة وناولتني واحدة، وهي تتلفت حولها قبل أن تخبرني:

- أريد أن أحفظ شيئًا عندك.

لم أفهم ما قالت، فعبّرت بحاجبيّ عن الاستفهام، فأردفت بسرعة:

- حقيبتي الخاصة... أريد أن تحفظها عندك.

- أي حقيبة؟

عدّدت لي هند محتويات حقيبتها، حيث تضم أوراقها الشخصية المهمة، وقليلًا من المشغولات الذهبية كما قالت. ثم بررت لي رغبتها في عمل ذلك بأن بيتي أكثر أمانًا من الشقة، التي تعيش فيها الآن مع بنات لا تعرفهن جيدًا، ومعظمهن من الفلبين وروسيا والصين وأوكرانيا! ثم أضافت بنبرة لا تخلو من غنج، وهي تضع يدها فوق يدي:

- محمد... أنا أثق فيك كثيرًا.

لم تمنحني أي فرصة للتفكير في طلبها، إذ سرعان ما سألتني:

- هل تحب عبد الحليم حافظ؟

- لماذا؟

- ألا تسمع... إنه يشدو بأغنية «جانا الهوا»!

ثم استطردت بحسرة بادية:

- أمي كانت تحبه كثيرًا.

لم أنتبه إلى أن صوت عبد الحليم ينبعث برفق من سماعات، وضعت في أركان المطعم من دون أن يلحظها أحد، فأغنياته لم تكن تستهويني، بعكس منصور ابن خالتي، الذي أغرم به فترة تأثرًا بوالديه؛ خاصة أمه التي كانت تحب حليم كثيرًا.

غلبت النشوة هند وهي تنصت لحليم، فرددت معه وهي تتمايل: «مارمانا الهوا ونعسنا... واللي شبكنا يخلصنا».

ظلت تغني وأنا أتأملها بينما شهوتي فيها تنمو وتزدهر، فأجدني أمد يدي لألمسها فلا تمانع، وتترك لي يدها أعابثها كيفما أشاء حتى يرن الموبايل الخاص بها فجأة، فتسحبها لترد بلهجة مغربية لم أفهم منها شيئًا، ولكن قبل أن تنتهي من حديثها التليفوني، رنّ هاتفي فكان منصور الذي طلب رؤيتي على مقهى «ذكريات» الآن إذا لم أكن مشغولاً.

عند خروجنا من باب المطعم، كانت الرطوبة قد بلغت مستوى بائسًا، فلعنت هند هذا المناخ وهي في قمة التأفف، وقد أشعلت مكيف السيارة، فور أن أدارت المحرك، ثم صرخت:

- ياه... ما هذه الرطوبة الخانقة!

شاركتها الإحساس بالانزعاج الشديد من رداءة الطقس، فتمتمتُ بعبارات تزيد غضبها وتدعمه، وقبل أن تتحرك بالسيارة التفتت إلى الخلف؛ لتحضر حقيبة جلد بنية كبيرة نسبيًا مثل التي يحملها المحامون، فناولتها لي وهي تقول:

- محمد... هذه حقيبتي الخاصة جدًا... رجاء الحفاظ عليها جيدًا... أشكرك.

أخذتها بهدوء وأنا أهمس:

- لا تقلقي... سأحافظ عليها.

عقبت على كلامي قائلة:

- أعرف أنك تملك دولابًا خاصًا... ضعها فيه بين ملابسك وأغلقه جيدًا!

لم أعلق، على الرغم من أنني لا أعرف من أخبرها أنني أملك دولابًا خاصًا، ولكنها لم تتركني للتفكير، بل مدت يدها إلى حيواني الذي همد، وهي تضحك سائلة:

- كيف أخباره الآن... أمازال نائمًا؟

غرقت في نهر حيائي، إذ مرت كالطيف وقائع اليوم إياه معها، فاضطربت، وأظنّ أنها لاحظت ذلك؛ لأنها قالت بقدر من الجدية:

- لابد أن نكرر المحاولة مرة أخرى!

حين نزلت من سيارتها عند مقهى ذكريات.. ودعتها، وأنا ألعن رطوبة شهر سبتمبر وحظي التعس مع النساء.

دخلت مسرعًا إلى المقهى هربًا من سجن الرطوبة، فاستقبلت أذني على الفور صوت أم كلثوم، وهي تقول: «اسقني واشربْ على أطلاله». وجدت منصور ابن خالتي يتبادل حديثًا ضاحكًا مع فتاة تجلس بجواره.

- سمية الأبراشي... صحفية مصرية في جريدة «الخليج».

قدمها إليَّ بودّ شديد، وهو يشير نحوي:

- هذا يا عزيزتي محمد ابن خالتي.

- صديق الطفولة والصبا والشباب.

أكملت سمية التعريف وهي تبتسم، ثم مدت يدها بثقة لتصافحني قائلة:

- أهلًا يا محمد... لقد حدثني منصور عنك كثيرًا.

مفاجآتك لا تنتهي مع النساء يا منصور: من أول المرحومة صفاء، حتى الفلبينية التي لا أعرف اسمها، وها هي سمية... ترى ما حكايتها هذه يا ابن خالتي؟ ولماذا لم تخبرني بها من قبل؟ حقًّا إنها جميلة ورقيقة... هكذا تفصح ملامحها البيضاء الدقيقة، وعيناها السوداوان الواسعتان!

أنت تنعم بالنساء في القاهرة وفي دبي يا منصور، وأنا غير قادر على مجاراة هند في العبث داخل السيارة، فتخذلني شهوتي لحظة أن تلمسه، فينكفئ وينكمش... اللعنة!

وضعت حقيبة هند البنية بين ساقي وأنا أجلس، فبادرني منصور متسائلًا:

- لمن هذه الحقيبة؟

- إنها خاصة بصديق.

كذبت عليه، لأنني لو أخبرته بالحقيقة لسألني: مَنْ هند؟ آنذاك ربما لا أقوى على مواصلة طريق الكذب، فأصبح صريع الحقيقة المخزية والمؤلمة، «هند يا منصور امرأة أخفقت في إثبات رجولتي بين أحضانها»، هل تريد أن تسمع ذلك؟ لا.. لن أقول لك؛ حتى لا تسخر مني وأنت الشاب الذي خبر النساء وأحاط نفسه بالجميلات!

تأملت سمية خلسة وأنا أدخن الشيشة، بدا لي أنهما متفاهمان جيدًا، كانت ترتدي بلوزة خضراء وبنطلون جينز، وتضع ساقًا فوق أخرى، شعرها الأسود القصير كان مُصففًا بطريقة تؤكد أنها فتاة عملية.. لم تكن تدخن، ولم تتوقف عن إلقاء النصائح لنا بأن التدخين مضر وغير ممتع. تصدى لها منصور مدافعًا عن سحر الشيشة، ولما طلبت مني الكلام، اكتفيت بتأييد آراء منصور.

- سيأتي الأستاذ صلاح الغندور بعد قليل.

- هذا أمر جيد... فأنا لم أره منذ زمن.

تابعت حديثهما حينًا وانشغلت بمشاهدة مطاردة حامية بين أسد وذئب على شاشة التلفزيون، بينما أم كلثوم تهتف من مسجل المقهى: «أعطني حُرّيتي أطْلِقْ يَدَيَّ». رنّ هاتفي، وكانت هند تسألني هل وصلت إلى البيت

ووضعت الحقيبة في مكان آمن. أربكني هذا الإلحاح، فوجدتني أرفع الحقيبة بشكل لا إرادي لأضعها على فخذي وأمسكها جيدًا، وأم كلثوم تكرر «إنني أعطيتُ ما استبقيتُ شيًا». في تلك اللحظة، دخل علينا الأستاذ صلاح مقهورًا مكدودًا، تسبقه دموع حارقة، تعرقل انهمار الحروف على شفتيه... سهم الرعب الذي انطلق من عيني منصور لم يكن له شبيه، فسأله بنبرة عالية لفتت انتباه كل من في المقهى:

- ماذا حدث؟

بصوت مجروح، وقلب منفطر، ودموع ساخنة، قال لنا الأستاذ صلاح الغندور:

- لقد مات بدر المنياوي ضمن فناني المسرح، الذين احترقوا في قصر ثقافة بني سويف أمس!

انخرطنا جميعًا في بكاء شديد باستثناء سمية الأبراشي، التي تفحصتنا بحزن وذهول، أما أم كلثوم فكانت تشدو بأسى يمزّق الأفئدة:

- يا حبيبي كلُّ شيءٍ بقضاءْ...

ما بأيدينا خُلِقْنا تُعَساءْ!

***

17

أنا ... مرة أخرى

«حتى سوما الصينية يا محمد! لقد جاءت إلى بيتك ونامت فوق سريرك وتعرت راضية مرضية مقابل خمسين درهمًا فقط. وبذلت معك مجهودات خارقة عسى أن يرفرف حيوانك وتزدهر رجولتك من دون جدوى... ما أقبحك يا محمد».

مَنْ أنا حقًا؟

محمد عبد القوي الزبال... نعم هذا اسمي... وهذا جسدي الملعون... المناوئ لرغباتي... المتمرد على رجولتي... الساخر من شهواتي... الناقم على غرائزي. ولكن هل هذا يكفي لأعرِّف نفسي؟ وأمس قال لي منصور إنه ينوي أن يخطب سمية الأبراشي في الصيف القادم، وعليّ أن أفكر جديًّا في الزواج كما قال، ثم أضاف: «إنني أحبها يا محمد... وهي أيضًا».

تحبها؟ وأين صفاء الشرنوبي؟ هل نسيتها يا منصور؟ أم أن الموتى ليس لهم نصيب في العشق! من رأى دموعك يوم ابتلعتها مياه النيل لا يمكن أن يخمن أنك ستنساها لتتزوج بأخرى بعد أقل من أربع سنوات! بل وتعلن

بتجمع أنك تحب سمية الأبراشي! من سمية الأبراشي هذه أصلًا؟ مجرد صحفية التقيتها هنا قبل شهور، ودارت بينكما اتصالات تليفونية ومقابلات عملية في المؤتمرات الصحفية، كما قلت لي... فهل هذا يكفي لأن تقول إنك تحبها! رحمك الله يا صفاء... لو تدرين ماذا سيفعل بك ابن خالتي لما تزوجتيه في السر... ولكن ما لي أنا وغرامياته!

وقبل أسبوع دقت سوما الباب.. كنت أجلس وحيدًا في البيت يوم إجازتي، كانت فتاة صينية تبيع الساعات والـ«سي ديهات».. تصعد الأدوار وتطرق الأبواب لتعرض بضاعتها التكنولوجية. دعوتها للدخول بحجة الاطلاع على البضاعة، وأنا أضمر في نفسي شيئًا خبيثًا.

أفرغت ما في حقيبتها على الأرض، وجلست القرفصاء تعدد لي مزايا ما تبيعه بلغة عربية ركيكة ومتكسرة. فهمت بعضها ولم أفهم معظمها، كما أني لم أكن أهتم بما تقول، فقد كنت أفكر في الحيلة، التي تجعلني أنقض عليها من دون اعتراض أو فضائح، فلما أخبرتني أن هناك «سي ديهات» جنسية، تجرأت عليها ومددت يدي لأمسك بنهدها. لم تحاول سحبها فقمت لأرفعها بين يدي وأضمها، فلم تشأ أن تفلت مني، فقط سألتني بلغتها العربية المرتبكة وجسد منهك هذه التجوال:

- كم ستدفع؟

لم أجد إجابة سوى أن أرد سؤالها بسؤال:

- كم تريدين؟

- مائة درهم.

- كثير جدًا... معي خمسون فقط.

- موافقة.

بعد أقل من دقيقة كانت سوما، هذا هو اسمها الذي أخبرتني، به ولا أدري إن كانت صادقة أم لا؟ قد تعرت تمامًا، حيث نزعت بلوزتها البيضاء وبنطلونها الجينز، فبدت لي أقل من طفلة. حجمها الصغير ككل لا يشي أبدًا بأنها امرأة ناضجة، فنهداها مثل ليمونتين صفراوين، وفخذاها أرفع من زندي، فكيف أضاجع شبحًا لا قوام له ؟ طلبت منها أن تستحم لأن رائحتها لم تكن تحتمل.. شكرتني وهرولت نحو الحمام بفرح، وحين خرجت كانت تسبقها ابتسامة رضا وامتنان. أعطتني الواقي الذكري الذي أخرجته من حقيبة يدها، فرفضت استخدامه.. نظرت لي مندهشة وتمتمت كلامًا لم أفهمه.

المأساة بحذافيرها تكررت مع سوما، فلا المداعبة، ولا الغنج، ولا التعري، ولا التأوهات الصينية، ولا حتى الملامسة للجسد الساخن استطاعت أن تُنهض ما هو ساكن، أو تحيي ما هو ميت، فتركتني سوما ولملمت بضاعتها بما فيها الواقي الذكري، ولم تأخذ شيئًا، بعد أن تركت لي نظرة شفقة، تتدحرج على جسمي المسكين! حيث لم أرها بعد ذلك أبدًا!

الفراغ يقتلني... وأبي يصارع الموت منذ أسبوعين في مستشفى المعادي العسكري، وأختي ثريا لا تمل من لفت انتباهي برناتها كل ساعتين، وشقيقي حسن قرر أن يعود إلى القاهرة ليتولى منصبًا مهمًّا في

كارفور مقابل ثلاثة آلاف جنيه شهريًا، ناصحًا إياي - أو آمرًا - بأن أحافظ على وظيفتي، وإلا لن أجد من يحميني. وحقيبة هند قابعة بين الملابس لا أدري ما بها، وأنا جالس بمفردي في المنزل يحاصرني الفراغ، حتى أمجد صفوان استقال من العمل بكارفور منذ عشرة أيام، والتحق بشركة عقارات براتب مغر، فبدت النعمة عليه من فورها!

وبدر المنياوي نال تكريمًا يليق بجثمانه المضخم من صديقه صلاح الغندور، فكتب عنه ثلاث مقالات متالية تضج بالحزن واللوعة على الفقيد، وتلعن الحكومة ووزيرها ومسؤولي الثقافة بها؛ لأنهم تركوا بدر والذين معه يحترقون من دون مجد في قصر ثقافة مهمل، وغير مؤهل لاستقبال عروض مسرحية!

حتى منصور رثاه بمقال موجع للقلب، يعدد من خلاله خصال رجل نبيل وحكيم تعيس الحظ، فأبكاني حين قرأه لي، وبكى معي، على المقهى، ولم ينس منصور أن يهدي المقال إلى روح بدر العذبة وأرملته الوفية وزوجته الراحلة صفاء الشرنوبي، حيث ذكر في مقاله الحزين أن بدر المنياوي فتح له منزله؛ ليقضي فيه ليلة دخلته السرية.. كان مقالًا جريئًا على الرغم من الدموع، التي تقطر من بين حروفه!

عضّني الجوع، فقمت أفتش في الثلاجة عن شيء، فلم أجد سوى قطعة خبز أفغاني أشتهيه كثيرًا عندما يكون طازجًا، وبقايا جبن أبيض، وتفاحة يتيمة، فأكلتها كلها، وعدت إلى غرفتي لأفكر في سوما وصديقاتها الصينيات بائعات التكنولوجيا والهوى.. لقد هجرن بلدهن وسافرن آلاف الكيلومترات بحثًا عن دراهم قليلة، حتى لو اضطررن إلى انتهاك

أجسادهن، وعرضها لمن يدفع هذه الدراهم القليلة! حقًّا ما أتعس بلادهن وما أقسى الغربة! هل قلت الغربة؟ ومن أنا أصلًا؟ ألست غريبًا هنا أيضًا؟ فلا أم ولا أخ ولا أخت ولا أهل ولا تلك البلاد بلادي؟ ومع ذلك، أنستني مأساتي مع النساء هنا أني غريب!

هل أعود إلى وطني؟ هل أظل هنا أذوق الذل وأبلع الإهانة من مديري ومن شقيقي ومن النساء؟ أم أعود إلى القاهرة لأقدم الشاي والقهوة والشيشة في المقاهي، فتعصرني الغربة داخل وطني؟

محمد عبد القوي الزبال خريج كلية التجارة منذ ست سنوات، وجرسون في مقهى شعبي بالقاهرة... هذا هو مصيري في أفضل الأحوال إذا تمردت على غربتي وقررت العودة إلى مصر! ضحكت بصوت عالٍ على وضعي البائس، وعلى الألفي دولار فقط التي استطعت توفيرها طوال عام كامل من الوقوف عشر ساعات يوميًا في كارفور! حمدت الله عل كل شيء، ولكن من دون حماس كبير!

وقعت عيني على ملابسي المتسخة والمكومة داخل سلة الغسيل المحشورة بين الدولاب والسرير. انزعجت جدًّا لأنني يجب أن أقوم بغسلها في تلك الغسالة المهترئة نصف الآلية! قلت لنفسي: ما أتعس هذه المهمة الأسبوعية المزعجة! حقًّا كيف تتحمل السيدات هذا العمل المنحط: غسيل الملابس؟ تثاقلت وأنا أتحرك نحو الغسالة لأضع بداخلها ملابسي، وأنا أحلم بيوم أقتني فيه زوجة، ترحمني من هذه السخافات المنزلية! وهل هناك فتاة تقبل أن تتزوج شابًا مثلي عاجزًا عن مضاجعتها؟

خلاص: هل صنفت نفسك ضمن العاجزين جنسيًا يا محمد؟ وكيف تعلل ممارستك للعادة السرية بنجاح كل يوم تقريبًا! اطرد غراب التشاؤم هذا من فوق شجرة أفكارك، واستعد ثقتك بنفسك وبقدراتك! هكذا قلت لنفسي، وأنا أقذف بملابسي من دون همّة في وعاء الغسالة!

ثقب أذني آذان الظهر الذي يرفعه دومًا رجل دين باكستاني، مزدان بلحية كثة تميل إلى الاحمرار، وذو نبرة حادة ومزعجة، كانت توترني عندما ارتطمت بأذني عند سماعي إليه لأول مرة، لكني تعودت على إيقاع صوته المذبذب مع الوقت. كان المسجد ملاصقًا للبناية التي أقطنها، ومع ذلك تكاسلت أن أذهب للصلاة، وقلت لنفسي: «القيظ شديد في الخارج، فلا بأس أن أصلي هنا»، وبالفعل توضأت وأحضرت سجادة الصلاة، التي حرصت أمي على دسها في حقيبتي عندما غادرت القاهرة، ثم اتخذت موقعي من القبلة وشرعت في إقامة الصلاة!

لم تتركني هواجسي كالعادة أستمتع بلذة العبادة، الأمر الذي كان يعذب روحي على الدوام، حيث رأيت شبح هند وهي عارية يعبر أمامي وأنا أقرأ الفاتحة، فاستغفرت الله وبدأت شعائر الصلاة من جديد، عبثًا أحاول طرد أجساد النساء اللاتي أخفقت في مضاجعتهن من خيالي من دون فائدة، أغمضت عيني حتى لا أراهن يتسكعن عرايا في غرفتي؛ فيفسدن عليّ صلاتي، استجمعت أعصابي مصوبًا تركيزي نحو الآيات والسور الكريمة حتى أنجزت الصلاة بسرعة، كي أتخلص من عذابات التشويش، وأنا أتساءل بندم: هل سيغفر لي الله شططي هذا في الصلاة؟ أم أنه يمتحن قوة إيماني ومقدرتي على الإخلاص له وحده، مهما كانت إغراءات الدنيا؟

رن هاتفي، كانت هند تقرئني السلام وتطمئن على حقيبتها. فرحت لأني قد أراها اليوم، فأقهر الفراغ الذي أهيم فيه منذ الصباح، ولكن هند لم تمنحني أي فرصة للفرح؛ إذ أخبرتني أنها في طريقها إلى المطار للسفر إلى هونج كونج، في مهمة عمل تستغرق أسبوعًا، ثم ختمت كلامها بدلال:

- عندما أعود يجب أن نلتقي فورًا... لأنك أوحشتني!

الغنج الذي تسرب من بين حروف هذه العبارة أهاج مشاعري في لحظة، فوددت لو قبلتها، ولكنها أردفت قبل أن أنطق بكلمة:

- الحقيبة يا محمد... حافظ عليها!

نهضت على الفور من فوق سرير وحدتي متوجهًا نحو الدولاب، أزحت الملابس من فوق حقيبة هند وأحضرتها؛ لأحاول فتحها مرة أخرى بعد إخفاقي يوم أدمى قلوبنا الأستاذ صلاح، وهو يتحدث بنشيج يمزق القلب عن علاقته ببدر المنياوي.

ليلتها... كانت الصدمة بهول الحريق الذي أودى بحياة 40 فنانًا تقريبًا في مسرح بني سويف قاسية جدًّا، حيث لم أكن مهتمًا بما يكفي لمعرفة محتويات حقيبة هند، لذا عندما عجزت عن فتحها حين اكتشفت أنها تعمل بأرقام سرية، تركتها جانبًا ولم أكرر المحاولة... لكن إلحاح هند الغريب يدفعني الآن لأفكّ أسرار هذه الحقيبة! لعلها تحتفظ بصور ورسائل عشق لها! أحرقني شعور بالغيرة! لا أدري إن كان هذا الشعور حقيقيًّا أم مزيفًا؟ صحيح أن هند تعرت أمامي ورأيت، بل ولمست كل كنوز جسدها الظاهرة والخفية، إلا أنها لم تحبني كما أنني لم أحبها؟ على الرغم من سطوة

رائحتها التي تلتصق بأنفي وجلدي، فمن أين تتسلل عناكب الغيرة إلى صدري؟ وكيف يمكن فهم سخطي الشديد عليها الآن؛ لأنها لم تخبرني بالأرقام السرية لفتح الحقيبة!

لعنة الله عليك يا هند... قسمًا سأحاول حل ألغازك أيتها المرأة اللعوب! أقبلت على مفاتيح الأرقام الثلاثة وحاولت أن أجرب أرقام صفر وصفر وصفر - فلم تفتح.

حاولت مرة أخرى صفر واحد صفر، فأخفقت.. ثم صفر صفر واحد، فكانت النتيجة سلبية. بعد المحاولة العشرين، أيقنت أنني لن أتمكن من فتحها! ففكرت للحظة أن أستعين بسكين حاد، لأشق جلد هذا الغموض، وبالفعل هممت بالذهاب إلى المطبخ، إلا أن رنين الموبايل أوقفني في منتصف الصالة، فعدت إلى حجرتي لأجد أمجد صفوان يدعوني على الغداء، ثم يقول لي:

- بعد عشر دقائق سأكون أمام مدخل العمارة!

سرني جدًا اتصاله، لأنه سيخرجني من حالة الفراغ التي أكابدها منذ الصباح، ألقيت حقيبة هند وأنا أسبها جانبًا، ثم عدت ووضعتها في الدولاب، ودسستها بين ملابسي حتى اختفت. بعد ذلك أغلقت الدولاب بالمفتاح، وأنا متردد: هل أخبر أمجد صفوان عن هند وحقيبتها؟

كان شارع الشيخ زايد مزدحمًا بما يكفي، حيث كانت السيارة تتحرك كالسلحفاة وسط سيل من السيارات، تتدفق كلها من ديرة نحو بر دبي حتى تصب في شارع الشيخ زايد في اتجاه أبوظبي. وكان أمجد صفوان

قد نقل هواه من هيفاء وهبي إلى شيرين، فوضع «سي دي» لأغنياتها في السيارة وهو يشرح لي مفاتن أدائها وهي تغني «آه يا ليل» و«لازم أعيش» و«جرح تاني». وكان حماسه يزداد مع بطء حركة السير، فيعلن أن شيرين أهم مطربة في العالم العربي الآن، ودليله أنها ليست فتاة جميلة، ولكن الجماهير تطاردها من حفلة لأخرى، وتقتني ألبوماتها بعشرات الآلاف!

لم أكن متحمسًا لشيرين أو لغيرها، بل كنت مشغولًا بحقيبة هند ومحتوياتها. كما أن البنايات الشاهقة التي تكلل شارع الشيخ زايد من الجانبين كانت تثير إعجابي لنظافتها وسموقها وتصميماتها الفريدة ذات الواجهات الزجاجية عادة! مررنا على فندق كراون بلازا ثم مركز مزايا ثم دار الصدى؛ حيث انعطفنا من جانب حديقة الصفا نحو اليمين، لندور مع الجسر نحو الجهة الأخرى من شارع الشيخ زايد.

- هذا مطعم أبوعلي.

أشار لي أمجد بفخر وكأنه صاحب المطعم، ثم استطرد:

- اطلب ما شئت... فأنت ضيفي اليوم.

حين كادت عيوني تخرج من محجريهما عندما رأيت «رزمة» المال فئة الخمسمئة درهم التي أخرجها أمجد من جيبه ليدفع الحساب، ضحك بشدة، وهو يقول:

- الخير كثير... أكثر مما تتخيل.

ثم سحب ورقة من فئة المئتين درهم من «رزمة» أخرى، وناولها لي قائلًا:

- هذا ما اقترحته منك... أشكرك.

عندما كنت أستمتع بالرشفة الأخيرة من عصير المانجو، وأنا أتأمل نظافة وفخامة المطعم، لم أكن أتخيل لحظة أن أمجد صفوان الذي ارتدى بدلة كتان بيضاء زادته بهاء وأناقة والذي التهم الطعام بشراهة نمر جائع، ثم عبّ كوبين من عصير التفاح بسرعة فائقة، وهو لا يتوقف عن إعطائي النصائح في أن الحياة من دون مال لا معنى لها، وأنه سر البهجة والحبور، والكل يأتي إلى دبي ليصطاد البهجة ويصنع الحبور، أقول لم أكن أتصور لحظة أن هذا الذي أمامي يضج بالفرح والشباب والحيوية، سأراه بعد أقل من خمسة أشهر، يبكي بحرقة ويلطم خديه مثل الثكالى ونحن مكومان في زنزانة واحدة في سجن دبي، وهو يلعن المال والزمن والغربة صارخًا:

- لم أقتلها!... أقسم بالله ثلاثًا لم أقتلها!

●●●

18

سميث الأبراشي

لم أستمر في وظيفتي بكارفور سوى شهر واحد فقط، بعد عودة شقيقي حسن مبتهجًا إلى القاهرة؛ ليتسلم وظيفته في كارفور المعادي. ففي صباح يوم ثلاثاء بائس، استدعاني المدير موسى الوحش.. اتجهت نحو مكتبه يعتريني اضطراب، فليس من عادته أن يستدعي أحدًا إلا لتوبيخه أو معاقبته بلفت نظر أو خصم من راتبه.

استقبلني ببرود ونظرة شماتة، كان يرتدي قميصه الأخضر الفاقع، الذي لا يكاد يغيّره ودخان سجائره يعبق فضاء الحجرة، فشعرت بالاختناق. لم يطلب مني الجلوس، بل أعطاني مظروفًا مغلقًا، وهو يقول بنبرة صوته المزعجة:

- يؤسفني إبلاغك أن الإدارة قررت إنهاء خدماتك.

وقبل أن أستفسر عن السبب، أكمل بأداء من يريد أن ينهي الموقف بسرعة، من دون أن ينظر نحوي:

- لقد تحملنا أخطاءك كثيرًا إكرامًا لشقيقك... لكنّ للصبر حدودًا!

غمغمت بصوت مرتجف، وأنا خفيض الرأس:

- ولكن...

- لا تنس أنك لا تعرف الإنجليزية بالمرة!

أخرستني عبارته بقدر ما أوجعتني، فلم أرد.. كنت أعرف مأساتي مع هذه اللغة الملعونة منذ زمن، ولم أحاول أن أتعلمها وأتقنها كما نصحني منصور كثيرًا. لم أكن بحاجة إليها وأنا هائم على وجهي في القاهرة، وقد أنقذتني هند كثيرًا من مطبات واجهتني أثناء عملي في كارفور بسبب جهلي بها، فكانت تقفز من مكانها لتلتصق بي؛ لتتحدث مع الزبون الأجنبي، الذي يستفسر مني عن أنواع الموبايلات أو مزايا بعضها، فأقف عاجزًا أمامه يعتصرني الخجل لا أعي ماذا يقول، ولا أعرف ماذا أفعل، حتى تنتشلني هند من هذا المطب، فتتولى الإجابة عن أسئلة الزبون، بل وتتفنن في شرح خصال هذا الموبايل أو ذاك بلغة إنجليزية سلسلة وأداء مترع بالثقة، ثم تطلب مني - بعد أن تنجح في إقناعه بالشراء - أن أكتب له الفاتورة وأوقِّعها حتى يُحسب لي أنني قادر على البيع، وتضاف إلى إنتاجي!

لكن يبدو أن أحد زملائي كان يخبر موسى الوحش بخيبتي الإنجليزية، وبأن هند هي من تتحدث وتبيع، لا أنا! لعله الباكستاني منير خان، أو لعله أحد الفلسطينيين، وربما يكون نائل أبو شمالة تحديدًا الذي يكره كل البشر، ماداموا ليسوا فلسطينيين مثله! يجوز أيضًا أن يكون الوحش لاحظ ذلك بنفسه عند مروره المعتاد علينا.

عندما خرجت مخذولًا من مكتب موسى الوحش، كان طيف أبي ينتظرني ساخطًا أمام الباب، يرمقني بنظرة احتقار ويقذفني بسهام شتائمه: «ألم أقل أنك فاشل مهما حاولت؟، «هل نسيت تحذيراتي لك، عندما قررت السفر: الفاشلون فقط من يبحثون عن الرزق خارج بلدانهم».

انهالت شتائم وتوبيخات أبي في قلبي وعقلي ووجداني، وأنا في طريق عودتي إلى قسم الهواتف، متثاقل الخطى.

- أمامك حتى آخر الشهر لتدبر أمرك.

هكذا قال ابن المضاجعة موسى الوحش، وهو يكاد يطردني من مكتبه، حاولت أن أستعين باسم شقيقي حسن، ولكني لم أفلح، وظللت واقفًا أمامه كالفأر المذعور، وهو يكيل لي الاتهامات من أول جهلي بالإنجليزية، حتى شرودي الدائم!

استقبلني زملائي في القسم بعيون، تؤكد أنهم كانوا على علم بما سيحدث لي، ولم يرفق بي أحد منهم. بل راحوا يتغامزون ويوشوشون بعضهم بعضًا، أو هكذا كان يخيّل إليّ كأنهم مجموعة من الحشرات المقززة، التي التفت حول بقايا طعام فاسد وراحت تلتهمه بشراهة.

لكن عندما سألني الباكستاني منير خان بجلافة: «متى ستعود إلى بلدك؟»، أدركت أنهم كانوا يعلمون، وكانوا ينتظرون!

نظرت إليهم بعيون تصارع الدموع حتى لا تنهمر على الرغم مني، فاقترب نحوي زميلي اللبناني الذي ربّت على كتفي قائلًا، وهو يشير بيده إلى السماء: «لا تحزن.. الأرزاق على الله»!

كررت هند هذه العبارة في الليلة نفسها، وهي تواسيني في الموبايل، عندما كان عبد الله راشد يقرأ قصيدته، لكن منصور ابن خالتي لم يتوقف عن تأنيبي ونحن نجلس في مقهى «ذكريات» في مساء ذلك الثلاثاء البغيض؛ لأنني لم أبذل أي جهد لتعلم الإنجليزية، كما كان يلح على ذلك كثيرًا ناصحًا إياي بأنه لن ينجح موظف - أي موظف - في دبي، ليس على دراية جيدة باللغة الإنجليزية، ثم يصرخ في وجهي قائلًا:

- نحن العرب هنا قلة بالقياس إلى الهنود والباكستانيين وغيرهما... ولن تسعفك إلا الإنجليزية.

ثم يستطرد ضاحكًا:

- أو لغة الأوردو... أيهما أسهل لك في التعلم؟

أنقذني مجيء سمية الأبراشي من رماح النقد، التي يطلقها عليّ منصور، منذ جلسنا على مقهى «ذكريات» في تلك الليلة المحزنة.

كانت سمية ترتدي فستانًا أبيض بنصف كم مزدانًا بأوراق شجر خضراء كبيرة الحجم، يصل طوله أسفل الركبة بقليل، وتحمل في يمينها حقيبة يد أنيقة لونها أخضر مثل ابتسامتها الوديعة، فبدت كأنها تتحرك وسط حديقة، لا مقهى!

- لا تحزن يا محمد... ستجد وظيفة.

بادرتني بهذه الجملة وهي تصافحني بيدها الملساء، ثم أعقبت على الفور بغضب، وهي تشير بسبابتها إلى الشيشة:

- ألن تتوقفا عن تدخين هذا السُّم؟

- هوِّني عليك يا حبيبتي... سيأتي يوم ونهجرها.

بسرعة لافتة رد منصور على سمية، التي اكتفت بإيماءة من كتفيها لم أفهم ماذا تقصد بها! هل تستخف بما يعلنه منصور؟ أم تتمنى له أن ينجح في هجر الشيشة؟

لغة الهوى التي تحدثت بها عيون منصور وسمية، وهما صامتان يتبادلان نظرات غرام مستقر ومكين جعلتني أشعر بضآلتي، بل وبغيرة شديدة من ابن خالتي، الذي ينعم بوظيفة مرموقة باعتباره صحافيًا لامعًا، كما أنه يأتنس بالحب وينوي الزواج لمرة ثانية، بعد أن ابتلعت مياه النيل زوجته الأولى!

- ماذا تنوي أن تفعل يا محمد؟

سألتني سمية وهي ترتشف برقة شديدة الشاي بالنعناع الذي تفضله باستمرار، بينما كفها اليمنى تقبع بسكون داخل الكف اليسرى لمنصور؟

انتبهت إلى صوت أم كلثوم، وهي تشدو من مكان ما في المقهى: «ولما أشوف حد يحبك يحلى لي أجيب سيرتك وياه»، لأن سمية همست آنذاك في أذن منصور بكلام لم أسمعه، فابتسما سويًا!

كان باديًا لي أنهما يتصرفان كزوجين، أو على وشك الزواج، فسمية لا تتحرج أبدًا أن تناديه بـ «حبيبي»، وأن تتركه يلمس جسدها أو يضع ذراعه على كتفها أمام الناس، بل لا تمانع حين يلتقيان أن يمنحها قبلة على خدها كتحية!

لكنني لا أعلم المدى الذي وصلت إليه علاقتهما. وبصراحة أكثر... لا أدري هل أضاءا وردة الجنس بينهما أم لا ؟ وإن كنت أظن أن العجلة التي قرر بها منصور ابن خالتي أن يتخذ قرار الزواج من سمية قد تعود إلى شغفه بها جنسيًا، وأنها رفضت أن تطفئ نيرانه، قبل أن يتم الزواج رسميًا!

هذه كلها ظنوني، ولكن المؤكد أن الأستاذ صلاح الفندور كان له دور بارز في تشجيع منصور على اتخاذ هذا القرار! أقصد قرار الزواج بسرعة. كما أن الدكتورة منى رشاد زوجة الأستاذ صلاح قد أفصحت عن إعجابها باختيار منصور؛ إذ قالت مرة، وهي تحثه على الزواج:

- اختيارك موفق يا منصور... سمية فتاة رقيقة وجادة.

وفقًا لما حكاه لي منصور، فإن الأستاذ صلاح وقرينته كانا لهما الفضل في سرعة اتخاذ قراره بالزواج من سمية الأبراشي، بل وقد أكدت له الدكتورة منى رشاد أن هذا الزواج لا يعد من قريب أو من بعيد خيانة للزوجة الراحلة، بل وشرحت له عندما أخبرها أنه يكابد قدرًا من عذاب الضمير؛ لأنه لم ينس صفاء الشرنوبي بعد، على الرغم من غيابها قبل سنوات. فكيف يتزوج من فتاة أخرى؟ بأن قالت له عبارة ظل يرددها أمامي كحكمة، يجب أن نتنبه إليها.

قالت له الدكتورة منى: «منصور... نحن لا ننسى الذين رحلوا أو غابوا... لكن مع مرور الأيام نتوقف عن أن نحبهم»!

- لم تجبني يا محمد... ماذا تنوي أن تفعل؟

أعادني سؤال سمية إلى مصيبتي، ولأنني لا أملك إجابة، فقد اكتفيت بمط شفتي إلى الأمام تعبيرًا عن قلة حيلتي، ولكن منصور حاول أن يخفف من مناخ الكآبة، الذي جثم فوق نفسي هاتفًا:

- لا تقلق... دبي تحتشد بفرص العمل... وعلينا أن نسعى حتى تظفر بوظيفة، ثم ... أن...

فجأة، حدثت جلبة في المقهى، أوقفت منصور عن متابعة الكلام، حيث دخل مجموعة من الشباب المصريين دفعة واحدة وبصحبتهم أصدقاء من فلسطين وسوريا ولبنان، ولكنهم كانوا قلة على أية حال، واتخذوا أماكنهم أمام التلفزيون بهمة ونشاط وهم يتصايحون، ثم تبعهم مجموعات أخرى متفرقة، كلها من المصريين الذين جاءوا ليتابعوا مباراة الأهلي والزمالك في الدوري كما أخبرنا الجرسون. لم أكن من المهتمين بشؤون الكرة ونجومها، كما أن منصور ابن خالتي كان يكتفي برصد أحوالها من دون الإفراط في متابعتها!

انطفأ صوت أم كلثوم فجأة بعد أن قالت «الاقي قلبي أنا حبه ما جه على بال... لا عن هواك له غنى ولا يوم لغيرك مال». بعد ذلك مباشرة انطلق معلق رياضي بصوت مرتفع من شاشة التلفزيون؛ ليتحدث مع خبراء رياضيين عن تصورهم للقاء المزمع وإمكانيات الفريقين وخطط المدربين!

الصخب الذي أحدثه رواد المقهى جعل سمية الأبراشي تشعر بارتباك واضح، فطلبت أن ننصرف، ولكن منصور أعاد لها هدوءها، وهو يمسك يديها قائلًا:

- لا تقلقي يا حبيبتي؛ فلنذهب إلى تلك الزاوية بعيدًا عن التلفزيون!

ثم أضاف باسمًا:

- المصريون هم هم في كل مكان... في القاهرة مثل دبي... مهووسون بالأهلي والزمالك!

- وأنت؟

سألته سمية بلهفة أثناء تحركنا نحو زاوية بعيدة في المقهى، لم تمنع الضجيج من أن يصل إلى مسامعنا، ولكنه كان أخف بدرجة كبيرة. بدت سمية كفراشة ملونة وسط غابة من الشوك، وهي تسير بأناة خلف منصور نحو الزاوية، لم تكن هي الفتاة الوحيدة في المقهى، بل كانت هناك فتاتان روسيتان، على الأغلب، جلستا مع رجل يرتدي الزي الشائع للمواطنين الإماراتيين، المكون من جلباب أبيض وغترة وعقال!

كما كانت هناك امرأتان مصريتان ترتديان الحجاب وتدخنان الشيشة بصحبة رجلين يبدو أنهما زوجاهما وأصوات الأربعة العالية كانت تشي بجنسيتهم! ومع ذلك، لاحت سمية الأرق والأجمل، نظرًا لأن المرأتين المصريتين كانتا بديتين بصورة لافتة، بينما الروسيتان قد تكونان بائعات هوى لأن مكياجهما كان صارخًا!

لم يكتف منصور بالرد على سؤال حبيبته بشأن كرة القدم، بل راح يشرح بحماس ما كنت أعرفه منه سلفًا، من أن على المرء المشغول بقضايا أمته أن يهتم بما يشغل بال الغالبية العظمى من الشعب، حتى لو كان لا يوافق ذوقه، أو لا يميل إليه؛ حتى يتسنى له معرفة المزاج العام للجماهير التي

يكافح من أجل التواصل معها والتأثير فيها! ظل منصور يتحدث في هذه المسألة باستفاضة، وكأنه يريد أن يوضح تمامًا لحبيبته الجديدة التي لا تعرف القاهرة إلا من خلال زيارتها في إجازة الصيف، إذ إنها جاءت مع أبيها إلى دبي، وهي طفلة لا يتجاوز عمرها خمس سنوات! يريد أن يوضح لها عالم الكرة في مصر وصراعاته وفضائله، ولكنها قاطعته فجأة وهي تضحك:

- لم تجبني بعد... هل أنت أهلاوي أم زملكاوي؟

بسرعة جاوب على سؤالها:

- أهلاوي طبعًا.

ثم أكمل حديثه عن سبب انحيازه للأهلي؛ «لأنه نادي الفقراء والبسطاء المصريين منذ إنشائه، أما الزمالك فهو نادي الأرستقراطية والبورجوازية المصرية».

لاحظت أن منصور لم يتوقف عن استخدام المصطلحات اليسارية، التي صدع بها رأسي قبل أن يأتي إلى دبي، وبالتحديد منذ التحاقه بالجامعة وارتباطه بمنظمات يسارية سرية. وقد ظننت خطأ أنه ألقى بهذه المصطلحات، التي جرجرته إلى المعتقل مع المرحوم بدر المنياوي من نافذة الطائرة، التي أقلته من القاهرة إلى دبي، ولكن يبدو أنه لم ينس ولم يتعظ!

- ألا يعتريك الضجر من المفردات اليسارية يا منصور؟

فوجيء بسؤالي ونبرة صوتي المحتجة، فتوقف عن تدخين الشيشة، ونظر إليّ مندهشًا وهو يضع «لاي» الشيشة جانبًا. ندمت لأنني سألته فقد كنت مستفزًا منه في هذه اللحظة، فأبعدت عيني نحو الكتلة البشرية، التي تحدّق في التلفزيون ذاهلة وكأن على رؤوسهم الطير، ولكن سمية أفلتتني من نظرة عينيه وهي تضحك، وتشير نحوي:

- أنت أيضًا... تنزعج من «البورجوازية والإمبريالية والبروليتاريا».

دهشة منصور من كلامي انقلبت فجأة إلى ضحكة رائقة وصافية، فازداد وجهه إشراقًا وبهاءً؛ الأمر الذي دفع سمية الأبراشي إلى أن تنظر إليه بتدله لم تتمكن من كتمانه، أو لم تخجل من الإفصاح عنه، وهي تمسك يده بكلتا يديها بفرح زوجة في طور الإعداد!

- يا حبيبتي... هذه مصطلحات علمية، تشرح بوضوح أوضاع الصراع الطبقي في الـ..

- هه «الصراع الطبقي»... مازلت تردد المفردات نفسها!

قالت سمية ذلك صارخة وكأنها ضبطته متلبسًا بجريمة، ولكن ابتسامتها الحانية لم تغادر شفتيها حتى وهي تبدي احتجاجها على تعبيرات منصور، الذي عاد إلى ضحكته، أو عادت إليه ضحكته، وكأنه نسي ملاحظتي، وظل يوجه حديثه نحو سمية الأبراشي، بعد أن اعتدل على مقعده ليصبح مواجهًا تمامًا لها قائلًا:

- يا حبيبتي... أنا لا يهمني في هذه الدنيا إلا أن يزول الظلم، ويتحقق العدل بين الناس، لا يهمني إلا أن يُنصف الفقراء في بلدي مصر، وفي العالم كله!

- وأنا أيضًا أحب الفقراء وأعطف عليهم.

تحولت نبرة سمية إلى الجدية وهي تتحدث بهذه العبارة، ولكنني ابتسمت بيني وبين نفسي وأنا أتعجب من تعليقها على منصور «ماذا تعرفين أنت عن الفقراء يا سمية؟ أسرتك تمتلك ڤيلا في مدينة 6 أكتوبر وأخرى في المعمورة بالإسكندرية، لا تقيمون فيهما أكثر من شهر كل عام، بينما تقطنون ڤيلا فاخرة هنا في القصيص، فأين أنت من الفقر يا ابنة المهندس الكبير والطبيبة الناجحة؟ إن سيارتك المرسيدس قابعة في الموقف أمام المقهى الآن، فكيف تتحدثين عن الفقر؟ هل سمعت يا سمية عن شبرا الخيمة؟ هل تجولت مرة في حواري وأزقة دمنهور شبرا؟ هل ركبت مرة أوتوبيس 26 أو 913... أو حتى ميكروباص المؤسسة أو المظلات؟ هل انتظرت مع المنتظرين، ثم انحشرت مع المنحشرين، وسال منك عرق ذي رائحة كريهة، وأنت تحاولين الانفلات من تكدس البشر؟ أو عصفت بأنفك الدقيق روائح البسطاء والمحتاجين، الذين تكوموا داخل الأوتوبيس، وهم يلعنون الزمن والأيام والحكومة؟

لقد صدق منصور حقًّا وهو يقول لي إنه مرتعب من ثرائك الفاحش، وأنه يخشى عليك من فرط رقتك وأموال أسرتك، ولكن الغريب أن منصور مازال يكرر كلامه عن الفقراء وانحيازه لهم وكأنه مازال يقطن في دمنهور؟ أين أنت الآن من الفقر يا منصور؟ لقد ذقت لذة النعيم في دبي، وامتلكت سيارة ما كان أبوك مدرس التاريخ الجليل يحلم بأن يقتني عشرها؟ تتحدث عن الفقر يا ابن خالتي... ترى كم أصبح رصيدك في البنك الآن بعد هذه السنوات يا ابن شبرا الخيمة؟ وكم حصدت من سنابل

المجد كصحفي لامع؟ لقد كان أمجد صفوان محقًّا، وهو يؤكد لي «المال سر السعادة... والكل يأتي إلى دبي ليصنع السعادة»!

كلهم مغمورون بالحبور إلا أنا، المطرود من وظيفتي والذي لا أعرف كيف سيمضي بي الزمن هنا، بل لا أعرف أين سأبيت بعد أيام، عندما أترك شقة كارفور».

«أوه.. جووول» .

أفقت من شرودي على صيحات رواد المقهى التي انطلقت دفعة واحدة كسيل انهمر من السماء فجأة، لقد أحرز الأهلي هدفًا أهاج أتباعه وأطربهم، فوصلنا - نحن الذين نجلس في الزاوية بعيدًا - صخب شديد أفسد علي شرودي، وأربك العاشقين اللذين مازالا يتحدثان عن الفقراء والصراع الطبقي!

قام منصور مسرعًا ليشاهد إعادة الهدف، ثم عاد وهو يطلب من الجرسون تجديد نار الشيشة، وأن يحضر لنا شايًا آخر!

- متى ستنصرف... يبدو أنه لن يأتي!

سألته سمية وهي تنظر في ساعتها، ثم عبثت بكوب الشاي الفارغ بيدها، حيث كانت تنقر عليه نقرات متفرقة بأظافرها، محدثة صوتًا ناعمًا ورقيقًا.

نظر إليها منصور مبتسمًا، وهو يقول لها بحسم:

- لا... عبد الله راشد ملتزم دومًا بمواعيده!

ثم جذب نفسًا عميقًا من الشيشة، تاركًا إياي حائرًا أتساءل: مَنْ عبد الله راشد هذا؟

***

19

عبد الله راشد

أول مـرة رأيـت فيها عبد الله راشـد كذبـت عليه... سـألني أين تعمل؟ فقلت: في كارفور، على الرغم من أنني اسـتلمت رسـالة إنهاء خدمتي من ابن الكلب موسى الوحش في صباح ذلك اليوم.. آنذاك صوّب منصور ابن خالتـي رصاص عينيه نحوي مندهشًـا مـن قدرتي على الكذب، أما سـمية الأبراشـي التي كانت على وشـك الانتهاء من كوب الشاي الثاني، فقطبت جبينها احتجاجًا على كذبتي، التي لم تجد لها تفسـيرًا.

وقـد قالت لي ذلك فيما بعد مؤكدة «إن إنهاء الخدمة أو حتى الطرد من الوظيفة ليس سُبّة، يداريها الإنسـان أو يخجل منها».

أمـا منصـور فقد ظل يضـرب كفًا بكف، بعـد انصراف عبد الله راشـد، متهمًا إياي بأني إنسـان غريب ومن الصعب تعليل سلوكي!

لم أشـأ أن أرد عليه، ولكن سـمية الأبراشـي التي أيدت كلامه، راحت تخفف من حدته تجاهي هامسـة بصوت سمعته جيدًا:

- دعه وشأنه اليوم.

لم يجلس عبد الله راشد معنا في مقهى «ذكريات» سوى نصف ساعة فقط، بدأها باعتذار عن تأخره عشر دقائق بسبب حادث فوق جسر المكتوم عطّل المرور، ثم تناول قهوة تركي سادة من دون رغبة كبيرة، وهو يقرأ بصوت رخيم آخر قصائده التي أعجبت منصور وسمية كثيرًا... وقد وعده منصور بأن يطلعها على الأستاذ صلاح الغندور غدًا؛ لتنشر في الملحق الثقافي الأسبوع القادم.

كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي أجلس فيها مع مواطن إماراتي، على الرغم من أنني قضيت أكثر من عامين في دبي، كنت أرى خلالها الإماراتيين، وهم يتسوقون في سيتي ستر دبي، خاصة الشباب منهم الذين يطلقون شعورهم لتصل حتى الكتفين، كانوا يرتدون زيهم المحلي المعتاد، والمكون من جلباب أبيض يقال له «كندورة» وغترة بيضاء أيضًا وعقال، أما أقدامهم فتستقر داخل «شبشب» جلد، ونادرًا ما كنت أرى أيًا من هؤلاء الإماراتيين - كبارًا أو صغارًا - ينتعلون حذاء من أي نوع!

كنت أسمع عنهم أنهم طيبون، بل أطيب أهل الخليج كافة، يشاركهم في ذلك العمانيون. وكنت أستشعر هذا الأمر من خلال متابعتي لهم، وهم يتجولون في سيتي ستر، على الرغم من أن أعدادهم كانت قليلة جدًّا، بالقياس إلى كثافة الذين يرتادون المركز التجاري الضخم!

كانوا يتحركون بهدوء وبطء، يؤكد خلو بالهم من الهموم وحسن سلوكهم ورقتهم؛ وكان هذا البطء أو ذلك الهدوء في حركتهم يغيظني أحيانًا، فكان منصور يفسر لي السبب نقلًا عن الأستاذ صلاح، بأنهم

مرتاحون ماليًا، وأن القيظ الشديد هنا عوّدهم على هذا الإيقاع الهادئ، حتى لا يتعرقون والماء شحيح في الصحراء!

مع الوقت كنت أعتاد على مرآهم وإيقاعهم البطيء، بل كنت أحب أن أتلصص أحيانًا عليهم، فأسترق السمع ماذا يقولون إذا مرّوا أمامي في قسم الهواتف؟ وماذا يأكلون إذا ذهبوا إلى ركن المطاعم الضخم في سيتي ستر؟ فكان الفتيان منهم، مثل كل فتيان العالم الآن، يهرعون نحو مطاعم الوجبات الأمريكية السريعة مثل الكتاكي وماكدونالدز.

أما نساؤهم وفتياتهم، فكنت أراهن يتجولن في سيتي ستر بهدوء، يفوق هدوء رجالهن وفتيانهن! وكن يرتدين العباية السوداء «الجلباب»، بينما يضعن فوق رؤوسهن قطعة من قماش حريري تسمى «الشيلة»، تشبه الحجاب عندنا في مصر، بعضهن يبالغن في إحكام هذه «الشيلة» حتى لا تظهر من تحتها شعرة واحدة من رؤوسهن، وبعضهن يتراخين في ضبطها، فتنسدل شعورهن الناعمة فوق جبينهن فيرفعنه بلفتات ناعمة وساحرة!

في الليلة التي كنبت فيها على عبد الله راشد، كنت أراقبه وهو يلقي علينا قصيدته التي كان يحفظها عن ظهر قلب، فلم يستعن بورقة يقرأ منها، بل صافح منصور وسمية بود يؤكد معرفته بهما جيدًا، ثم صافحني باحترام، ومنصور يخبره بأننا أولاد خالة.

سأله منصور ماذا يشرب، فاعتذر شاكرًا، ولكن مع إلحاح منصور: قال عبدالله راشد من دون حماس: قهوة!

لاحظت أنه يتحدث معنا بلهجة مصرية، وإذا اضطر أن يستخدم مفردة محلية، سارع وأتى بما يقابلها في لهجتنا، وهو يتبسم.. بدا لي من ملامحه الهادئة وعينيه الناعستين وصوته الخفيض أنه شخص مزوّد بقلب رحيم، أنفه الكبير بصورة ملحوظة لم يكن منفرًا، بل يمكن الاعتياد على رؤيته، وفق تناسق وجهه الممتلئ قليلًا. كان عبد الله راشد من الذين يهتمون بتشذيب شواربهم ولحاهم، لذا يمكن القول بأنه شاب وسيم وأنيق؛ خاصة أن جلبابه الأبيض لاح لي كأنه خارج من تحت المكواة توًّا. لم أتمكن من تحديد عمره، فالغترة والعقال يخدعان الرائي، إذا لم يكن متعودًا عليهما! ولكن أكثر ما أثار انتباهي أثناء جلوسنا في المقهى في تلك الليلة هو هذا الأريج المنبعث من الرجل، لم أشم رائحة مثلها من قبل، كانت رائحة فوّاحة ومنعشة على الرغم من هدوئها، الحق أقول لكم: لقد أنست له ولملامحه وعطره وصوته الرخيم.

فور الانتهاء من قراءته لقصيدته، رنّ الموبايل الخاص بي، كانت هند، فاستأذنت بحركة لا إرادية من رأسي وخرجت من المقهى مسرعًا بعيدًا عن الصخب. كنت قد اتصلت بها في الظهيرة، عندما طردني موسى الوحش لأخبرها بأحوالي ومصيبتي، فلم ترد. قلت لها ما حدث وكيف أنهم أنهوا خدماتي، فلعنت أمهاتهم بأقذع السباب التي تعودت عليها، بعد أن كانت تخجلني في البداية جرأتها في استعمال مفردات غاية في البذاءة، ثم هتفت مواسية لي: «لا تحزن... الأرزاق على الله»، واتفقنا على أن نلتقي غدًا.

حين عدت إلى مجلسي في المقهى، كان عبد الله راشد يخرج من جيبه ورقة، كتب فيها قصيدته وناولها لمنصور، ثم راح يوجه سؤالاً إليه وإلي سمية، وهو يبتسم:

- متى سنشرب «الشربات»؟

قالها بلهجة مصرية صحيحة، فأيقنت آنذاك أنه على علاقة طيبة بمنصور على الأقل، وعندما جاوبه منصور، وهو يرمق حبيبته بنظرة حالمة بأنه قريبًا سيشرب «الشربات»، نظر نحوي، كأنما يراني لأول مرة، وسألني:

- أين تعمل يا أستاذ محمد؟

على الفور كانت إجابتي جاهزة:

- في كارفور.

لا أعرف لماذا كذبت عليه حينئذ.. ربما لم أشأ أن يراني عاطلاً في أول لقاء بيننا، فيشفق على حالي أو ربما حاولت أن أبدو أمامه أنني إنسان ناجح، مثل منصور ابن خالتي الذي يعامله باحترام، أو ربما خرج مني الجواب من دون تفكير وبحكم العادة! لا أدري!

لكن التقريع الذي صبه على رأسي منصور ابن خالتي، لأني كذبت على الرجل الشاعر، لم يشعرني بالندم، أو بالذنب آنذاك، بل جعلني أشعر بغصة وحرج فيما بعد، حين تعرفت على عبد الله راشد أكثر؛ لأنه كان الوحيد في كل الإمارات الذي ساعدني بحق، فلا منصور ابن خالتي ولا صلاح الفندور ولا هند المغربية ولا أمجد صفوان ولا أي أحد مدّ لي

يد العون، مثلما فعل عبدالله راشد. عندما وصلتني ونحن نجلس جميعًا على مقهى ذكريات، بعد ذلك بأسبوعين، رسالة على الموبايل من أختي ثريا مكونة من كلمتين اثنتين فقط زعزعت كياني كله، حتى أن عبد الله راشد لم يستح، وهو الذي لم يعرفني بعد كما ينبغي، أن ينهض ويحتضنني بقوة، ثم يربت على كتفي برفق، مثلما فعل منصور والأستاذ صلاح، وهو يهمس بصوته الرخيم:

- شد حيلك... البقية في حياتك.

كانت رسالة ثريا تقول:

«بابا مات».

***

20

سيؤول

طوال حياتي كنت مسكونًا بيقين كبير بأن اشتداد الأزمات على المرء يعقبه دومًا انفراج وانفتاح، وأنه ليس من العدل أن يتركنا الله هكذا نهبًا لمشكلات عويصة تضعضع منا الروح، وتفسد علينا الحياة، وهو الذي قال في قرآنه الحكيم «إن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا».

هذا الإيمان بأن فرج الله قريب هو الذي حماني من الانهيار النفسي من جرّاء قسوة أبي وشتائمه لي منذ طفولتي المبكرة، وهو الذي حماني أيضًا عندما لم أجد عملًا في مصر إلا بشق الأنفس، على الرغم من أنه كان عملًا وضيعًا... مجرد «قهوجي»! وهو الذي هدّأ من روحي حين طردني موسى الوحش من وظيفتي، في صباح يوم لعين، وهو الذي ثبّت من عزيمتي حين قبضوا على هند بتهمة الاتجار في المخدرات، بينما حقيبتها المليئة بالحشيش ساكنة في دولابي! بل هذا الإيمان نفسه هو الذي ضبط أعصابي ووقاها من الانفلات، حين وضعوني في سجن دبي مع أمجد صفوان بتهمة قتل إيرينا الروسية!

الأغـرب أن إيماني بقـدرة الله هو الذي نجّاني من تدمير نفـسي هائل، كاد يعصف بكياني كله، وأنا أرى ذكورتي مستباحة، ولا فائدة منها، على أسرّة هند وإيرينا وسوما، بل هو الـذي أعاد إليّ ذكورتي، أو أعادني إلى ذكورتي، فاستطعت أن أضاجـع زوجتي، كما يفعل الرجال بالنساء، بعد عذابات نفسية دامت ستة أشهر، منذ ليلة زفافنا قبل عام!

هـذا الإيمـان بقدرة الله على نجدتي دومًا، كان محط سخرية لاذعة من منصور، فأنتم تعلمون أنه لم يكن من المؤمنين. ومع ذلك كان شـديد الحذر، عند انتقاده لسلوك المتدينين، أو بالأحرى حين يرى الناس منصاعة لأقدارهـا بحجـة أن هذه إرادة الله. وكان لا يعتريه يأس أبدًا من تفنيد هذه الأفكار المستكينة والآراء الانهزامية كما كان يسميها!

كنت أنصت إلى اتهاماته الموجهة نحو هذه الأفكار بتركيز شديد؛ حيث كان يؤكـد أن معظم السلوكيات والآراء المتخلفة، والتي ترتدي مسـوح الدين هي وليدة فكر شائع في هذه المنطقة، وكان يقول إن المصريين الذين جرحتهم هزيمة 1967، والذين أضناهم الفقر والعوز؛ فـسافروا إلى منطقة الخليج هم الذين عـادوا بهذه الخرافات والخزعبلات باسـم الدين، حتى أنهم فرضوا على نسـائهم زيًّا يعود إلى قـرون خلت، معتبرين أن الحجاب رمز للإسلام! وهو اختزال - كما يقول ابن خالتي - مرفوض!

كنت أدرك أيضًا أن كلام منصور لا يعود إلى قناعاته الفكرية فحسـب، بل إنه تأثر بآراء اثنين أكبر منه سنًّا، هما المرحوم بدر المنياوي في القاهرة، والأستاذ صـلاح الغندور هنا في دبي. وكنت أحاول مجابهته وتفنيد

آرائه قدر طاقتي، وأشهد أنه كان قوي الحجة والبراهين، يسألني أسئلة لا أملك إجابة لها، فاستعذ بالله وألوذ بالصمت، فيضحك هو ساخرًا من جهلي وتديني الفج كما كان يسميه. ولا أنسى أن أحرجني مرة أمام سمية الأبراشي - التي أظن أنها تشاطره الأفكار الجريئة نفسها - حين سألني من دون داع:

- محمد... لماذا لا توجد دولة إسلامية متقدمة؟

كنا نتناول العشاء في مطعم دانيال الكائن في مركز مزايا في شارع الشيخ زايد، وكان قد عودني دومًا على أن يدعوني إلى مثل هذه العزائم، بين حين وآخر من باب الكرم، ورفقًا بحالي وراتبي الضعيف - وقد حاولت مرة أن أتولى أنا دفع الحساب، فرفض بشدة من دون أن يتخلى عن ابتسامته الوضيئة هاتفًا:

- ألا تستحي... نحن أبناء خالة وأصدقاء، وأنا أعلم تمامًا مقدار راتبك يا محمد.

- ولكن.

بحزم قال لي:

- انتهى الأمر... أنت ضيفي في أي مطعم أو مقهى، مادمنا في دبي.

لم يكن هذا الكرم غريبًا عليّ، فطوال علاقتنا كان منصور يمتلك من المال أكثر مني بكثير، وكان لا يجد أي غضاضة في أن يقرضني بعضًا منه، من دون أن يحاول استرداده مرة أخرى، وقد زاد هذا السخاء وذاك الكرم معي عندما جئت إلى دبي، وعند دخولي السجن، بعد أن ذاق منصور لذة

المال الوفير.. صحيح أنه ساعدني غير مرة بمبالغ متوسطة، ولكنه رفض أن يستردها حين حاولت، كما رفض تمامًا أن أتولى دفع الحساب في أي مطعم أو مقهى.

عندما سألني في مطعم دانيال عن السبب في عدم وجود دولة إسلامية متقدمة، لم أجد إجابة، لأني لم أفكر في هذا الأمر من قبل، فقلت كلامًا أدرك أنه معتاد ومكرور، وأنه سيدحضه على الفور، قلت:

- لأننا ابتعدنا عن ديننا.

- ولماذا ابتعدنا عن ديننا؟

مرة أخرى لم أجد إجابة، فقمت بحجة أنني سأحضر لنفسي المزيد من الأرز واللحم مادام «البوفيه» مفتوحًا.. كنت أقول ذلك وأنا أبتسم، وحين عدت قذفني منصور بسؤال ثالث، قبل أن أضع الأرز في فمي:

- هل رأيت أمة متقدمة تضع نساؤها حجابًا فوق رؤوسهن؟

هنا ضحكت سمية الأبراشي بشدة، فلاحت أسنانها البيضاء المنتظمة كلآلئ مضيئة. قلت مستفهمًا، وأنا أتلذذ بطعم الأرز الإيراني المخلوط باللحم:

- ماذا تقصد؟

ازدرد منصور قطعة بطيخ، وهو يشرح ما غمُض عليّ:

- الحجاب ليس مجرد زي تضعه المرأة، بل هو تعبير عن رعب من كل ما هو جديد، فالتي تداري شعرها، تغلق عقلها أيضًا وتعطله عن التفكير والتأمل.

لـم يعجبنـي كلامـه، فصرخـت بصـوت، انتبه لـه الجالسـون حولنا في المطعم، فالتفتوا نحونا مندهشين:

- يا سلام!

انبرت سـمية الأبراشـي للدفـاع عن أفـكار منصور، وقـد لاحظت أنها تـأكل على مهـل وكميات قليلة، ولعـل ذلك ما جعلها تتحـرك داخل قوام متناسق ورشيق!

قالت سـمية بحماس وبإيقاع صوتي سـريع «إن الحجـاب إهانة للمرأة وللرجـل معًا... ذلك أنه يختزل المرأة إلى مجرد شـيء مثير للرجل، وهذا خطـأ، فالمـرأة كائـن حر له عقـل وفكر، كمـا أن الرجل الذي يـرى المرأة مجـرد جهاز إشـعال لغرائـزه؛ فهو يهين نفسـه ويحوله إلى حيـوان يلهث، خلف تلبية رغباته الجنسـية ليس إلا... ثـم أنه ليس من المعقول أن جداتنا نزعـن الحجاب مع ثورة 1919؛ أي قبل أكثر من 80 سـنة... لتدخل المرأة معتـرك الحياة، فتتعلم في المدارس والجامعات، وتصبـح طبيبة ومهندسـة ووزيـرة وسـفيرة وعالمـة.. ثم يأتـي الآن من يقول لها ضعـي الحجاب... فشعرك عورة... والأفضل أن تعودي إلى البيت».

كانـت سـمية تتحـدث بغضب حقيقـي... وكانـت حروفها من سـرعة أدائها تتعثر على شـفتيها أحيانًا، كما أن حركة رأسـها أثناء كلامها أسـقطت خصـلات من شعرها على جبينها وعينيها.

منصـور، الذي قام ليحضر لنفسـه مزيدًا من البطيخ الذي يعشقه، عاد مع نهاية الكلام ليوقفها بإشارة من يده، وهو يسـألني غامزًا بعينه اليسـرى:

- قل لي بصراحة يا محمد... هل ما يثيرك في المرأة شعرها... أم أن هناك أشياء أخرى؟

أدهشني سؤاله وأربكني، أما سمية فغمرها خفر البنات الذي أشعل خديها حمرة، فنظرت إليه معاتبة برفق، ثم حاولت أن تبدو كما لو كانت مشغولة بالطعام، وهي تنظر في الطبق الذي أمامها عابثة بأدوات المائدة.

«تسألني ما الذي يثيرني في المرأة؟ آه لو تعرف يا منصور حكايتي بأكملها مع النساء! لقد رأيت كل شيء يا ابن خالتي... رأيت الشعر والعنق والنهد والبطن والفرج والفخذ والعجز والمؤخرة.. كل شيء رأيته ولمسته، وما استطعت إلى النساء سبيلًا... آه لو تعرف مأساتي يا منصور، ما سألتني هذا السؤال».

- أليست «الأشياء» السفلية... هي ما تثيرنا يا محمد نحن معشر الشباب؟

أخرجني منصور من شرودي بهذه العبارة التي نطقها... وهو يضغط على حروف كلمة «الأشياء» حرفًا حرفًا، الأمر الذي دفع سمية الأبراشي لأن تقف فجأة وهي مرتبكة، من فرط الحرج. نظرت إلى منصور بغيظ مكتوم مخلوط بابتسامة قلقة، ثم انصرفت نحو البوفيه بحركة سريعة!

«الأشياء السفلية... وآه من عذابي من الأشياء السفلية يا منصور... كفاك كلامًا من فضلك... فالوجع يحاصرني من كل النواحي، فلا عمل، ولا امرأة ولا ذكورة. اصمت... أرجوك».

- هه... لم تخبرني: ما الذي يثيرك في المرأة؟

لـم أرد، لأن سـمية الأبراشـي ألقـت علـيّ سـؤالها، قبـل أن تصـل إلى المنضدة حاملة بعضًا من الفواكه:

- محمـد... ألم تفكر لحظـة... لماذا ينعم الغرب بلـذة التقدم، بينما نحن المسـلمون نقبع في ذيل القائمة، ونحن مرتاحون!

تناولت بعضًا من البيسي، بينما تولت سمية الإجابة عن سؤالها:

- المرأة هناك حرة... لا حجاب... ولا قهر ولا غيره... إنها تشارك الرجل في كل شيء... لذا تضاعفت الطاقة الخلاقة للمجتمع عندهم.

- ولكن الحجاب يا سمية... فرض أمر به الله النساء بارتدائه في القرآن الكريم.

تدخل منصور، وهو يضع الشوكة في طبق البطيخ بحدة هاتفًا:

- أتحدى أي إنسـان أن يسـتخرج لي سـورة من القرآن تبشـر، التي ترتدي الحجاب بدخول الجنة، وتنذر التي لن تضعه بمصير جهنم!

فاجأني كلام منصور، ولأني لا أحفظ من القرآن الكريم إلا أبسـط السـور وأصغرها، فلم أجرؤ على مواجهة التحدي، ولكني سألته:

- هـل شـيوخ الدين الذيـن يؤكدون علـى أن الحجاب فرض علـى المرأة لا يعلمون ذلك؟

كنـت أعـرف أن منصور قارئ نهم للقرآن، وأنه يحفـظ الكثير من آياته، لا من باب التدين، بل كما كان يقول لي: «حتى أعرف سر إيمان الناس به، وحتى أتعلم منه فنـون البلاغة العربيـة»، كما أنه قرأ الأناجيـل الأربعة في

العهد الجديد، علاوة على العهد القديم... كنت أعرف كل ذلك؛ لذا حين سألته عن الشيوخ ومدى معرفتهم بالحجاب، كنت أدرك أنه سيتهمهم بالجهل أو النفاق.. لكنه حين بدأ يرد، رن هاتفه، فعرفت من حفاوته بالمتصل به أنه الأستاذ صلاح الغندور، الذي دعانا إلى مقهى «ذكريات» فورًا، ليحكي لنا مشاهداته في كوريا الجنوبية، التي زارها لمدة عشرة أيام وعاد منها فجر اليوم.

حاولت سمية أن تعتذر عن الذهاب معنا؛ لأنها قد تتأخر عن العودة إلى منزلها، ولكن من دون جدية كبيرة، وفي نهاية الأمر أقنعها منصور بالجلوس فترة ثم الانصراف. التقينا جميعًا في «ذكريات»، حيث فوجئنا بالأستاذ صلاح قد سبقنا ومعه عبدالله راشد، صافحني صلاح الغندور بحرارة، وهو يقول:

- لم نرك منذ زمن... سنعد لسهرة قريبًا... وأنت أول المدعوين.

- وأنا؟

هكذا تساءل عبد الله راشد ضاحكًا:

- أنت صاحب بيت أيها الشاعر الجميل... لا تحتاج إلى دعوة!

بدا الخجل واضحًا على عبدالله، الذي ظل يتمتم بعبارات شكر، تؤكد امتنانه للأستاذ صلاح الذي منحه فرصة لنشر قصائده والظهور بقوة كشاعر إماراتي شاب، يمتلك موهبة حقيقية.

كان المقهى هادئًا إلى حد ما، فرواده قليلون في هذا الوقت من الصيف القائظ، والرطوبة الخانقة لا تشجع الناس على الخروج من منازلهم بعد

العودة من العمل. وقد تهادى صوت أم كلثوم في خلفية المكان، وهي تتساءل: «جددت حبك ليه.. بعد الفؤاد ما ارتاح؟».

يجب أن أعلن لكم بصراحة أنني من أشد المعجبين بأناقة الأستاذ صلاح، فما من مرة رأيته فيها، إلا ولفتت انتباهي هذه القدرة في انتقاء ملابسه؛ حتى يبدو في كامل بهائه.

في تلك الليلة مثلًا كان يرتدي جاكت أبيض سبور من الكتان، تحته قميص أزرق نيلي، وبنطلونًا كحليًا، فبدا لي أنه من نجوم السينما أو الإعلام، الذين لا نراهم إلا على الشاشة فقط.

فور جلوسنا أخرج الأستاذ صلاح من حقيبة ورقية أنيقة، كانت معه، هدايانا التي أحضرها من كوريا الجنوبية، وكانت كلها عبارة عن تماثيل خشبية لبوذا في أوضاع وأحجام مختلفة، لكنه وهب منصور وسمية هدية إضافية عبارة عن تمثالين صغيرين من حجر لإلهين ذكر وأنثى، يرمزان إلى الخصب والنماء عند الكوريين القدماء، ثم قال لهما باسمًا:

- هيا... أسرعا وتزوجا حتى يرضى عنكما بوذا وآلهة الكوريين.

كانت سمية أكثرنا فرحًا بالهدايا، فظلت تتأمل بوذا الخشبي والآلهة الحجرية طوال الجلسة، أما أنا فكنت فرحًا لأن الأستاذ صلاح تذكرني بهدية، وإن كنت لا أعرف ماذا سأفعل ببوذا الجالس بجثمانه الضخم وابتسامته شبه البلهاء، فأنا على وشك الطرد من السكن خلال أسبوع ولا أعلم أين ستقذف بي المقادير، ولا ماذا سأفعل بأشيائي المتواضعة من ملابس وخلافه!

في هذه الليلة سرد لنا الأستاذ صلاح بحبور شديد مشاهداته في كوريا الجنوبية، حيث قال إنهم شعب مهذب جدًا وعملي جدًا، موضحًا أنهم كانوا من أفقر ثلاث دول في آسيا عام 1961، والآن هم من أغنى عشر دول في العالم، وأن متوسط دخل الفرد يزيد عن 22.500 دولار سنويًا، في حين أن متوسط دخل الفرد في مصر مثلًا لا يتجاوز 1200 دولار سنويًا فقط! فقاطعه منصور ضاحكًا «أي إن الإنسان الكوري يساوي 20 مصريًا». ضحكنا جميعًا باستثناء الأستاذ صلاح، الذي اكتفى بابتسامة مجاملة أطلقها في وجه منصور، ثم أكمل حديثه عن الكوريين شارحًا لنا مدى افتتانهم بالزهور، التي يتكرون منها أشكالًا مدهشة على شكل بشر وطيور وفراشات إلى آخره، يزينون بها شوارعهم وطرقاتهم؛ الأمر الذي يجعل السير في الطرق العامة مسألة ممتعة للبصر؛ خاصة أن المناخ هناك مسالم والهواء نقي ينعش الصدور!

كان الأستاذ صلاح الغندور يتكلم بحماس بيّن لدرجة أنه نسي أن يتناول الشيشة، فوضعها جانبًا حتى لا تعطله عن مواصلة الحديث. أما نحن، فكنا منبهرين بما يقوله العائد من سيؤول، خاصة وأن الأستاذ صلاح يتحدث بصوت رخيم يسر الأذن ولغة جزلة بسيطة وشائقة، حتى أننا لم نشعر بطعم ما نتناوله من شاي أو شيشة، حتى وصل في كلامه عن الدستور الكوري، فنظرنا له شاخصين!

قال الأستاذ صلاح: إن الكوريين الجنوبيين الذين وصل عددهم إلى نحو 50 مليون نسمة، ويعيشون في مساحة صغيرة جدًا، تكاد تماثل مساحة

شبه جزيرة سيناء... هذا الشعب المكافح والدؤوب تمكن من وضع مادة في الدستور، لا أظن أن لها مثيلًا في أي من دساتير العالم.

ثم سكت الأستاذ فجأة، وراح يتناول رشفة من الماء أعقبها بمثلها من الشاي، بعد ذلك مرّ بعينه على وجوهنا جميعًا، متأملًا لهفتنا في معرفة نص هذه المادة؛ حيث كانت عيوننا كلنا مصوّبة نحو فمه تنتظر، ولكن منصور لم يطق صبرًا فبادره هاتفًا:

- ما هذه المادة يا أستاذ صلاح؟

- صبرًا... لقد جفّ ريقي... سأواصل فورًا.

اعتدل الأستاذ صلاح في مقعده، قبل أن يقول لنا: إن الدستور الكوري ينص على أن «على الدولة أن توفر لجميع المواطنين حق التمتع بالسعادة»! ثم صمت وكأنه يختبر مدى شغفنا واهتمامنا بما قصّه علينا!

قبل أن ينبري عبدالله راشد للكلام، وزع عينيه بين منصور والأستاذ صلاح متعجبًا:

- ولكن السعادة نسبية... فكيف يمكن توفيرها؟

ابتسم الأستاذ صلاح برفق، وهو يربت على كتف عبد الله، ثم قال بصوت لا يخلو من شجن: «معك حق يا عزيزي، ولكن علينا أن نعي تمامًا أنه من المستحيل أن يكون هناك إنسان سعيد، وهو لا يجد عملًا أو مسكنًا لائقًا أو تأمينًا صحيًا أو مدارس صالحة لأبنائه... هذه هي المتطلبات الأساسية لأي مواطن، ومن دونها من الصعب أن يمسك بطائر السعادة، والدولة هناك توفر كل ذلك للجميع».

سكت الأستاذ صلاح، فانتبهنا إلى أم كلثوم، وهي تخاطب حبيبها «انتَ النعيم والهنا... انتَ العذاب والضنا»، فشرد كل منا مع نفسه مستعيدًا ما قاله الرجل، أما أنا فقد تحسرت على حالي، هناك يوفرون العمل والمنزل، وأنا هنا لا عمل ولا منزل، ثم خرج صوت منصور فجأة ليبدد سكون جلستنا، وهو يضحك:

- لو لم أكن مصريًّا لوددت أن أكون كوريًّا!

لم أر عبد الله راشد يقهقه كما رأيته في تلك اللحظة، فقد أعجبه التلاعب بشعار مصطفى كامل، وقد فاجأني أنه يعرف هذا الشعار، عندما سأله منصور إن كانت مرت عليه هذه العبارة أم لا؟

عدوى الضحك انتقلت إلينا جميعًا، حتى الجرسون الذي كان يرفع أكواب الشاي الفارغة نظر إلينا برهة، ثم شرع في الضحك. وقف منصور فجأة ليعلن بصوت مدوٍ:

- لقد قررت أن نقضي شهر العسل في كوريا.

تواصلت موسيقى الضحك مع نسمة خجل اعترت سمية الأبراشي، فجذبت منصور من قميصه برفق طالبة منه الجلوس، وهي لا تكاد ترنو إليه، ولكن الأستاذ صلاح نظر إليها مشجعًا:

- ما المانع.. سيؤول مدينة رائعة.

أوقف صوت الرسالة التي وصلتني على الموبايل إيقاع الضحك تدريجيًا، لكن حين قرأتها تغيرت ملامحي تمامًا، وانطفأ لون بشرتي فجأة... سألني منصور بقلق:

- ما الخبر؟

بصوت خفيض ومنكسر وحروف مهشمة، قلت له:

- أبي مات... إنها ثريا.

كل ما أذكره من وقائع تلك الليلة أنهم احتضنوني وطيبوا خاطري، وقدموا لي واجب العزاء بصدق، حتى عبد الله راشد شدّ على يدي بقوة، ثم ضمني إلى صدره، وهو يواسيني... أما منصور ابن خالتي، فقد أخذني لأبيت معه، من دون أن أعترض.. لكن النوم لم يداعب عيوني، لا في هذه الليلة، ولا في الليالي الطويلة والمخيفة التي قضيتها بعد ذلك!

***

21

الورطــة

شـعاع خجول من الضوء يتلصص علينا من النافذة الوحيدة في الغرفة، معلنًا قدرته على قهر عتمة الليل وإزاحتها إلى حين، بينما زقزقات العصافير بدأت تنهمر بقوة من فوق الشجر، الذي يحيط بالمكان إيذانًا بالإقبال على الحياة، والسعي نحو جلب الرزق!

أما أنا، فمازلت مصوبًا عيني منذ ساعات نحو سقف الحجرة الموحش، التي ألقوا بنا فيها قبل أيام فلا النوم يوافيني، ولا جفوني تطاوعني فتنغلق على همومها؛ فأنا مسكون برعب كبير مما ستقوله عني عزة سليمان عندما تعلم بما حدث .

لا أذكر بالضبط منذ متى جرجرونا إلى هنـا، مقيدين بأغلال من حديد «كلبشـات»، كأن عقلي توقف عـن العمل، أو كأن ذاكرتي سُحقت تحت عجل المصادفات البائسة، التي أودت بي إلى التهلكة أو تكاد!

وأمجد صفوان لا يفعل شيئًا منذ أن اختنقنا بهذا الكابوس، سـوى أن يبكي ويولـول ويلطم خديه مثل النســاء، أو ينام مهدودًا مكلـودًا من شـدة

التعب، بعد أن رددت جدران الزنزانة قسمه الدائم بأغلظ الأيمانات أنه بريء!

أما مايكل الفليبيني، فقد انزوى بعيدًا عنا، بعد أن صفعه أمجد على وجهه بقوة في أول ليلة لنا هنا، حين اكتشف أنه من الشواذ، يبحث عن رجل يدغدغ أنوثته المختبئة تحت جلد شاب أصفر!

لم يكن غيره موجودًا في الزنزانة حين قذفوا بنا داخلها، وعويل أمجد صفوان لا يتوقف، كأنه امرأة ثكلى فقدت ابنها فجأة، وعلى الرغم من أن رجال الشرطة عاملونا برفق شديد منذ أن ألقوا القبض علينا، إلا أن أحدهم لكزه بعنف في كتفه، آمرًا إياه أن يكف عن الصراخ والبكاء هاتفًا:

- اصمت... ألست رجلًا؟

شعرت أن عبارة الشرطي كانت موجهة لي، فأنا الفاقد للرجولة عندما يتعلق الأمر بمضاجعة النساء، حتى وكيل النيابة الذي سألني أمام جثتها المذبوحة عن علاقتي بها... فلم أنطق من هول الصدمة، فنهرني صارخًا:

- ألست رجلًا... تحدث وإلا كان الإعدام مصيرك!

لم أكن أتخيل لحظة أن أموري التي صارت أهنأ وأهدأ، بعد أن وفر لي عبدالله راشد وظيفة مندوب مبيعات في شركة الحبتور للسيارات براتب معقول جدًّا، يصل إلى 4000 درهم مع العمولات، وبعد أن نجوت من حقيبة هند الملعونة، وتخلصنا منها من دون أن يدري أحد، وبعد أن رفرف قلبي لأول مرة حول وجه عزة سليمان العبسوح.. لم أكن أتخيل أن أراني متهمًا هكذا في قضية مقتل إيرينا الروسية!

لعنة الله عليك يا أمجد... لماذا قبلت أن أذهب معك مرة أخرى إلى بيتها؟ ولماذا لم أحاول أن أعترض على الرغم من أني كنت أدرك جيدًا أنه بيت مشبوه، يلتقي فيه سارقو اللذة الجنسية وعشاق الخمر، فيشربون ويتناكحون من دون مواراة أو خجل! كنت أعرف، وكنت أمنّي نفسي بأنني يومًا عندما أرتاد هذا المكان، وأرى ما أرى وأشم ما أشم من روائح النساء الفواحة، وأتجرع الخمر بغير حساب... آنذاك ستتقد روحي ويشتعل جسدي، فأتمكن من امتطاء أي امرأة بصورة طبيعية، فلا يخذلني جسمي، ولا تخاصمني أعضائي، ولا يفضحني عجزي!

لعنة الله عليك يا أمجد... لماذا استجبت لك ولإغراءاتك في هذا الثلاثاء المرفوض، على الرغم من تحذيرات منصور ابن خالتي المتكررة... «الداعرات لن يحلّوا مشكلتك مع النساء»!

نعم... لقد أخبرته بكل شيء... حكيت لمنصور تفاصيل لقاءاتي الفاشلة مع هند المغربية وإيرينا الروسية وسوما الصينية.. كان مذهولًا وهو يسمع، لا يكاد يحوّل ناظريه عني وأنا أتحدث.. كنا قد عدنا منهكين ومضطربين، بعد أن تركنا حقيبة هند بمحتوياتها من الحشيش داخل حاوية قمامة على رصيف شارع جانبي مظلم في حي القصيص! كان منصور هو أول من رأى صورة هند مع آخرين تتصدر صفحة الحوادث.. كنت أتناول قليلًا من الجبن والخيار في منزله، بعد أن أقمت معه منذ طردني موسى الوحش من كارفور! استضافني منصور بكل كرم، وترك لي إحدى غرفتي شقته، بل حمل أغراضي القليلة في سيارته، وساعدني في ترتيب ملابسي داخل خزينة الحائط في غرفتي. ثم سألني عن حقيبة هند، فكذبت عليه،

وأخبرته أن بها بعض أوراقي الخاصة، على الرغم من أني نسيت ما قلته له حين رآها أول مرة، ونحن نجلس في المقهى أنها خاصة بصديق، فلم يعلق.

ظللت أكثر من ثلاثة أسابيع ضيفًا كريمًا على منصور، فكان يخصص لي وقتًا كل يوم ليصطحبني إلى الشركات والمؤسسات المختلفة للبحث عن عمل، لم يتبرم ولم ينزعج، بل كان مرحًا وعطوفًا ينصحني بألا أضجر وأن أصبر قليلًا؛ لأنني حتمًا سأجد وظيفة!

- دبي تحتشد بفرص عمل هائلة... فلا تيأس!

حتى جاء يوم الأحد المرعب، عندما رأى منصور صورة هند في صفحة الحوادث. كنت أتناول الجبن والخيار بمفردي، حين دخل منصور وألقى الجريدة أمامي، وهو يبدّل ملابسه قائلًا:

- أليست هذه الفتاة... من كانت تعمل معكم في كارفور؟

«القبض على عصابة تتاجر في المخدرات، مكونة من أفغاني وسوري ومغربية وباكستاني». قرأت الخبر بسرعة البرق، من دون أن أكمل قضم ما في فمي!

- يا نهار أسود.

هكذا صرخت وأنا أمعن النظر في صورة هند!

قمت مسرعًا إلى الدولاب، أخرجت حقيبة هند، تبعني منصور، وهو لا يدري ما الخبر... حاولت أن أفتحها، فلم أنجح.

- ماذا يحدث؟

سـألني منصور بعصبية، قلت له: «إن هذه حقيبة هند»، من دون أن أنظر إليه، وأنا مازلت أكافح لفتح الحقيبة بلا جدوى.

- مَنْ هند؟

- ابنة القحبة... مَنْ تزين صورتها الجريدة... تاجرة المخدرات!

- يا نهار أسود.

صاح منصور وهو يهرول نحو المطبخ، ليعود بسكين حاد.

خطف مني الحقيبة. أدخل شفرة السكين في الفراغ الصغير، الذي يفصل جزئي الحقيبة. ضغط بقوة على مقبض السكين.. وقفت أنظر إليه عاجزًا ومرتجفًا. أمرني بحدة: «أمسك معي بقوة ولا تدعها تتحرك بين يديك». كرر منصور المحاولة، فأبت الامتثال. انفتحت الحقيبة فجأة حين قذف بها يأسًا على الأرض بعنف!

ثلاثة كيلو حشيش هي كل محتويات الحقيبة.. كل كيلو يمثل عبوة مستقلة جيدة التغليف، كما كانت هناك ورقة بيضاء، كتبت عليها عدة أرقام وبعض الحروف الإنجليزية، لم نفهم منها شيئًا!

جلست على السرير مهمومًا واضعًا رأسي بين كفي، لململم منصور عبوات الحشيش وأعادها إلى الحقيبة التي حاول أن يغلقها جيدًا... صرخ في فجأة:

- انهض... ارتدِ ملابسك... هيا.

- لِمَ؟

أشار بيده إلى الحقيبة هاتفًا:

- حتى نتخلص من هذه المصيبة.

دخل كل منا في ثياب الخروج بسرعة.

ولم ينس منصور أن يمد يده على قطعة خيار كانت في الصحن على المنضدة، فتناولها على عجل وهو يقول: «أنا ميت من الجوع... منك لله»!

لم أعلق، وسرت بجانبه صامتًا.

رفض منصور أن نستخدم المصعد، فهبطنا الدرج، وهو يتلفت حوله... لم يكن هناك أحد! طوال الوقت كان يقبض على حقيبة هند بقوة، وحين حاولت أن أحملها عنه، دفع يدي صارخًا... «لا... كفانا مصائب»!

اتجهنا نحو سيارة منصور، التي أوقفها بعيدًا عن العمارة بسبب الزحام.. كان المناخ لطيفًا إلى حد ما في هذا الوقت من الأيام الأولى من شهر نوفمبر.

في السيارة وضع مؤشر الراديو على إذاعة لندن، التي بثت تحقيقًا حول قرار المحكمة العراقية بإعدام صدام حسين، الذي صدر ظهر اليوم.

استمع منصور باهتمام إلى آراء المحللين السياسيين، الذين أيدوا القرار والذين عارضوه.. كنا قد وصلنا إلى نفق الملا بلازا بصعوبة من شدة الزحام، على الرغم من أن الساعة تجاوزت العاشرة مساء.

فجأة سألني منصور:

- ما رأيك؟

- في ماذا؟

- في الحكم على صدام حسين بالإعدام!

أدهشني بروده! مالنا ومال صدام الآن! نحن في كارثة هند وحقيبتها.. ترى من كان يصدق أن هند تتاجر في الحشيش؟ وأنا الذي كابدت الأمرين من سطوة رائحتها التي التصقت بجلدي. ترى... هل كانت رائحة حشيش وأنا لا أدري؟ ما أتعس حظي!

- هه... ما رأيك؟

- في ماذا؟

- في الحكم بإعدام صدام... هل سينفذ؟

- مالي أنا وصدام... دعني من فضلك!

- لا تقلق... ستتخلص من هذه المصيبة حالًا!

انحرف منصور بالسيارة نحو القصيص، مررنا بفندق البستان، وقبل أن نصل إلى جمعية الاتحاد، انعطف يمينًا في شارع جانبي.

كان شبه مظلم إلا من بؤر ضوء ضعيفة، تستقر في بعض نوافذ الفيلات، التي تراصت على الجانبين.. كنت أعرف أن أعمدة النور في بعض مناطق دبي قد توقفت عن العمل؛ بسبب الإصلاحات والجسور التي يستعدون لإنشائها، ولكنهم كانوا يركّبون غيرها، ويوفرون الإضاءة الملائمة بسرعة مدهشة!

فجأة أوقف منصور السـيارة، بعد أن مال يسـارًا في شارع أكثر إظلامًا.. نظر في مرايا السـيارة يمينًا ويسـارًا، ثم اسـتدار بكتفه ليرى خلفه، نزل من السيارة حاملًا حقيبة هند، وهو يهمس لي: «لا تتحرك».

توجه بسـرعة نحو حاوية القمامة القابعة على الرصيف، وفي لمح البصر قذف بالحقيبة المشـبوهة داخلها، ثم عاد مسـرعًا، لينطلق بالسـيارة بعيدًا عن حي القصيص! عائدًا إلى الشارقة مرة أخرى!

تنهـدت بمـلء صدري، وتمتمت بصوت شـبه مسـموع «الحمد لله».. ضحـك منصـور وهـو يلعـن أجدادنا علـى سـذاجتي.. كان يقود السـيارة بمهارة شـديدة، أكدت لي أنه من المحال أن أتقن القيادة مثله، إذا سمحت لي المقادير بتعلمها.

لاحظـت أنـه لم يتوجه نحـو المنزل، فبـدلًا من أن ينحرف يسـارًا نحو أبو شغارة، تجاوز الإشارة وظل مخترقًا شارع الوحدة.

سـألته:

- إلى أين ؟

- ألم أقل لك إنني ميت من الجوع... إلى مطعم فرحات!

- لكنني تناولت عشائي!

- لا... لـم تكمل عشـاءك بسـبب البلوى، التي كنت تحتفظ بها! أشـتهي الفول والطعمية... متى آخر مرة رأيت فيها هند؟

«بعد وفاة أبي بثلاثة أيام» هكذا أبلغت منصـور.. كانت قد علمت بالوفاة عندما اتصلـت بي، ولاحظت أن نبرة صوتي متغيرة.

قلت لها إن والدي مات.. كنت أحاول ابتزاز مشاعرها؛ لتعطف علي وتمنحني بستان جسدها مرة أخرى، لعل وعسى أفلح في قطف ثماره.. كنت أحتاج إلى امرأة أعرفها وتعرفني، أشكو لها ما آل إليه مصيري هنا في دبي.

لم تجلس معي سوى نصف ساعة فقط في مقهى الليدو التونسي، الكائن خلف شركة داناتا للطيران في ديره. كانت ترتدي فستانًا مشجرًا أزرق اللون مثل سماء شهر مايو.. ضيق بصورة لافتة، فبدت أعضاءها الحيوية نافرة ومغرية بالمداعبة والتقبيل!

- لا تقلق... سأبحث لك عن عمل.

قالت لي وهي تدخن سيجارة طويلة لم أر مثلها من قبل، ثم مدت يدها في حقيبتها السوداء صغيرة الحجم، وأخرجت خمسمائة درهم، وناولتها لي هاتفة بحسم:

- خذ... أنت في وضع غير جيد، خاصة بعد وفاة والدك!

ترددت قليلًا، لكنني لم أمانع.

شكرتها... ثم انصرفت، وهي توصيني برحمة والدي بالحفاظ على الحقيبة.

بعد أن تناولنا عشاءنا في مطعم فرحات.. اصطحبني منصور للتجوال في دوّار سينس القديم بحجة البحث عن أحدث الموبايلات. كانت نسمة خفيفة من هواء نوفمبر بدأت تلطف الجو، فتراجعت الرطوبة التي تحاصرنا منذ شهر مايو، وراح منصور يلح في السؤال عن موقفي من الحكم بإعدام صدام حسين، وهل سينفذ أم لا؟

استفزني هذا البرود.. لقد كنا على شفا حفرة من السجن، فقلت له مستنكرًا:

- ألست قلقًا... كيف تضحك وتأكل هكذا من دون توتر؟

توقف منصور فجأة أمام محل «افتخار» لتجارة الموبايلات، وقبل أن ينطق، نظر في عيني بشفقة ثم وضع يده اليمني على كتفي الأيسر، وهو يقول:

- مَنْ قال لك أني لست قلقًا ومضطربًا يا محمد؟

استرسل منصور في التعبير عن مخاوفه، فقد تفشي هند خبر الحقيبة للشرطة، وقد يكون هناك من كان يراقبها من رجال المباحث، فرآنا معًا أكثر من مرة، لعل آخرها في مقهى الليدو، ثم ألقى في صدري قنبلة أحرقت فؤادي:

- الحشيش هنا يعني الإعدام!

لم أرد، وراح منصور يستطرد في كلامه عن ضرورة أن يمتلك أعصابه، وأن يبدو طبيعيًا حتى لا يظن بنا أحد الظنون، ثم طالبني، بل أمرني، بأن أحكي له كل شيء عن هند وعلاقتي بها، وكيف قبلت أن أحتفظ بحقيبة حشيش، هكذا من دون أن أدري!

فجأة... رن هاتفه، فتوقف عن الكلام، ثم قال لي:

- إنها سمية... هيا بنا إلى البيت!

في هذه الليلة المتوترة حكيت لمنصور كل شيء عن هند، من أول وقوفها بجواري ضد ألاعيب زملائي في كارفور، حتى إخفاقي التام في المرة الوحيدة التي تعرت فيها أمامي. سردت له كيف أعطتني الحقيبة، وكيف حاولت أن أفتحها مرة، ولكني لم أفلح.. قلت له كل شيء ما عدا أنها أعطتني خمسمائة درهم بعد وفاة أبي.. كنت أتكلم بنبرة حزينة، وأنا منخفض الرأس طوال الوقت تقريبًا، وكان منصور ينصت لي باهتمام بالغ وعلامات الدهشة، ترتسم على وجهه مع مرور السرد.

في هذه الليلة شعرت براحة كبيرة، بعد أن أفضت في الكلام عن هند وإيرينا وسوما، وكأن الحجر الذي أرهق صدري بسبب مأساتي مع النساء قد سقط، لكني أشهد وأعترف بأنني لم أستطع النوم... ولا منصور ابن خالتي من فرط القلق، لكن هذا القلق يهون الآن تمامًا، حينما أجدني محشورًا في زنزانة، مع شاب فليبيني شاذ وأمجد صفوان، الذي وصل نحيبه حدًّا لا يطاق، بتهمة قتل إيرينا الروسية!

***

22

أبي مرة أخرى

بصراحة شديدة... خجلت أن أدعو أصدقائي إلى الغداء في مطعم فاخر احتفالًا بوفاة أبي كما كنت أحلم وأنوي وأخطط، أو بتعبير أصح، لم أجرؤ على فعل ذلك. صحيح أنني لم أكن أملك من المال ما يكفي لدعوة شخص واحد، إلا أن ذلك ليس السبب الوحيد في انصرافي عن تلك الفكرة المجنونة، على الرغم من أنني كنت صادقًا حقًّا حين أنتويتها، فما فعله أبي معنا من سيئات لم يفعله أب مع أبنائه حسب علمي، ولكن الوقائع التي واكبت وفاته محت من ذهني فكرة الاحتفال بهذه الوفاة. أقصد الوقائع التي حدثت لي هنا، فأنا لا أعرف ماذا تم هناك في القاهرة، سوى أنه مات بالمستشفى، وأنهم دفنوه في قريته شرانيس التي كان لا يزورها إلا لدفن الموتى من أقربائه، وها هو يلحق بهم في القرية ذاتها والمقابر نفسها، التي كان يقف أمامها قبل ذلك خاشعًا، متذكرًا مواقفه مع الذي رحل، أو هكذا أظن!

نعم... كنت أنوي دعوة أصدقائي للاحتفال بوفاته، علمًا بأن أصدقائي هنا لن يخرجوا عن منصور ابن خالتي و أمجد صفوان وهند المغربية،

وربما الأستاذ صلاح الغندور وزوجته الدكتورة منى وأشرف نادر.. لعلكم نسيتم أشرف لأني لم أعد أتحدث عنه، بعد أن ترك كارفور، والتحق - بتوصية ومساعدة من الأستاذ صلاح - بوزارة التربية والتعليم للعمل كمدرس تربية خاصة.

صحيح أنني لم أقابله بعد ذلك إلا مرة أو بعض مرة، إلا أنه لا يمر أسبوع من دون أن يتصل بي ليطمئن على أحوالي، معتبرًا أن وضعه الأفضل الآن كمدرس يعود الفضل فيه بالأساس إلى شخصي الضعيف؛ لأنني مَنْ قدمته إلى الأستاذ صلاح الغندور.

المدهش أنني نسيت متى بالضبط وأين تقابلا - أشرف والغندور - بسبب وطأة الظروف التي تحاصرني هنا، وإن كنت أعتقد أنني قد أكون اصطحبت أشرف معي إلى مقهى «ذكريات» في إحدى المرات، التي التقيت فيها أمجد أو الأستاذ صلاح، وهناك تم التعارف وقدمت المساعدة لأشرف، من قبل الأستاذ صلاح!

على أية حال، فأنا لم أحتفل بوفاة أبي كما كنت أنوي. وعليه، لم أتصل بأشرف ولم أره في ذلك الوقت!

في الليلة التي مات فيها والدي، وهب منصور ابن خالتي نفسه لمعاونتي على عبور الأزمة «مهما كانت علاقتك سيئة بأبيك، فرحيله مشكلة؛ لأن موت الأقارب الأولين أزمة». هكذا قال لي منصور، فبعد أن تلقيت العزاء ممن كانوا في المقهى، اصطحبني منصور إلى شقته، قائلًا لي بصوت خفيض ونبرة حاسمة:

- ستبيت معي الليلة!

لم أعلق، ورضخت، بل راقتني الفكرة؛ لأنني لم أكن أود أن أعود إلى شقة كارفور، حيث بدأت أشعر بكره شديد، ينمو نحوها، بعد أن نلت نصيبي من الطرد على يد موسى الوحش.

كالعادة أرهقنا البحث عن موقف للسيارة بجانب العمارة التي يقطنها منصور، فالزحام في دبي والشارقة أصبح لا يطاق، والذي لا يقتنص مكانًا في النهار يوقف فيه سيارته، لن يلقى شبرًا واحدًا يحتضن سيارته في الليل!

- ما أتعس هذه المنطقة!

هذه هي العبارة الوحيدة التي تفوه بها منصور غاضبًا منذ خرجنا من المقهى، حيث ظل كل منا طوال الطريق متشبثًا بصمت مظلم فرضه جلال الموت وهيبته، حتى أن منصور لم يشأ أن يدير الراديو، أو جهاز التسجيل الخاص بالسيارة!

نصحني منصور بأن أستحم، ففعلت لأن اللزوجة الناتجة عن الرطوبة قد أزعجتني بما فيه الكفاية.. في الحمام لم أتمالك نفسي ومارست العادة السرية بفرح وحزن في آن واحد، وبعد أن تخففت من زلزال جسدي، تذكرت أن جثة أبي مازالت ساخنة في القبر، فتأملت أحوال الدنيا، لكن لا أدري لماذا سطا على خيالي منظره، وهو يناديني من البلكونة عندما كنت طفلًا صغيرًا: «اصعد يا حمار... بسرعة»!

بصقت على الأرض، كأني أطرد هذه الذكرى الموجعة التي أدمت قلبي، وجعلتني أحس بضآلتي أمام أطفال الحارة الذين كنت ألعب معهم، وودت لحظتها أن يتعثر أبي في وقفته، وهو يرتدي ملابسه الداخلية، فيسقط من البلكونة ليقضي نحبه!

وربما كانت هذه أول مرة أتمنى فيها موت هذا الظالم الغليظ، ولكني خشيت أن أبوح بأمنياتي المشؤومة تلك إلى أحد، حيث تلازمني هذه الرغبة كلما وجدته يستعرض قوامه وهو شبه عار في البلكونة! أو أحلم بأن تندلع حرب بيننا وبين إسرائيل، فيلقى حتفه على يد جندي صهيوني، أو يغتنت جسده إثر اختراق أحد صواريخ العدو لهذا الجسد! أمنيات قاتمة كانت ترافقني كثيرًا كلما نلت نصيبي من قذاراته، أو رأيته يشتم أمي ويضربها!

آه... أمي! ترى ماذا تفعلين الآن؟ وكيف تلقيت خبر موته وغيابه اللانهائي؟

أقسم أن عصافير ملونة زغردت في فؤادك، عندما تيقنت أن ضربات قلبه وقذارات لسانه قد توقفتا إلى الأبد! ولكنك ستقومين بواجبك الاجتماعي أمام كارثة موت الزوج على أكمل وجه، فستبكين بحرقة، وتنهمر الدموع من عينيك الشاحبتين بغزارة، وتلطمين خديك بقوة، ويعلو صراخك كلما زاد عدد النسوة، اللاتي يتحلقن حولك من باب المواساة! وقد تصطنعين الإغماء من لوعة الفراق، فتهرول النساء إليك لإفاقتك، وهن يتمتمن بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وعبارات شائعة، في مثل هذه الأحوال، ابتكرتها البديهة الشعبية وتاريخ الحزن المصري الممتد قرونًا طويلة!

نعم... أراك الآن يا أمي وأنت تمثلين الحزن، فترتدين وشاح الهم والشرود حينًا، ثم تعددين مناقب الميت الذي أحرق كبدك برحيله أمام النسوة، اللاتي يتعجبن من قدرتك يا أمي على ارتكاب كل هذا الحزن.. وبعضهن يدركن تمامًا حجم القهر، الذي كنت تعيشين فيه تحت ظلال أبي السوداء. ألم تكوني تسردين أمامهن وقائع مخجلة من سلوكيات الميت، عندما كان يصول ويجول في البيت؟ ألم تحترق جفونك من البكاء، وأنت تهمسين لهن أنه الحائل الأول ضد زواج ثريا ومحاسن؟ لأن العرسان يرفضون أن يصاهروا رجلًا مثله، بلغت سمعته المرذولة حدًّا لا يطاق!

آه... شقيقتاي... ترى ماذا تفعلان الآن؟ وهل هدأ اضطرابكما بعد أن مات الجبار ذو اللسان البذيء؟ وهل تأملان - كما أتمنى - أن تفوزا بنعمة الزواج، بعد أن غاب أبونا إلى الأبد؟

- أين أنت... هل نمت داخل الحمام؟

أفقت من شرودي على صوت منصور وهو يقرع باب الحمام، كنت ممددًا في البانيو، تاركًا جسدي حرًّا يتلذذ بالمياه الباردة ورغوات الصابون الكثيفة، التي تكون بسرعة مذهلة من «جل الاستحمام»، فتدغدغ خلاياي وتسعدني، على الرغم من الهواجس المرة والذكريات الأليمة، التي تَتْرَى على مخيلتي.

- أمامي خمس دقائق... لأنتهي.

- بسرعة من فضلك... البيتزا في الطريق.

حقًا... منصور هذا طيب... يعرف تمامًا أني جائع، ويعي تمامًا كم أحب البيتزا، وأن سعرها المرتفع يحول بيني وبين أن أتناولها كلما هفت نفسي إليها! وها هو يطلبها من المحل «ديلفري».

حين خرجت من الحمام، كان منصور ينهي مكالمة في الموبايل، وقد أدركت أنه يتحدث مع سمية الأبراشي؛ لأنه يخاطبها بحبيبتي.

- سمية تسأل عنك وتطمئن عليك.

قالها منصور من دون أن ينظر إلي، وهو يضع بضع جرائد قديمة على المنضدة استعدادًا لقدوم البيتزا.. مشطت شعري أمام المرآة وتأملتني بهدوء، وتعجبت... فمنذ مدة لم أرنُ إلى وجهي بتركيز في المرآة. انزعجت لأن لحيتي طالت بصورة أظن أنها منفرة، ولكنها تناسب شابًا مثلي فقد أباه للتو، فتركها حزنًا وزهدًا! وكأننا يجب أن نتلقى أخبار الموت ونحن في حالة رثة، أو أن التجمل لا يليق بكارثة الرحيل! أو كأن قذارة الأحياء هي أنسب الحالات، التي تلائم نظافة الموتى!

لم تكن هذه الآراء من وحي أفكاري، بل أطلقها منصور كقذائف في قفاي، وهو يقف خلفي أمام المرآة معاتبًا إياي؛ لأني تركت لحيتي تنمو هكذا حتى صار وجهي منفرًا!

وعدته أني سأحلقها في الصباح.. رائحة البيتزا أهاجت شهيتي، فالتهمتها بسرعة، وكان منصور ذكيًا، فقد ابتاع ثلاث فطائر من الحجم الكبير، فأكلت بنهم وامتلأت معدتي.. كذلك أقبل منصور على البيتزا

بشراهة؛ إذ لم يعطله عنها إلا مكالمتين من الأستاذ صلاح الغندور وعبد الله راشد.

كل منهما كان يسأل عن أحوالي ومزاجي بعد الصدمة، التي تلقيتها بخبر موت أبي. فلا أحد منهما يعرف أنني كنت أنتظر هذا الخبر بشغف منذ سنين طويلة، ولا أحد منهما يظن أن هناك أسرة كاملة يعتريها الحبور الآن؛ لأن رب هذه الأسرة قد مات! ولا أحد منهما يدرك مدى سعادتي؛ لأنني لم أكن هناك - في القاهرة - لحظة موته، حتى لا اضطر إلى افتعال الحزن أمام الآخرين، فأنا لست ممثلًا جيدًا كما أعتقد، ولن أحتمل طقوس الموت من جنازة ودفن وعزاء؛ حيث ينبغي أن أخفض رأسي طوال الوقت، وألا أتفوه إلا بعبارات مكرورة ومزعجة كثيرًا مثل «سعيكم مشكور»، «حياتك الباقية»، ردًا على جمل أخرى مضجرة ومملة، تقال دومًا في مثل هذه المناسبات التعيسة!

فأنا كثيرًا ما كنت أتملص من أداء واجب العزاء؛ هربًا من هذه العبارات السخيفة، والصمت الثقيل المفروض على الجميع، على الرغم من أني أعلم أن ديننا يحضنا على مواساة الحزانى والتخفيف عنهم، ولكن ما حيلتي وأنا لا أجيد التواجد في مثل هذه المواقف الحزينة!

حاولت أن أنظف المائدة، ولكن منصور طلب مني أن أدير التليفزيون، حيث سيتولى هو أمر المائدة وإعداد الشاي.. كانت أخبار القتلى والجرحى تتوالى على شاشة الجزيرة، فلم أهتم بالمشاهدة. منصور، الذي أعد الشاي بسرعة وأحضر معه بقايا «تورتة» كانت في الثلاجة، اكتفى بقراءة شريط

الأخبار، ثم راح يغير القنوات من دون هدف، حتى لاح وجه فاتن حمامة المضيء، وهي تذوب عشقًا في فيلم «نهر الحب»، فتوقف عند هذه القناة وهو ينظر لي:

- هذا الفيلم من أحبِّ الأفلام لدي!

قلت له بنصف حماس:

- حقًّا... إنه فيلم مؤثر.

- إن زكي رستم يلقن الجميع هنا درسًا في فن التمثيل.

- ولكنه رجل قاس.

لم أنتبه إلى أن منصور قد فطن إلى التشابه بين قوة زكي رستم وقوة أبي، إلا حين قال معلقًا على عبارتي الأخيرة:

- رحم الله والدك.

الحق أنني وصفت زكي رستم بأنه قاس، من دون أن أعي أن هذا الأمر له علاقة ما بأبي، فأنا قلت إحساسي بالرجل من خلال مشاهدتي للفيلم أكثر من مرة، لكن يبدو أن العقل الباطن - كما يقول منصور كثيرًا - يقود العديد من سلوكياتنا، من دون أن ندري!

تابع منصور الفيلم بحماس ونشوة، مصرًّا على أن يشرح لي مناطق الجمال في أداء الممثلين وطريقة الإخراج.. كان يفعل ذلك بقلب طيب، يريد أن يخرجني من دوامة الموت التي سقطت فيها هذه الليلة، ولكن

النعاس بدأ يتسلل إلى جسدي فيخدرني، فلما انتهى الفيلم، كنت قد بلغت من الإجهاد مبلغًا لا يحتمل، حتى أنني سمعت صوت منصور ينصحني بأن أذهب للنوم، وأنا في نصف غيبوبة.

حين تركت رأسي تستقبل الوسادة بلذة، كانت ترن في أذني عبارة والدي البذيئة:

«اصعد يا حمار... بسرعة»!

***

23

النبيل

- عبد الله راشد يريد لقاءك الليلة ضروري.

استيقظت على هذه العبارة التي أطلقها منصور في أذني بحماس.. كنت غارقًا في نومي الحزين كالعادة، فمنذ أن طردني موسى الوحش من كارفور، قبل شهرين، وأنا لا أجد عملًا، فصادقت النوم باعتباره وسيلتي الوحيدة لتمضية الوقت الطويل، الذي أجدني فيه وحيدًا منبوذًا بين جدران شقة ابن خالتي، التي انتقلت للإقامة فيها منذ وفاة أبي.

كان منصور يستقطع جزءًا من وقته كل يوم تقريبًا؛ ليصطحبني معه إلى بعض الشركات والمؤسسات لإجراء المقابلات، أو لإعطائهم صورة من سيرتي الذاتية. كنت أعلم جيدًا أن هذه السيرة لا تشجع أحدًا على توظيفي، فهي سيرة فقيرة لا خبرات مهمة فيها، ولا تاريخ وظيفي معتبر، ولكنني أطمع في كرم الله. وكم دعوت في صلواتي أن يتعطف عليّ الواحد الأحد ويهبني لي عملًا؛ حتى لا أضطر إلى العودة إلى مصر خاوي الوفاض، فيتلقفني أخي حسن بانتقاداته وشتائمه! وكأن الله عوّضني عن

والدي القاسي بشـقيق فظ لا يرحم. وقد كذبنا منصور وأنا وضعنا السيرة بعض الوظائف، التي لم أمارسـها أصلًا؛ الأمر الذي دفع منصور لأن يفعل ذلك بامتعاض! لكن هناك مرة وحيدة اقترح فيها منصور أن أعود إلى مصر إذا سُدّت أبواب الرزق في دبي.. رفضت اقتراحه بشـدة، متوسـلًا إليه أن يسـعى من أجلي:

- الحصول على وظيفة هو كل أملي هنا يا منصور.

نظر إليّ بشفقة ومحبة، وأقسم:

- تا الله ستجد عملًا هنا يا محمد، مهما كلفني الأمر.

ترى ... فعلهـا منصور وتحدث مع عبدالله راشـد من أجلي؟ فتطوع الرجـل ودلّني على طريق الوظائف. أم أن الأمر لا يعـدو أن يكون مجرد سـؤال من المواطن الإماراتي الطيب عن أحوالي، وقد رآني الرجل لحظة وفاة أبي، فرقّ لي وأشفق على حالي!

حسـنًا... إذا كان منصور قد أبلغه عن بؤسي هنا، فماذا قال له بالضبط؟ وهل سـرد له وقائع خيباتي مع هند وإيرينا وسـوما؟ أم اكتفى بالكلام عن طردي من كارفور؟ منصور حكيم لا يفشـي أسـرار أصدقائه، ولا يتحدث عن مخادع النسـاء باستخفاف وتهكم، فهو من يبجّل المرأة، ويردد دومًا قول شاعره الفرنسـي أراجون «المرأة مستقبل العالم».

لا... لا أظن أن منصور أفشـى أسراري النسائية المشؤومة.. ولا أعتقد أن انسـحاقي الدائم على أسرة الحسناوات سيصبح مضغة الأفواه، ولكن لماذا يطلب عبد الله راشد مقابلتي الليلة ... ضروري، كما أكد منصور؟

لم أتمكن من الفرار من سراديب الاحتمالات المتوقعة طوال النهار، حيث كان الفضول ينهش أعصابي، محاولًا البحث عن إجابة هذا السؤال الصعب: ماذا يريد مني عبد الله راشد؟ ففي اللحظة التي تلقيت فيها اتصال منصور، قفزت من سريري مهرولًا، يخالجني شعور بالفرح مخلوط بتوجس وريبة.

تناولت إفطارًا خفيفًا، مجرد خبز وجبن مع الشاي الذي أعددته على عجل، فسقط مني كوب الزجاج على الأرض، فانزعجت جدًّا واعتبرته فألًا سيئًا. قمت بلملمة شظايا الزجاج، وأنا ألعن توتري الذي حال دون تركيزي، فتذكرت مآسي أمجد صفوان مع الأكواب والزجاجات، حتى ونحن في السجن، فضحكت!

توضأت وقررت أن أصلي الفجر والظهر معًا، بل وأزيد عليهما ركعتين تقربًا إلى الله لعل وعسى أن يستجيب لدعائي، فأعثر على عمل. آه... هل يعود إخفاقي في اقتناص وظيفة إلى أنني أهملت أداء واجباتي الدينية، منذ أن أقمت مع منصور؟ نعم لقد أصبحت كسولًا، أستسلم للذة النوم، فلا أستيقظ لأؤدي صلاة الفجر مثلما كنت أفعل فيما مضى، كما أنني لا أحرص أحيانًا على الذهاب إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة كما أفعل منذ سنين!

هل إقامتي مع منصور الذي يخاصم المساجد، وينفر من الصلوات، هي السبب في ابتعادي عن تنفيذ أوامر الله، وأهمها الصلاة؟ لكن منصور نفسه لا يصلي، بل لا يؤمن بوجود الله أصلًا، ومع ذلك فهو يتذوق لذة النجاح في الحياة، منذ كنا نلعب في حواري دمنهور البائسة ونحن أطفال،

حتى سطوع نجمه الآن بقوة في أحياء دبي الباذخة! ترى هل يكافئه الله في الأرض ليعاقبه في السماء؟ وأمس قال لي منصور إنه في غاية الفرح؛ لأنه وجد اسمه مذكورًا 3122 مرة عندما دخل على «جوجل» مستخدمًا محرك البحث الشهير في الكشف عن اسمه! كان مغتبطًا بالرقم الضخم الذي وصل إليه على «جوجل»، معتبرًا ذلك من آيات النجاح الكبير، الذي حققه في عالم الصحافة. أما أنا فلا مفر أمامي من الإقرار بأنني لم أحقق شيئًا ذا قيمة في حياتي حتى الآن! فلا عمل ولا حبيبة ولا مال، ولا حتى تعلمت فنون التعامل مع الكومبيوتر، كما طلب مني منصور ذلك كثيرًا، ولا يوجد أي أمل في الأفق يشير إلى أن أحوالي السوداء هذه ستتغير، وأن مستقبلي أخضر ومورق!

بهذه المشاعر المعتمة التي استولت عليّ بامتداد نصف نهار، ذهبت إلى لقاء عبد الله راشد.. ارتديت أفضل قمصاني بعد أن كويته باهتمام، ومشطت شعري جيدًا بعد الاستحمام، وكأني في طريقي لمقابلة حبيبة وليس رجلًا. فعلت ذلك بناء على نصيحة منصور، الذي حرص على أن يفحصني قبل أن نخرج من باب الشقة، فلما اطمأن على أن هيئتي لا بأس بها... صاح هاتفًا بثقة:

- معقول جدًا... أنت الآن شاب صالح!

لم أعلّق على عبارته، واكتفيت بأن ألقيت عليه نظرة استفهام هادئة، فلم يرد عليها، بل قفز نحو باب الشقة، ففتحه بحماس طالبًا مني أن نسرع.

في الطريق من أبو شغارة بالشارقة إلى مقهى «ذكريات» في دبي، اصطدمنا بالزحام المعتاد لشارع الاتحاد، الذي أصبح لا يطاق في أي

لحظة من الليل أو النهار على حد قول منصور.. كانت السيارة تتحرك ببطء شديد ينشئ في قلبي غابات ضجر، بعد أن نهش الفضول من روحي الكثير. ولمّا سألت منصور: هل تعرف لماذا يريد عبد الله راشد مقابلتي؟ ابتسم برفق و قال لي:

- هذه هي المرة العاشرة التي تسألني، وأرد عليك بالجواب نفسه... لا أدري.

كان الحق معه، فقد أزعجته مرارًا بهذا السؤال؛ لذا ألتفتُّ نحو نافذة السيارة بيأس لأتأمل الطريق الذي تستمر، فلا حركة ولا يحزنون! ولكن منصور لم يتركني أنعم بشرودي، إذ همس في أذني:

- انصت إلى أم كلثوم واستمتع... كلها دقائق ونعرف.

لم أكن من هواة أم كلثوم بشكل عام، بل كنت أكرهها وأنا صغير، لأن أبي كان يحبها، ويتّنا إذا علا صوتنا أثناء شدوها في الراديو، فكرهتها كما كرهته. لكن مع الوقت، ومع شروحات منصور لعبقريتها، بدأت مشاعري نحوها تتغير قليلًا، فلا بأس عندي من أن أعجب ببعض مقاطع لها في أغنيات محددة مثل الأطلال وألف ليلة وسيرة الحب.. لكنني لا أقدر على التركيز مع ما تقول ساعة ولا أطيق. وأندهش كيف لمنصور أن يظل مصوّبًا حواسه كلها نحو أدائها ويطرب له، بل ويسعى لجرجرتي للاستماع إليها وقتًا طويلًا.

كانت تردد «بعد ما اتعودت بعدك غصب عني». انتبهت إليها للحظات، ثم سرقني شرودي من متابعتها، حتى وصلنا إلى مقهى «ذكريات» قبل موعدنا مع عبد الله راشد بربع ساعة.

فور جلوسنا... اتصلت سمية الأبراشي بمنصور، فتبادل معها بعض عبارات قليلة معطّرة بمفردات الغرام التي رددها، وهو ينظر إليّ. وما إن أغلق الموبايل حتى اتصل به الأستاذ صلاح الفندور، فحيّاه بحفاوة مؤكدًا له أننا وصلنا إلى المقهى وفي انتظار عبد الله راشد.. كان منصور يتحدث، وابتسامته المشرقة تضيء وجهه كله. وبعد أن أنهى كلامه مع الأستاذ صلاح، طلب لنا الشاي والشيشة، وهو يهز رأسه قائلًا:

- الأستاذ صلاح يرسل إليك تحياته.

ثم سكت قليلًا وأضاف، وهو يمسح بعينيه أرجاء المقهى:

- وكذلك سمية.

تمتمت بصوت خفيض بعبارات شكر وامتنان. وما إن بدأنا في شد أنفاس الشيشة، حتى هلّ علينا عبد الله راشد بجلبابه الناصع ولحيته المشذّبة وابتسامته الهادئة. انخطف قلبي عندما رأيته، وزادت نبضاته سرعة وصخبًا.. لاحظت أنه تبادل مع منصور نظرات ماكرة، فاتّقد توتري. ماذا تخبئون لي؟ وشككت في أن منصور يعلم شيئًا ما عن فحوى هذا اللقاء، فانزعجت ونظرت إليه معاتبًا؛ لأنه نفى أكثر من مرة درايته بشيء!

لم ينتظر عبد الله راشد طويلًا ليلقي عليّ قنبلته اللذيذة. فبعد أن تناول الرشفة الثانية من القهوة، إذ كنت أراقبه جيدًا، اعتدل في مقعده وهو يتجول ببصره متأملًا رواد المقهى، ثم أطلق في وجهي عباراته الخالدة بالنسبة لي:

- مبروك يا محمد... غدًا ستستلم وظيفتك الجديدة في شركة الحبتور للسيارات.

وقبل أن أستوعب ما قال بالضبط، وقبل أن أجاهد للسيطرة على دقات قلبي، التي بلغ إيقاعها حدًّا مدهشًا، وقبل أن أنطق بحرف، أكمل عبد الله راشد كلامه بثقة صائحًا:

- الراتب 4000 درهم... أنت تستحق كل خير يا محمد.

ثم أخرج من جيبه مظروفًا به ورقة أعطاها لي، بينما ناولني منصور قلمه الخاص وهما يبتسمان ويقولان في نفس واحد:

- هيّا... وقّع العقد... ألف مبروك.

كأن ليلتي هذه ليلة القدر، وكأن أبواب السماء مفتوحة عن آخرها في هذه اللحظة، وكأن الله يربّت على كتفي ليطمئن فؤادي، وكأن ملائكته يحومون حولي لينشروا رذاذ بركتهم أمام عيوني. ياالله... أخيرًا خرجت من صحراء البطالة إلى حقول العمل. أخيرًا امتلكت وظيفة، وبكم ؟ أربعة آلاف درهم... ياالله... ألف ألف شكر.

أمسكت القلم بيد مرتجفة، وأنا أبحث عن المكان المخصص لتوقيعي، ولكن منصور طلب مني أن أقرأ بنود العقد أولًا، قبل أن أمهره بتوقيعي ناصحًا إياي:

- لا توقّع على شيء أبدًا قبل أن تقرأه جيدًا.

هممت بالموافقة وأنا أطوف بعيني سريعًا على بنود العقد، فلم أقرأ منها شيئًا تقريبًا سوى قيمة الراتب. ثم وضعت توقيعي، وأنا أقاوم دموعي بصعوبة بالغة. وقبل أن أعيد القلم لصاحبه، هلّت علينا سمية الأبراشي بفستان وردي وابتسامة ملونة وهي تحمل بين يديها «تورتة» جميلة. وما

إن قالت لي «ألف مبروك يا محمد»، حتى كان الأستاذ صلاح الغندور وزوجته الدكتورة منى رشاد يقفان أمامنا بكامل أناقتهما المعهودة، ونظارتهما الطبيتين الجديدتين.. احتضنني الأستاذ صلاح بقوة، وهو يهتف «ألف مبروك يا محمد». أما الدكتورة منى فصافحتني بحرارة مهنئة، حيث اتخذت مكانها بجوار سمية الأبراشي.

نعم... الكل كان يعرف بمن فيهم منصور، وقد رتَّبوا المفاجأة هكذا حتى يبلغني عبد الله راشد نفسه بالنبأ السار، فهو الذي سعى لتوفير هذه الوظيفة مستثمرًا علاقاته القوية مع أحد مديري شركة الحبتور، وهو الذي طلب رفع الراتب من ثلاثة آلاف درهم - كما هو متبع عندهم - إلى أربعة آلاف، كما عرفت من منصور فيما بعد.

لم تقتصر مفاجآت تلك الليلة الساحرة على عقد العمل و«تورتة» سمية التي التهمناها في الحال، ووزعنا بقيتها على رواد المقهى، الذين ظنوا خطأً أنها مناسبة خاصة بعيد ميلاد أحدنا، فظلوا يرددون «كل سنة وأنتم طيبون»، فكنا نبادلهم التهنئة بالشكر والابتسام.

أقول لكم لم تقتصر المفاجآت على هذه الأمور الجميلة فحسب، بل كانت الهدية التي قدمها لي الأستاذ صلاح الغندور رائعة أيضاً؛ إذ منحني شنطة كرتون بها قميصان فاخران، قائلًا بأداء رصين وابتسامة طيبة:

- أتمنى أن يكون المقاس مضبوطًا.

شكرته بصوت لا يكاد يُسمع، فقد تراكمت ورود الفرحة داخلي حتى حاشت مني الكلام، وفي اللحظة نفسها همس منصور في أذني:

- أما البنطلون والحذاء ففي السيارة.

نظرت إليه متعجبًا، فواصل كلمه متجاهلًا نظرتي:

- نعم... هديتي لك بمناسبة الوظيفة الجديدة.

كان احتفالًا رائعًا لدرجة أنني عند عودتنا إلى المنزل، ظللت أردد في سريرتي بصوت غير مسموع «الحمد لله... الحمد لله». كما لم أتوقف عن إسداء الشكر لمنصور طوال الوقت، ونسيت أنه كان على علم بهذه الأخبار البهيجة، ولم ينبئني بها! كان قلبي يقفز فرحًا، ومسام روحي تستعد بشغف للإقبال على الحياة مرة أخرى، ورغبتي جارفة في أن ينزاح هذا الليل سريعًا ليلونني النهار بأزهاره الملونة عند استلام وظيفتي الجديدة. ولكني لم أكن أعلم أبدًا، لا أنا ولا منصور ولا سمية الأبراشي، ولا الأستاذ صلاح الغندور وزوجته ولا عبد الله راشد، ولا حتى عزة سليمان أنه بعد خمسة أشهر فقط، سألقى في غياهب السجن، وقميصي الجديد الذي أهداني إياه الأستاذ صلاح ملطخ بدم إيرينا الروسية، التي ذُبحت في لحظة غدر مشؤومة!

***

24

عـزة سليمان

عيناها العسـليتان تزرع في قلبي بسـاتين محبة، نظرتها الحالمة تنشر في روحي أنهار فرح.. بشـرتها الخمرية تطرح أمامي أشـجارًا مورقة، تحميني من قيظ دبي الملعون. ابتسـامتها المترعة بالحنان كشـفت لي متعة السـهر كل ليلـة، متلهفًا إلى لقائها كل صباح! أما لفتاتها الآسـرة، فجعلتني ألمس السماء وأصادق النجوم.

منذ اللحظة الأولى... لا... منذ النظرة الأولى... وجدتني منجذبًا بقوة إلى عزة سـليمان بطولها الفارع وشعرها الأسود الناعم وبنطلونها الجينز.. كانت قد سبقتني إلى العمل في شركة الحبتور بعامين.. استقبلتني بترحاب شديد قائلة لي: «أهلًا بابن بلدي».

كانـت هـذه أول مرة أسـمع فيها هذا التعبيـر «ابن بلـدي»، فاهتز كياني وارتـج، وقـد كررتـه عندما اسـتقبلتني - مع منصـور - عنـد خروجي من السـجن بعـد محنتي الكبيـرة.. حيّتني بمحبة حقيقية، أشـرقت مـن عينيها العسـليتين ذات الوميض المباغت.

بدا لي واضحًا حضورها القوي في الشركة واحترام الجميع وتقديرهم لها.. كانت مزوّدة بمهارة لافتة في القدرة على بيع السيارات. ما إن يدخل زبون قاعة المعرض حتى تتوجه إليه مباشرة، وبعد أقل من نصف ساعة يخرج الزبون سعيدًا، بعد أن يكون قد اقتنى سيارة جديدة وافقت ذوقه وبسعر مناسب، بينما تقنع عزة بابتسامة رضا عن النفس تمنحها لذاتها بعد إتمام صفقة البيع! كنت أراقبها جيدًا. لم تكن تستخدم الأساليب المبتذلة لإغراء الزبائن بالشراء، كما تفعل بائعات أخريات هنا وهناك وفي كل مكان، بل كانت تتكئ على مقدرة شبه خارقة في إقناع الزبون على أن هذه السيارة أو تلك هي الأفضل، وأن مواصفاتها ستلائمه تمامًا، وأن طريقة شرائها بالأقساط - أو كاش - ستناسبه تمامًا أيضًا. كانت عزة تمارس عملها بحب حقيقي، تجيب عن أي سؤال يطرحه الزبون بحماس، وتشرح له ما غمُض عليه من إمكانيات السيارة.. كانت تستعين بذكائها الفطري في الإيغال داخل نفس المشتري، فتعرف كيف تؤثر عليه، وتصرع تردده بعبارات قصيرة واثقة، فتجعله يقبل على اقتناء السيارة - أي سيارة - وكأنه يقتني طائرة نفاثة!

من اللحظة الأولى أدركت عزة سليمان أن مهاراتي في التسويق والبيع محدودة - هل أقول معدومة؟ ومع ذلك قررت أن تهب روحها لمساعدتي بكل طاقتها - كما قالت لي فيما بعد - حتى أكتسب ولو قدرًا قليلًا من فنون البيع! كانت تعطيني دروسًا منتظمة في كيفية إغراء الزبون بمميزات السيارة، وكيفية تبسيط أمور الدفع لشرائها، وسهولة إجراءات البنك لتمويلها. كانت تشرح لي ما تقول بهمة:

- الزبون لا يريد إلا أن يستلم السيارة ومفتاحها من هنا في أقرب وقت.

كنت أنصت إليها باهتمام وإعجاب، وهي تكرر كلامها حول ضرورة أن يشعر الزبون أنه لن يبذل أي جهد، لا مع البنك، ولا مع إدارة تراخيص السيارات في المرور، ولا مع مراكز الصيانة.. كانت تقول ذلك وتهتف:

- الزبون دومًا كسول... ومعه حق.

- لماذا ؟

- لأنه يدفع عشرات الألوف من الدراهم، فمن حقه إذن أن يُدلل ويستمتع.

كنت أستمع إليها بتركيز شديد، وأنا أتأمل شفتيها الرقيقتين مع إيقاع صوتها، وهو يرتفع وينخفض، مستخدمة حركة يديها كثيرًا أثناء الكلام. نادرًا ما رأيتها ترتدي غير البنطلون الجينز الأزرق، في الوقت الذي تختار فيه بلوزات أنيقة ذات ألوان زاهية تزيدها جمالًا، ولكنها كانت تحافظ على الاحتشام بشكل عام في ملابسها، وأثناء سيرها بخطوات سريعة دائمًا.

أما ما جعلني مفتونًا بها، هائمًا في بحرها الأنثوي الجميل، حتى وأنا أكابد عذابات لا نهائية في السجن، فيتمثل في بساطتها اللامتناهية، وصراحتها العجيبة، وفخرها المستمر بأنها ابنة «سبّاك» من «السوّاح» يمارس مهنته بشرف، وأن والدها مكافح أصيل، استطاع أن يعلّم أبناءه أفضل تعليم، على الرغم من أن حظه من التعليم الرسمي كان شحيحًا للغاية، حيث كان بالكاد يعرف القراءة والكتابة. كما أنه لم يفرّق بين البنت

والولـد، فلم يُحابِ أشـقـاءها الثلاثة على حـسـابها، هـي وأخواتها الثلاث أيضًا.

- طوال الوقت كنا فقراء ومحرومين.

كانـت تخبرنـي ذلك بأسـى، ولكن من دون مذلة أو اسـتدرار لشـفقة، بـل يمكن القول أنه أسـى مخلوط بفخـر واعتزاز، لأنها اسـتطاعت - هي و كل أشـقائها - أن يتجاوزوا مراحل التعليم كلها بنجاح كبير، فلها شـقيق نـال الدكتوراه في الحقوق العام الماضي، وشـقيقة تسـعى للحصـول على الماجستير في التاريخ هذه السنة.

- حلمي أن يرتاح أبي من العمل... لقد تجاوز الستين.

«ياللعجب... تفخر بوالدها كل لحظة، وأنا ألعن أبي حتى وهو ميت». قالت لي ذلك في أول لقاء منفرد بيننا خارج الشركة.. كانت هي من بادرت إلى دعوتي، بعد أن لاحظت اهتمامي الشـديد بها، وترددي المعيب في أن أبـوح لها بما يـدور في داخلي. كنت معتادًا أن يمر عليّ منصور بعد انتهاء فتـرة العمل في التاسـعة مسـاء، ولكنـه اعتـذر لارتباطه بحضـور فعاليات الشارقة المسـرحية، وطلب مني أن أتصرف!

انتهـزت عـزة سـليمان ارتباكي، بعـد أن أنهى منصور اتصالـه بي، ولما عرفت مشكلتي، تطوعت قائلة بمرح:

- لا تقلق... سأوصلك حتى باب شقتكم.

ثم أضافت ضاحكة:

- لا أريد أكثر من درهمين!

في الطريق من الشركة – التي تتخذ موقعًا كبيرًا في منطقة «ديرة» – إلى الشارقة، اقترحت عزة سليمان أن نتناول الشاي في مقهى الفنانين في منطقة «الممزر». لم تجعلني أفكر في اقتراحها؛ إذ سرعان ما قالت:

- أنا صاحبة الدعوة.

ثم استطردت وهي تنحرف بالسيارة شمالاً من عند مول «الملا بلازا»:

- سأنتظر دعوتك لي عند استلامك أول راتب.

كانت تنشر رذاذ أنوثتها الآسرة في كل إيماءة وكل كلمة، وهي تقود سيارتها الميتسوبيشي البيضاء بثقة واقتدار. كنت مضطربًا بصورة لافتة، فلأول مرة طوال حياتي أضبط قلبي يرفرف هكذا، مسكونًا بحبور كبير نحو الفتاة التي أسرتني، وممتلئًا بمشاعر لم أتذوق مثلها من قبل. لا ليست مشاعر جنسية رخيصة كالتي تعتريني كل ليلة، أو كالتي جرجرتني نحو أسرّة هند وإيرينا وسوما. إنها مشاعر حريرية... بيضاء... تدفعني لأن أطير سرورًا وسعيدًا؛ متجاوزًا أزمتي المتفاقمة في مخادع الغانيات.

في هذه الليلة، وعلى مقهى الفنانين، أحسست أننا متشابهان، فهي ابنة فقر مثلي، وهي تقطن في حي «السوّاح»، هذا الحي المتهالك، مثلما تربيت أنا في دمنهور شبرا. وهي لها عدد كبير من الأشقاء والشقيقات، قد يكون أكثر مما لي، ولكنها على أية حال نشأت في بيت مزدحم وفقير كما حدث معي!

لكن نقطة الخلاف الجوهرية تتمثل في الموقف من الأب.. هي تعشق والدها وتقدّر كفاحه كلما سنحت لها الفرصة، بل أظن أنها تتحايل في الكلام لتأتي على ذكره معلنة اعتزازها به وحبها الشديد له. أما أنا، فلا أكف عن صب اللعنة في داخلي على والدي حيًّا وميتًا. ولا أطيق أن آتي على ذكره أبدًا مع أي أحد، بل أتهرب سريعًا إذا سُئلت عنه، مثلما حدث مع عزة نفسها حيث قلت لها: «إنه متوفًى وكان ضابطًا متطوعًا في الجيش بالإعدادية»، ولم أزد حرفًا واحدًا بعد ذلك.

الحق أقول لكم: إن هناك نقطة خلاف أخرى جوهرية ومهمة، تتمثل في نجاحها وإخفاقي، في تألقها وشحوبي، في جرأتها وجُبني، في اعتدادها بنفسها وارتباكي! لكن يبدو أن هذه الفروقات لعبت دورًا فعّالًا في انشدادي إليها، وتوقي الدائم إلى البقاء معها إلى الأبد.

المدهش أن عزة سليمان كانت تتعامل مع زملائنا في العمل بقلب سالم، وروح مرحة دومًا، على الرغم من أنهم يمثلون جنسيات مختلفة؛ الأمر الذي يجعل أشواك الغيرة تنمو في ساحة الشركة بيسر. فمدير المعرض مثلًا رجل لبناني، وهناك موظفون وموظفات من مصر وفلسطين وسوريا والأردن ولبنان وتونس وباكستان والهند والفلبين. ومع ذلك شيّدت عزة صداقات حقيقية مع ثلاث فتيات: إيناس الفلسطينية ومادلين اللبنانية، اللتين فاجأتا عزة بزيارة غير متوقعة إلى القاهرة، وهيام السورية؛ حيث كنت ألاحظ أحاديثهن المستمرة معًا، وضحكاتهن المكتومة غالبًا.. كما كن حريصات على تناول الطعام معًا، فيطلبن البيتزا أو وجبات الغداء من مطعم الشامي القريب من الشركة.

كذلك لم تخجل عزة سليمان من التعامل مع الشباب في الشركة بالروح نفسها، حيث كان يعاملونها بود واحترام مثلما رأيت.. كان مناخ العمل في الشركة مغايرًا بصورة كبيرة عن أجواء العمل في كارفور، فلا وجود كثيف لجنسية معينة، تفرض نفوذها وتخدم مصالحها فحسب، يدعمها في ذلك مدير بائس من الجنسية ذاتها مزوّد بغريزة إيذاء الآخرين، كما كان يفعل موسى الوحش. ولا مديرنا اللبناني يسمح بازدهار أحقاد ومرارات في نفوس مرؤوسيه؛ إذ سرعان ما يسعى بهدوئه الجميل إلى تبديد وإزالة أي خواطر سلبية أو جروح محتملة. حقًّا لقد كان مثالًا للمدير الناجح الذي يحظى بتقدير وحب الجميع كما لاحظت. حتى أنا شخصيًّا وجدتني أتابع بإعجاب رصانته في الحديث، وطريقة إدارته للشركة، وكيفية تعامله معنا نحن الموظفين الصغار، فضلًا عن أناقته الشديدة، التي تطلق حوله هالة من الافتتان والجاذبية، والتي تذكرني بأناقة الأستاذ صلاح الغندور.

صحيح أن هناك موظفة سورية منفّرة كانت تكره عزة وتضمر لها سوءًا، لكن هذا الكره وهذه النية السيئة لم تكن مقصورة على عزة سليمان فحسب؛ إذ إن أحقاد وسموم سمر عز الدين طالت كل النساء اللاتي يعملن في الشركة – ولم يسلم من لدغاتها الشباب أيضًا – وإن كان نصيب عزة سليمان هو الأكبر؛ نظرًا لكونها الأكثر كفاءة ونجاحًا.

وقد علمت من عزة أن مديرنا اللبناني تحمل ألاعيب وهواجس سمر عز الدين كثيرًا، وأنذرها كثيرًا أيضًا.. فلما أخفق في ضبط وإحكام جهازها النفسي الشرير، أنهى خدماتها غير نادم، في الوقت نفسه، الذي كنت أصارع فيه جدران زنزانتي وأنا أتوقع حكمًا بالإعدام!

حصافة منصور ابن خالتي جعلته ينصت إلى دقات قلبي باهتمام من دون أن أدري، بل ويتابع شرودي الليلي اللذيذ وأنا غافل عنه؛ إذ باغتني فجأة:

- محمد... قل لي مَنْ هي؟

نزل عليّ سؤاله كالصاعقة... فجاوبته، بعد توتر وبصوت خفيض:

- مَنْ؟

- يا عزيزي... أنا عليم بدقات القلوب!

قال لي ذلك وهو يضحك. كنت أشاهد التليفزيون آنذاك، أو بتعبير أكثر دقة، كانت عيوني مسددة نحو التليفزيون، لكني لا أرى إلا وجه عزة سليمان الصبوح. بينما كان منصور يتابع حصاد اليوم على قناة الجزيرة، ويبدو أنه لاحظ شرودي، فاسترق السمع إلى دقات قلبي، فلما تأكد أنها دقات غرام، سألني بثقته المعهودة عن من تكون تلك التي استعمرت فؤادي وفقًا لتعبيره!

بطبيعة الحال، كان من الحماقة أن أخفي أسراري الغرامية الجديدة عن منصور، وهو الذي يعرف أدق التفاصيل عن خيباتي الجنسية مع هند وإيرينا وسوما، فكيف أداري عنه هذا الحب العفيف والجميل؟ كما أنني كنت أتوق بشدة لأن أتحدث عنها وعن مشاعري الطازجة، التي تزورني لأول مرة.

قلت له كل شيء. حكيت له افتتاني برقتها، وانجذابي لأدائها، واختلاسي النظرات لمتابعة تحركاتها داخل المعرض. سردت له طريقتها في البيع،

وتصرفاتها مع الزبائن، بل لم أستح أن أخبره عن مساعداتها الدائمة لي، من أول سندويتشات الجبن واللانشون والبيض، التي تحضرها معها لنتناول إفطارنا معًا، حتى شرحها المتواصل لفنون البيع وجذب العملاء!

كنت أتحدث عنها بفرح، وكان قلبي كلما ذكرت اسمها رقّ ورفرف، وكنت أتحايل وأنا أتكلم لأذكر اسمها مرة ومرات، لأني اكتشفت مؤخرًا لذة أن يذوب الفؤاد كلما نطق اللسان باسم الحبيبة!

تابع منصور حديث الشوق هذا باهتمام بالغ، لم يقطعه سوى اتصال من سمية الأبراشي؛ حيث تركني ليحدثها من غرفته بصوت خفيض. عمومًا لم يغب عني سوى خمس دقائق، وعاد متلهفًا لمواصلة الإنصات، خاصة أنه رآها يوم إعلان خطبته على سمية الأبراشي. فلما توقفت عن السرد بعد أن أفضت في الكلام عن عزة وأخواتها وأبيها، نهض منصور فجأة وأمرني أن أتبعه إلى المطبخ، حيث أعد لنا كأسين من الويسكي «رد لابل» الذي يفضله دومًا، مع طبق سلطة خضراء وزيتون مخلل. لم يكن منصور يشرب الخمر إلا مرة أو اثنتين على الأكثر كل أسبوع. وفي كل مرة لا يتناول أكثر من كأسين من الويسكي، وإن كان أحيانًا يستبدله بالبيرة، وتحديدًا «الكورونا» المكسيكي، التي كنت أفضلها أنا أيضًا نظرًا لمذاقها المسالم والهادئ. أما أنا، فلم أجرؤ على تناول البيرة أو الويسكي منفردًا، حتى في أيام إقامتي وحيدًا من دون عمل في شقة منصور؛ ذلك أن منصور هو من يشتري الخمر وهو الذي يعمل، فكيف أقدم على تناول هذه الخمر وهو ليس معي؟ على الرغم من تشجيعه لي، حيث كان يقول دائمًا:

- عندما تريد أن تشرب لا تنتظرني... اشرب.

لكنني لم أفعل من باب الخجل. وكم من مرة فتحت باب الثلاجة وأخرجت زجاجة الكورونا، وهممت بنزع غطائها، لكنني تراجعت في اللحظة الأخيرة، وأنا ألعن نفسي «كيف أشرب وأنا عاطل؟ كيف أشرب ما لم أدفع فلسًا واحدًا في ثمنه؟».

- حكايتك تحتاج إلى الخمر لاستيعابها.

هكذا قال لي منصور ضاحكًا ونحن نخرج من المطبخ، هو يحمل كأسي الويسكي، وأنا بيدي طبق السلطة والزيتون.. جلس منصور على الكنبة مادًّا قدميه على المنضدة، وفي يده اليمنى كأس الويسكي - منصور لا يتعاطى الخمر إلا في كأس، ويندد دومًا بمن يشربها في كوب زجاج - أما يده اليسرى ففيها سيجارة كعادته. وزّع منصور نظره بين التليفزيون وبيني بعد أن تناول أول جرعة، بينما كان كياني كله موجهًا إليه، أنتظر بشغف رأيه في حكاية غرامي.

- هذه الفتاة تحبك.

- هه!

ندت عني صرخة فرح من دون قصد.. بإيقاع صوتي رزين ضاغطًا على كل حرف، حتى يخرج واضحًا مكتملًا، كرر منصور عبارته الساحرة، التي أضاءت فؤادي:

- هذه الفتاة تحبك.

بغض النظر عن قلبي الذي لا أدري أما زال في مكانه أم خرج من جسدي؟ فإن ما قاله منصور دغدغ ذكرتي إلى أقصى حد، ولكنه فتح باب الأسئلة التي لا تنتهي.

- كيف عرفت يا منصور؟

أعاد منصور وضع جسده فوق الكنبة بصورة أخرى، بعد أن أرجع قدميه إلى الأرض، ثم نظر إليّ برهة قبل أن يتحدث مدعومًا بخبرة عاشق قديم قائلًا:

- هذا الاهتمام الشديد بك من قبل عزة لا يمكن تفسيره إلا وفق قوانين الغرام.

ثم أضاف وهو يطفئ سيجارته:

- ألا تحضر معها كل يوم سندويتشات لجنابك كما تقول؟

- نعم... نعم.

رجع منصور بظهره نحو مسند الكنبة، وأعاد وضع قدميه على المنضدة، وهو يتناول رشفة من الويسكي، ويهتف باسمًا:

- إنه الحب يا عزيزي!

كانت هذه أول مرة ألحظ فيها الشعر الكثيف في ساقي منصور الممددتين أمامي، حيث يرتدي منصور «شورت» كعادته طالما كان في المنزل، يعلوه «تي شيرت» من القطن.. بعكسي أنا الذي لا أرضى عن البيجاما بديلًا.

لقد فسّر لي منصور حكاية السندويتشات، التي بدأت عزة تصر على تجهيزها وإحضارها لي كل يوم بعد شهرين من التحاقي بالعمل في الشركة، وبعد أن أصبح خروجنا معًا إلى مقهى المعزر أمرًا طبيعيًا أشتاق إليه، ولا تمانع هي في مجاراتي.

- السندويتشات رمز الحب.

كرر منصور هذه العبارة أكثر من مرة، ثم هبّ ليأتي بمزيد من الثلج، وهو يعلن بثقة:

- إنها تبحث عن زوج... فانتبه!

ملعون منصور ابن خالتي... كيف لم أنتبه إلى ازدهار اهتمامها بي ورعايتها لي من يوم إلى آخر، على الرغم من أنني لم أصرّح لها ولو من بعيد أنني أحبها، أو أنها تحتل مكانًا مرموقًا في فؤادي.

لم أجرؤ على الإفصاح أبدًا، ولا أعرف كيف احتملت خمسة أشهر كاملة من الالتصاق بعزة سليمان نفسيًا ومعنويًا، من دون أن أبوح لها بحجم تأثيرها في حياتي.

في تلك الليلة نمت سعيدًا ونامت عزة على الوسادة الخالية بجواري، أو هكذا تخيلت أنها تشاطرني السرير نفسه باعتبارها امرأة حياتي القادمة... حياتي الجميلة، حيث أصنع معها أسرة وديعة وننجب أربعة أبناء: ولدين وبنتين. وأكون أبًا رحيمًا بهم صديقًا لهم، لا أبًا فظًّا غليظ القلب مثل أبي.

غدًا... غدًا سأستجمع كل طاقتي وأحاول أن أخبرها، أو أن ألمح لها أولًا أنني بها شغوف وبأنوثتها مفتون! وأنها كنز حياتي الذي وجدته أخيرًا.

غـدًا... غدًا... سـأسـتعيذ بالله، فأنا أطلبها في الحلال... نعم سـتوافق وسـيعضدني المولى في رجائي. وسـأتجاوز محنتي ومأسـاتي مع هند وأخواتها البائسـات، اللاتي فضحن عجزي وسخرن مني!

هكـذا نمـت في تلـك الليلـة مشـمولًا بأحلام خضـراء وأمنيـات بلون الورد، ولكنني لم أكن أعرف أبدًا أنها لن تأتي في الغد، وأنني سأحرم منها نهـارًا بكامله، وأنني في الليل سـأكون مكبّل اليدين يجرني رجال الشـرطة بملابسـي الداخلية نحو السـجن، بينمـا صراخ أمجد صفـوان يثقب أذني، عندما مرّ بجوارنا رجال الإسعاف وهم يحملون جثة إيرينا الروسـية!

***

25

الخطوبة

- ألف ألف مبروك يا منصور يا حبيبي.

- ألف مبروك يا بني... عروستك جميلة ورقيقة.

كنت أتابع حديث خالتي عنايات وهي تبكي فرحًا، بينما منصور يقبّل وجنتيها ويديها في مطار دبي بين مئات من الهنود والباكستانيين، الذين مرّوا على هذا اللقاء التراجيدي ولم يتنبهوا في الأغلب.

سمية الأبراشي أيضًا لم تتمكن من التحكم في دموعها، فذرفت قطرتين، لم تؤثرا على نعومة بشرتها ورونقها هذا المساء.

أول من انتبه لوجودي وسط فوضى الخروج من المطار، كان الأستاذ عبد العليم والد منصور، حيث انشغلت خالتي بابنها وعروسه، تتلمس هذا وتتحسس تلك، ولم تلتفت إلى وجودي، إلا بعد أن سمعت زوجها يصافحني ويعزّيني. فصنعت مثلما صنع، وإن كانت قد احتضنتني بقوة، وهي تهمس في أذني:

- والدتك ستُجن لرؤياك.

كل شيء في الأستاذ عبد العليم زوج خالتي زاد: وزنه وحجمه وشعره الأبيض، حتى سُمك زجاج نظارته! لقد امتلأ الرجل كثيرًا وتكوَّر كرشه أمامه بصورة غير لائقة، كما أن البياض استطاع أن يقهر مساحة كبيرة من سواد شعره الناعم، ولكن وسامته ما زالت قادرة على جذب الانتباه على الرغم من عمره الكبير، أظن أنه تجاوز الستين الآن. أما خالتي عنايات، فكانت هذه أول مرة أراها فيها تغطي شعرها هكذا بإيشارب بني مزدان بزهور صغيرة صفراء، وقد لاحظت أنها امتلأت أيضًا بصورة كبيرة، وأن حركاتها أبطأ مما كانت، ولكن روحها المرحة لم تفارقها بعد، وغرامها بزوجها ما زال متقدًا، فما تنطق بحرف إلا وتلتفت إليه، سائلة إياه إن كان ما تقوله صوابًا أم لا؟ وكان الرجل كريمًا مع زوجته، حفيًّا بها، لا يعارضها قط، ولا يسفِّه ما تقول أبدًا. وإن لم يوافقه رأيها وكلامها، كان يشرح لها بلباقة خطأ الرأي الذي ذهبت إليه، من دون أن يشعرها بأي حرج، فتعود لتوافقه تمامًا، حيث تنتصر لما قال، وتهجر رأيها القديم من دون لحظة ندم واحدة، أو إحساس بالإحباط.

هذا ما لاحظته بقوة وأنا أتابع أحاديثهم، سواء ونحن في مطار دبي، أو داخل سيارة منصور، أو ونحن نتناول عشاءنا تلك الليلة في مطعم فرحات.

منصور الذي يرفل في ثياب سعادة لم أرها من قبل، كان قد استدعى والديه من مصر ليتعرفا إلى سمية الأبراشي وأهلها، ويحضرا حفل خطبته لها، إذا راقت لهما الفتاة، وباركا هذه الزيجة. في الطريق من المطار جلست بجوار منصور، الذي قاد سيارته برفق، بينما جلست سمية الأبراشي بين

والديه في المقعد الخلفي. لم يتوقف منصور عن السؤال عن إخوته طوال الطريق، وعن شرح الأماكن والشوارع التي نخترقها. وقد تلقى اتصالين أثناء سيرنا على موبايله من الأستاذ صلاح الغندور وعبد الله راشد، حيث كان كل منهما يطمئن على وصول والديه بالسلامة ويبلغونهما التحيات الحارة.

في مطعم فرحات، همهم الأستاذ عبد العليم بعبارات تمتدح البلد ومطارها ونظافتها ونظامها المروري، في الوقت الذي تأتي فيه على القاهرة التي شاخت وباخت، وصارت مدينة لا تطاق كما يقول. كان يرتدي بدلة أنيقة نسبيًا رمادية اللون فوق قميص أبيض من دون ربطة عنق.. وكان حليق الذقن كعادته، أما شاربه الرقيق، فلم تبق منه شعرة سوداء واحدة.

لم تتوقف خالتي عنايات عن مراقبة سمية الأبراشي أثناء تناولها الطعام، كما لم تكتفِ بالأسئلة التي وجهتها إليها، ونحن في الطريق، عن أسرتها، بل كررت بعضها واستولدت أسئلة جديدة من أسئلتها القديمة!

في هذا العشاء تألقت سمية الأبراشي بصورة مدهشة، فقد تعاملت مع حماتها القادمة بود وحذق، فزرعت في قلبها أشجار الطمأنينة؛ لأن الفتاة التي سيقترن بها ابنها فتاة مهذبة من عائلة محترمة وراقية، وأنها تعرف الأصول تمامًا، وأن منصور بالنسبة لها رجل حياتها و بطل أزمانها الآتية.

لا أخفي عليكم أن المشهد كله برمته كان يغريني بمقارنات عدة، فها هو منصور يعلن رغبته في الزواج بصورة علنية، بعد تجربة سرية مع صفاء الشرنوبي، لم يعرف بها أحد سوى بدر المنياوي رحمه الله وزوجته. ترى أين هي الآن؟ وماذا تفعل بعد أن احترق جسد زوجها و تفحّم؟

لقد تكلف منصور آلاف الدراهم؛ من أجل دعوة والديه إلى دبي ثمنًا لتأشيرات وتذاكر طيران وهدايا... إلخ.. كل ذلك حتى «يفرح والديّ بي، فأنا أحبهما ومدين لهما بالكثير»، كما قال لي.

ترى هل كان من الممكن أن أخبر أبي قبل وفاته بأنني أفكر في الزواج؟ لم يكن يدعني أكمل العبارة؛ حتى ينهال عليّ تقريعاً بألفاظه البذيئة، آمراً إياي ألا أفكر في هذا الأمر الآن: «تتزوج... وهل تملك المال اللازم لذلك؟ ألا تفهم... إن شقيقتيك لم تتزوجا بعد، فما هذه الأنانية أيها الحيوان؟».

- كيف أحوالك في العمل يا محمد؟

طردت الخاطر الرديء، وبذاءته الذي راودني عن أبي فورًا، عندما انتبهت إلى سؤال الأستاذ عبد العليم، الذي كان يلتهم قطعة كباب بشهية مفتوحة، وقبل أن أجيب أعادت خالتي عنايات السؤال نفسه، مضيفة إليه أن أمي قلقة جدًّا عليّ:

- الحمد لله... أحوالي بخير.

ثم أردف منصور، وهو ينظر إليّ باسمًا:

- لقد وجد عملًا ممتازًا في شركة الحبتور للسيارات منذ شهرين.

أما سمية، فخاطبت خالتي بحميمية، وكأنها فرد من أفراد الأسرة:

- محمد إنسان طيب ومنصور يحبه كثيرًا.

- طبعًا يا ابنتي... إنهما شقيقان وتربيا معًا منذ الصغر.

فجأة ومن دون مقدمات، أطلق الأستاذ عبد العليم هذا السؤال في وجه منصور، بعد أن مسح عن فمه بمنديل ورقي آثار الطعام:

- ما موقف الناس هنا من إعدام صدام حسين؟

استبشر وجه منصور، فهذه قد تكون المرة الأولى، التي لا يطرح فيها الأسئلة على أبيه، بل العكس هو الذي يتم. بأدب شديد تحدث منصور عن طبيعة الشعب العراقي التي لا نعرفها نحن في مصر كما يزعم، فهو شعب شديد التنوع يضم أطيافًا عدة، حيث هناك مسلمون شيعة، ومسلمون سنّة، وصابئة ويزيديون وآشوريون، ومسيحيون وعرب وأكراد وتركمان، وقبائل وعشائر... إلخ.. كل هذا التنوع الجميل - يقول منصور - لم يدفع صدام إلى الاستفادة منه وإثراء مجتمعه، بل اعتبر البطش و الاستبداد ضرورة حتمية للسيطرة عليه وضبط إيقاعه، ثم هتف منصور بأداء مسرحي:

- أبي... كل العراقيين الذين أعرفهم هنا يكرهون صدام!

وبعد أن بلع ريقه، أكمل:

- بعد احتلال بغداد... استقبلت الإمارات عشرات الآلاف منهم، أولئك الذين فرّوا من الحرب... لقد كان الشيخ زايد كريمًا معهم إلى أقصى حد.

- حقًّا، فقد هبطوا مصر أيضًا بمئات الآلاف كما يقولون، وقد وجدوا راحتهم في مدينة 6 أكتوبر.

كنت أتابع حديث الأب والابن باهتمام أول الأمر، ولكن مع إسراف منصور في الحديث عن جبروت صدام فَتُر حماسي لأني استمعت إليه

كثيرًا يـردد الكلام نفسـه، والحكايـات ذاتها عـن جرائم الرئيـس العراقي المخلـوع.. تلك الحكايـات الموجعة التي كان يقصهـا عليه أصدقاؤه من الأدباء والصحافيين العراقيين، الذين أحبهم منصور كثيرًا كما أخبرني.

وهكذا وجدتني أزيح وجه صدام الجبار من دون قصد، لأستقبل وجه عزة سـليمان البشـوش.. اسـتعدت بفرح حوارنا في الصباح عن أحلامها، وكيـف تخطط لحياتها، وما الوقـت الذي تنوي أن تظل فيه في دبي؟ ومتى سـتقرر العـودة بصـورة نهائية إلى مصـر؟ كنت أسـألها بحمـاس، وكانت تجاوبني برضا، بل وترد إليّ أسئلتي طالبة مني أن أجيب أنا.

في هذا اليوم، شعرت أن عزة سليمان تتسلل برفق إلى أوردتي، فتسكن خلايـاي، وتغرّد على أبواب شـراييني.. لكنني لم أجـرؤ أبدًا على أن أبوح لهـا بالأزهـار الملونة التي تتكدّس في قلبي كلمـا رأتها عيناي، ولا أنا قادر على أن أشرح لها كيف أصبحت أعشق فيروز - على الرغم من أنني لا أفهم نصف كلامها - لأنها مفتونة بأغنياتها وموسيقاها!

لم أشـعر طوال حياتـي بالفرح هكذا من قبل، كما لم ينتابني إحسـاس مرعـب هكـذا بالإخفاق، لو أن عزة اسـتقبلت مشـاعري السـاخنة نحوها بفتـور، فأنـا لا أحتمل وخز الصـد، بعد أن ذقت مـرارة العجز. كما لا أظن أنني أصلح للحياة، من دون أن تلوّنها عزة بابتسـامتها المشـرقة.

- هل أنت مرتبط يا محمد؟

أذكـر جيـدًا كيف وقع سـؤالها عليّ كالصاعقة.. كنـا نجلس على مقهى الفنانين في الممزر، وكانت قلقة نسـبيًّا - لا أدري لماذا؟ كانت ترتدي بلوزة

حمراء بنصف كم وبنطلون جينز أسود. كنا منهكين من العمل طوال النهار، وكنت سعيدًا بصورة كبيرة؛ لأنني تمكنت من بيع سيارتين لأول مرة في يوم واحد منذ التحقت بالشركة، فاقترحت عزة دعوتي إلى تناول الشاي ابتهاجًا بهذا الحدث. بصراحة، كان كل منا ينتهز أي فرصة - ولو تافهة - ليدعو الآخر إلى الخروج معًا لتناول الشاي.. صحيح أن عزة كانت الأمهر في اقتناص الفرص واختلاقها، ولكنني تجرأت قليلًا ودعوتها غير مرة.

«مرتبط»... هل يمكن أن يأتي يوم، وأفض فيه صندوق أسراري المخزية مع هند وإيرينا وسوما أمامك يا عزة؟ مستحيل.. لكن سؤالها عن ارتباطي كشف لي حجم الورطة التي أوقعت فيها شبابي؛ حيث إنني لم أعشق من قبل، ولم أتدله في هوى فتاة، أي فتاة من قبل. وأنني لم أحاور القمر في ليالي السهر كما يفعل العشاق المغرمون، كما أنني لم أنعم لحظة برؤية الحبور في عيون أي فتاة وأنا أهديها وردة. ياه... ثلاثون عامًا لم أحصد فيها سوى مرارات خيبة جنسية مزعجة ومخجلة.. ثلاثون عامًا لم أكتب فيها جملة عشق واحدة تقربًا لأي فتاة، كما يفعل المحبون على مر العصور.. ثلاثون عامًا لم أنتظر بشغف مقدم فتاة على أول الطريق.. ثلاثون عامًا لم أضبط نفسي فيها شاردًا، أفكر في ملامح حبيبة أو معشوقة.

لا... يا عزة... لن أجرؤ قط على أن أبوح لك برصيدي الشحيح مع المرأة؛ لأنها مجرد مغامرات خائبة على سرائر الداعرات!

قلت لها بهدوء، وبصوت أظنه يضج بحزن جليل:

- لا... لست مرتبطًا.

أعتقد أن فراشات ملوّنة انطلقت من عينيها، حين قلت لها ذلك؛ لأنها بادرتني بسؤال نطقته بمرح حقيقي ورغبة لم تتمكن من إخفائها:

- ومتى تنوي الزواج... أقصد الارتباط؟

آه... لماذا تضغطين على الوتر الحساس يا عزة؟ زواج...! هل أنا قادر على ممارسة الزواج؟ هل يمكن أن تقنع بي فتاة، أي فتاة، إذا عرفت السر؟ هل يمكن لك أنت يا عزة أن تشاطريني الحياة إذا علمت أن هناك خطرًا داهمًا يهدد أنوثتك، وهو أنني قد لا أستطيع أن أمنحك سحر اللذة ونعمة الأمومة؟

- عندما يشاء الله.

آسف يا عزة... لم أستطع أن أقول أكثر من ذلك.. لا أدري حجم مشاعرك نحوي، ولا أملك أي يقين بأنني إذا تقدمت تجاهك قليلًا، ستستقبلينني بترحاب!

أذكر الآن جيدًا أن الابتسامة لم تفارقها، على الرغم من أنني لم أشبع طموحها، أو أروي ظمأها الأنثوي بكلمة تطمئن فؤادها بأن يومًا ما سوف أطلبها للاقتران، كما قالت لي بعد أن تخلصت من أزمتي معها، التي استمرت ستة أشهر منذ زواجنا.

- الحساب من فضلك.

بصوته القوي وهو ينادي على جرسون مطعم فرحات، أخرجني منصور من حلم جميل بطله عزة الجميلة، مثلما أدخلتني جثة إيرينا بعد ذلك بأسابيع إلى كابوس مخيف!

***

26

أنا ... مرة ثالثة

هـذه أول مرة أدخل فيها ڤيللا في دبي، كما أنها أول مرة تلتقي فيها عزة سليمان مع سمية الأبراشي. كان اليوم الرابع لعيد الأضحى المبارك، وكان صدام حسين قد أعدم في أوله، فأثار لغطًا بين الناس سرعان ما انتهى.

لم أشارك في هذا اللغط، وإن كنت أجامل مَنْ يسألني، فإن كان ضد إعدام صدام أوضحت لـه أنني متعاطف مع رأيه. وإذا كان يرى أن الرئيس العراقي يستحق الشنق، لم أعترض.. لكن نسمة الهواء في هـذه الليلة كانت أكثر من منعشة، وأرق من صدام حسين ألف مرة! أما حديقة الڤيللا، فينبعث منها أريج زهور نادرة، وأشجار لا أعرف اسمها ترطب الوجدان وتشرح الصدر.

قد تكون هذه أجمل هيئة بدا فيها منصور؛ فهو عريس الليلة الذي ارتدى بدلة كحلي فوق قميص وردي اللون، و«بيبون» كحلي أيضًا، ولبس رابطة عنق. كان يشع أناقة في هذا المساء. أما سمية الأبراشي، بطلة هذه الليلة بامتياز؛ فقد حرصت على أن تبدو بسيطة ورقيقة في آن واحد، من خلال

ارتدائها فستانًا ورديًا يلائم مناسبة الخطبة، كما أنها قامت بتصفيف شعرها بطريقة بديعة، فكان الهواء الخفيف الذي يسري بين الشجر يداعب هذا الشعر ويربك انتظامه؛ فتعيده سمية إلى وضعه بحركة رشيقة من يدها.

اتسعت حديقة الفيلا الكائنة في منطقة القصيص لاستقبال عدد محدود من المدعوين، الذين نثروا أنفسهم كيفما اتفق على المقاعد المريحة في الحديقة، أو داخل حجرة الاستقبال في الفيلا.

والد سمية - صاحب الفيلا - كان يبذل جهودًا جبارة لتوفير الراحة للضيوف، فكان يصول ويجول داخل وخارج الفيلا، مرتديًا بدلة بني أنيقة تسبقه ابتسامة رسمية لا تخلو من لطف، يرحب بحرارة ويصافح بحماس، حريصًا على أن يخص كل فترة الأستاذ عبد العليم وخالتي عنايات بالتحية والترحاب.

أما والدة سمية، فقد بدت كأميرة سابقة وهي تتأنى بفستانها الأحمر الطويل، الذي يبرز مفاتن جسدها الممتلئ قليلًا، والذي يناسب سيدة تجاوزت الخمسين. وقد تركت شعرها الأصفر - أظن أنه مصبوغ - يتدلى على كتفيها براحته.. للحظة اعتقدت أنها تشبه الممثلة ليلى طاهر، ولكن حين دققت النظر في وجهها خلسة، وهي توجّه الخادمات الفلبينيات، نحو مزيد من إتقان العمل، لم أجد هذا الشبه!

وقفت أرقب باب الفيلا يعتريني توتر لذيذ، فقد دعوت عزة سليمان إلى حضور الخطبة، كما طلب مني منصور، بل لقد تحدثت معها تليفونيًا ودعاها بنفسه. كذلك فعلت سمية، الأمر الذي جعلني أشعر بفرح كبير؛

لأن ابن خالتي وعروسه يهتمان بي، ويسعيان لأن يوفرا ما يحقق لي قدرًا من السعادة.

لقد أكدت عزة أنها في الطريق، فلماذا تأخرت هكذا؟ هل ترددت في المجيء فقررت العودة من حيث أتت؟ إن التردد ليس من خصال عزة، فأين هي إذن الآن؟

حين دلف الأستاذ صلاح الغندور من باب الفيلا، تأبط ذراعه زوجته الدكتورة منى رشاد، أيقنت أن منصور خسر معركة الأناقة هذه الليلة؛ فالرجل لاح لي كشهاب لامع يخترق ليل الفيلا؛ إذ ارتدى بدلة ناصعة البياض فوق قميص وردي و«بيبون» أحمر. أما الحذاء فلم أرَ شبيهًا له من قبل، فقد كان شديد البياض أيضًا. هذه الهيئة المدهشة للأستاذ صلاح وابتسامته البراقة، دفعت الخادمات الفلبينيات إلى الافتتان به كما لاحظت، وذلك من خلال نظرات عيونهن، وإصرارهن على تقديم المشروبات له طوال الوقت.

«إنه نجم سينما بامتياز» هكذا قلت لنفسي بصوت مسموع، في حين ارتدت زوجته الدكتورة منى رشاد فستان سهرة أسود مفتوح من الصدر يبرز مفاتن جيدها وانسيابيته، التي توافق ملامحها الرصينة والهادئة.. لم تضع الدكتورة من الاكسسوارات و الماكياج إلا القليل الذي يؤكد تناسق الوجه وملاحته. «إن الأستاذ صلاح و زوجته يبدوان كعريسين جديدين هذه الليلة»، هذا ما قاله لي منصور بعد أن استقبلهما بحفاوة.. بعد التحايا والمصافحات والمجاملات الرسمية، جذب عبد الله راشد الأستاذ صلاح نحو زاوية في حديقة الفيلا ذات إضاءة أقوى؛ ليطلعه على قصيدته

الجديدة. تابعتهما بعيون قلقة وقلب مضطرب، حتى أنارت ليل الفيللا فتاة أحلامي بوجهها الملائكي.

كانت هذه أول مرة أرى فيها عزة سليمان ترتدي فستانًا، والمرة الثانية كانت فور خروجي من السجن، فطوال الوقت كان البنطلون الجينز صديقًا مخلصًا لها، ولكن في هذه الليلة تجلّت عزة كعروس من السماء بفستانها الأزرق الرقيق، وشعرها الأسود الناعم المصفف بطريقة فريدة هذا المساء.. باقة الورد الضخمة والبديعة التي قدمتها عزة إلى العروسين فسّرت لي سبب تأخيرها.

- لا يمكن أن أراهما لأول مرة، وفي حفل خطبتهما، ولا أقدم لهما وروداً!

هذا ما قالته لي موضحة سبب تأخرها، حيث مرّت على ثلاث محلات تبيع الورد؛ لتنتقي أرقها وأجملها.

حقًّا يا عزة... ما أروعك. كيف لا تفوتك هذه اللمسات الرقيقة، بينما أنا جئت هكذا لا ورد ولا هدية ولا يحزنون! وليس عندي حُجّة، فأنا أعمل الآن وأتقاضى راتبًا، فكيف لم أنتبه إلى هذا الواجب الاجتماعي؟ هل لأنني لا أعد منصور شخصًا غريبًا عني، ومن ثم لا ضرورة لتقديم الهدايا إليه؟

ولما سألتني عزة: ماذا أحضرت لهما من هدايا؟ أجبتها بلا مبالاة: لا شيء.

أذكر جيدًا وجهها وهو غارق في بحر الذهول.. وأذكر جيدًا عتابها الهامس لي بأن هذا لا يصح ولا يليق.. وأذكر جيداً كيف رددت على

مسامعي الحديث الشريف «تهادوا... تحابوا»، وهي تؤكد أن هذا الحديث الشريف هو شعارها في الحياة.

وددت لحظتها أن تنشق حديقة فيللا سمية الأبراشي وتبلعني من فرط الخجل.. لا لأنني لم أسمع بهذا الحديث من قبل، بل لأن رصاصات اللوم التي انطلقت من عيني عزة سليمان، وهي تلقنني درسًا في الأصول والأعراف، كانت أقسى مما تحتمل روحي. ومرة أخرى أحسست بمدى وضاعتي، وبأنني شاب فاشل. وها هي عزة سليمان تكتشف عيبًا من عيوبي، التي لا تنتهي فيما يبدو، ولكنها لم ترحمني، وأبدت امتعاضها الشديد لكوني لم أهتم بمناسبة استثنائية كهذه، فأكرم أصحابها بهدية مهما صَغُر شأنها.

أنقذني منصور من تقريع عزة المتواصل، عندما ظهر بيننا فجأة سائلًا:

- ما رأيكما في أغنيات الحفل؟

اكتشفت أنني حتى هذه اللحظة، لم أنتبه إلى الأغنيات التي تنبعث من جهاز الكاسيت، الذي وضع في أحد أركان الحديقة، ولكن عزة تعاملت مع سؤال منصور بحصافة قائلة:

- أغنيات رائعة... من قام بتجميعها؟

بثقة عريس مرغوب ومحبوب، هتف منصور:

- أنا... لقد ظللت يومين أعد هذا السي دي.

انضمت سمية الأبراشي إلينا، وشادية تشدو «يا دبلة الخطوبة عقبالنا كلنا»، فقالت بفرح:

- أحب هذه الأغنية كثيرًا.

ابتسمت عزة وهي ترنو إلى سمية، ثم عقّبت:

- وأنا أيضًا.

- عُقْبى لك يا عزة.

سأظل حتى أموت مندهشًا: كيف ومتى تابعت عزة سليمان الإنصات إلى هذه الأغنيات، وهي لم تتوقف منذ أن دخلت من باب الفيلا عن ملاحقتي بسهام التأنيب؟ رمقتها وهي تبتعد عني قليلًا؛ لتدخل في حديث هامس مع سمية الأبراشي. كانت لا تقل فتنة عن عروس الليلة. وكنت خَجِلًا جدًّا منها، ولا أدري ماذا أفعل لأسترد ثقتها فيّ مرة أخرى؟

- ما رأيك؟

سألني منصور من دون أن ينظر إليّ، حيث كان يوزّع بصره على الحضور مثلما يمنحهم ابتسامته.

- في ماذا؟

- في الحفل.

قال ذلك وهو يضع يده على كتفي مسددًا نظره نحوي. لم أكد أكمل كلمة «رائع»، حتى تركني منصور مهرولًا في اتجاه باب الفيلا، ليستقبل مجموعة جديدة من الضيوف. تذكرت بعضهم إذ التقيتهم في منزل الأستاذ صلاح في السهرة الوحيدة التي دُعيت إليها.. لكنني لم أذكر اسم أي منهم

سوى «اعتقال عبد الجبار»، ذلك أن اسمها لا يمكن أن ينسى، كما أن منصور أخبرني عن سر هذا الاسم المخيف. قال لي منصور إنها وُلدت وأبوها معتقل في سجون بغداد. وهكذا أطلقوا عليها هذا الاسم المشؤوم، كعادة أهل العراق في اختيار بعض أسماء ذويهم!

لاحظت أن جميع من وصلوا كانوا يحملون هدايا متنوعة للعروسين، فازداد حيائي من نفسي. وبعد أن استقبلهم منصور وسمية بحفاوة وفرح، صافحوني وهم ينادونني باسمي، فكنت أتصبب خجلًا لأنني نسيت أسماءهم. ولولا ذكاء منصور الذي كان يقف بجواري، مرددًا أسماءهم: عبد الزهرة وسارة حكو وجمال عبد الناصر وسعد شينو وسوسن بيرقدار وعماد بيضون، أقول لولا ذكاء منصور لكنت في موقف لا أحسد عليه، لأنهم جميعًا تذكروني وعاملوني بود كبير، حتى أن عماد بيضون قال لي ضاحكًا:

- لا تشرب هنا اليوم، حتى لا تكرر ما حدث في منزل الأستاذ صلاح!

كرهته وأنا أبادله ابتسامة مصطنعة، لاحظها منصور بدقة، فسارع إلى الإعلان عن خطته هاتفًا:

- لا شراب هنا الليلة، فوالد خطيبتي لا يتناول الخمر، ولكن الأستاذ صلاح يدعوكم جميعًا للسهر في فندق الميريديان بعد انتهاء الحفل.

في صوت واحد صرخ عبد الزهرة وسعد شينو «برافو... برافو... أجمل دعوة».

مفاجأة لم تكن في الحسبان، ترى هل سأذهب معهم؟

أنا لا أرغب في ذلك. فقط ، أتمنى أن أظل بصحبة عزة، التي تقف الآن مع خالتي عنايات! حقًا... فيم تتحدثان؟ وكيف تعرفت إليها؟ فلأذهب نحوهما لأتابع حوارهما، فأنا شغوف بكل ما تقوله ابنة «السبَّاك». يا الله... من كان يصدق أنه قد يأتي يوم وأصالح فيه النساء، بعد أن شُغفت روحي خجلًا على أسرتهم البائسة.

- زميلتك في العمل لطيفة جدًا يا محمد.

استقبلتني خالتي عنايات بهذه العبارة المشرقة، فارتجف فؤادي، وامتلأت معدتي بالتوتر.. ماذا تقصدين بهذه العبارة يا خالتي؟ وماذا قالت لك عزة حتى تصلي إلى قناعة بأنها «لطيفة»؟ هل تلمحين إلى أنها فتاة تصلح لأن تكون زوجة لي؟ آه... يا خالتي لو تعلمين كبواتي مع النساء، لبكيت من أجلي!

- محمد أخ عزيز يا «تانت».

قالتها عزة وهي ترمقني بنظرة طويلة تعجبت في تفسيرها.. هل أرادت أن تعتذر بطريقة غير مباشرة؛ لأنها أفاضت في لومها لي الليلة؟ أم أنها تحاول أن تؤكد أنني مجرد أخ، وليس لي الحق في الطمع بأكثر من ذلك؟ وهل أجرؤ أنا أصلًا أن أتقدم خطوة نحوك يا عزة؟ أنا راضٍ بأن أراك وأن أتأملك، حتى لو لم تنتبهي لوجودي. يكفيني أن أتابع حديثك مع الزبائن والزملاء والزميلات في الشركة. يرضيني أن أتلصص عليك، وأنت تتناولين طعامك برقة لا نهائية.. يبهجني أن أنصت إليك على مقهى الفنانين بالممزر، وأنت تفخرين بأبيك المكافح وأسرتك المتواضعة..

يطربني حماسك لفيروز وترديدك لبعض مقاطع من أغنياتها وأنت تقودين السيارة.. يؤلمني شرودك المفاجئ وحزنك الطارئ.. تسبيني نظرة عينيك وأنت تعطينني سندويتش الإفطار كل صباح. آه... يا عزة لو تعلمين كم أحبك، وماذا صنعت بي؟ لكن ما حيلتي و أنا لا أفكر حتى في امتلاكي جرأة البوح، وكأنني أتلذذ بغرامي المكتوم.

- أين أنت؟

انتبهت إلى سؤال عزة الذي كررته مرتين، بعد أن لفح نَفَسها خدي الأيسر، وهي على وشك أن تلمسني بكامل جسدها.. جَفلت من حرارة جسمها، فكذبت عليها، وقلت لها: إنني كنت أتأمل عناقيد النور التي تزيّن حديقة الفيلا.. يبدو أنها صدّقت زعمي هذا، لأنها أردفت مسرعة:

- حقًّا... إن تنسيق الإضاءة مدهش، فضلًا عن ألوانه العجيبة.

ثم أضافت:

- أظن أنهم استعانوا بمهندس ديكور؛ ليتولى تزيين الواجهة والحديقة والصالة.

لم تعطني فرصة لأعلّق، لأنها استطردت:

- غدًا سأتصل بسمية وأتأكد.

هكذا يا عزة... أصبحت سمية صديقتك وفي طرفة عين، وستصلين بها غدًا كأنكما صديقتان منذ سنين! أي مخلوقة أنت يا فتاتي. لكن لماذا لم يهتم بك منصور ابن خالتي كما كنت أتوقع؟ لقد صافحك باحترام، وقدّم

شكره لك على هديتك الرقيقة، ثم انصرف ليتابع شؤون ضيوفه بهدوء. على أية حال هذا أفضل، حتى لا ينفضح أمر غرامي، على الرغم من أنه هو الذي ألح في أن أدعو من أشاء من زملائي الجدد في الشركة.. أخبرته أنني ليس لي سوى صديقة واحدة في الشركة يقال لها عزة سليمان. لم يكترث أول الأمر، ولكنه طلب مني أن أدعوها، ثم خطف من يدي الموبايل ليدعوها بنفسه، عندما لاحظ تلعثمي وأنا أتحدث إليها.

- مَنْ هذا الرجل؟

سألتني عزة بفضول لم تستطع إخفاءه، وهي تشير إلى الأستاذ صلاح الذي تحلّق حوله أصدقاؤه العراقيون والسوريون واللبنانيون، وآخرون لم أرهم من قبل. كان مشهدًا لافتًا بحق، حيث كان إعدام صدام حسين مثار الحديث، الذي وصلتني بعض عباراته من أصحاب الأصوات المرتفعة. بدا لي أن الأستاذ صلاح الغندور أكبرهم مقامًا وأكثرهم هيبة، وأنه يتمتع بشعبية يحسد عليها. وددت لو كنت أقف معه الآن، ولكن وجود عزة وانشغالي بها شتت اهتمامي بأي حديث آخر في هذه السهرة. قلت لها بفخر زاعمًا أنه صديقي:

- ألا تعرفينه؟ إنه الأستاذ صلاح الغندور، أهم صحافي مصري هنا بالإمارات.

همهمت بكلمات غير مسموعة وهي تهز رأسها بالإيجاب، من دون أن تحوّل بصرها عنه.. في تلك اللحظة، اكتشفت أن جسدها يقترب مني بصورة لم تحدث من قبل، حين مالت قليلًا نحوي لتفسح الطريق أمام

المدعوين، الذين بدأوا يدخلون إلى صالة الفيللا، بعد أن دعاهم والد سمية الأبراشي لتناول العشاء.

رائحتها زلزلتني، وأهاجت داخلي للحظات ذكريات مؤسفة عن هند ورائحتها ومصيبتها. ولكن سرعان ما امتلأ أنفي برائحة عزة الناعمة والحريرية، فأحببت الوقوف قربها أطول فترة ممكنة، لدرجة أننا كنا آخر اثنين دلفا من حديقة الفيللا إلى الصالة.. كان البوفيه عامرًا بحق، وكان والد سمية قد أحضر الطعام من فندق البستان القريب، ومعه طبّاخ خاص يتولى تقطيع الخروف المحشي مع الأرز. وقفت مترددًا لا أعرف من أين أبدأ؟ كنت قد شعرت بالجوع منذ مدة، وكان شكل الطعام ورائحته تغريانني بالإقدام، ولكن منعني حيائي ورعبي من ألا أتقن آداب المائدة من التقدم خطوة! لاحظت عزة ارتباكي، فسألتني أي الأصناف أفضّل؟ سرّني اهتمامها بي، فقلت لها: مثلما ستأكلين سأفعل. وما إن شرعت في إعداد طبقين لنا، حتى قالت لي بنبرة، أزالت كل ما علق بروحي من غبار تأنيبها لي هذه الليلة:

- ماذا تريد أن أعد لك من أجل إفطار الغد؟

***

27

الجريمة

بقع الدم التي لطّخت قميصي كانت أول دليل ضدي في جريمة مقتل إيرينا الروسية، في ذلك المساء المشؤوم. عبثًا حاولت أن أشرح للضباط الذين ألقوا القبض علينا، ونحن نقلّب في الجثة أنني لا دخل لي بما حدث من دون جدوى!

كان نهارًا مملًا و ليلًا أسود.. لقد غابت عزة سليمان عن العمل لأول مرة في ذلك اليوم المحزون، منذ انضمامي إلى أسرة الشركة، فحرمتني من طلّتها الرقيقة ودعمها المستمر وساندويتشاتها اللذيذة. اتصلت بها لأستفسر عن سبب غيابها، فتكفّل صوتها المبحوح بالإفصاح عن سوء حالتها الصحية.. تمنيت لها الشفاء العاجل وقلبي ينفطر.

شعرت باليتم في الشركة من دونها، وهاجمتني الوساوس – من دون مبرر – بأنني معرض للطرد من الوظيفة، على الرغم من أنني جئت في الصباح، محتشدًا بطاقة حب جبارة نحوها، بعد أن أوضح لي منصور أمورًا كثيرة أمس عن فنون الغرام وحيل البنات، جعلتني لا أطمئن إلى شعورها

نحوي فحسب، بل حفّزتني على أن أحاول أن أبوح لها - و لو بطريق غير مباشر - عما جرى لي، منذ قذفت بي المقادير في حدائق أنوثتها!

لماذا إذن تختفين اليوم يا عزة؟ شغافكِ الله يا فتاتي الجميلة، وخفف عنكِ أوجاعك وآلامك يا منية الروح.. لم أتمكن من السيطرة على غول الضجر، الذي أمسك بي طوال هذا النهار الملعون، فكأن الريح تحتي كما يردد منصور قول أحد شعرائه، كلما انشغل بموضوع ما وزاد توتره. حتى الزبائن كان عددهم شحيحاً في ذلك الثلاثاء البغيض، وكأنهم أحجموا عن الحضور؛ لأن وجه عزة الساحر لا يضيء المعرض!

جلست متزويًا في أحد الأركان أتأمل السيارات المعروضة للبيع حينًا، وأعبث في الموبايل أحيانًا. حتى هذه اللحظة لا أدري لماذا بعثت برسالة إلى أمجد صفوان في هذا النهار الكئيب أسأله فيها عن أحواله.. ربما لأننا تعوّدنا على تبادل الرسائل بين فترة وأخرى، أو ربما لأنني من أصحاب الحظ السيء.. ليتني ما فعلت، فقد بادر أمجد فورًا بالاتصال بي، بل دعاني كذلك إلى تناول العشاء في المساء. أعجبتني الفكرة، فوافقت من دون تردد.. كنت أريد أن يمر الوقت لأتحرر من أسر هذا القنوط الذي يفتت أعصابي. حقًّا... لا حياة لي من دون عزة سليمان، ولا طعم للنهار من دون ابتسامتها الوضّاءة.

وصل أمجد أمام المعرض في التاسعة تمامًا كما اتفقنا.. فاجأني أنه اقتنى سيارة جديدة ماركة تويوتا برادو. لم يعطني فرصة لأستفسر عنها؛ إذ أكد لي أنه ابتاعها قبل أسبوع واحد فقط، بعد أن باع سيارته القديمة النيسان

صني، ولكن رائحته النتنة ما زالت كما هي بكل أسف. قلت له بأداء يمتزج فيه الحسد بالفخر كونه صديقي:

- واضح أن أمورك المالية على ما يرام.

بسعادة وأداء مغرور، ألقى عليّ حكمته:

- إذا لم نجمع المال الوفير في دبي، فلن نجمعه أبدًا طوال حياتنا!

كانت السيارة فاخرة بحق من الداخل، وكانت رائحته المزعجة مختلطة بعطر رجالي غالي الثمن. أما صوت شيرين، فكان ينطلق من الكاسيت كعادة أمجد المهووس بها.. الزحام بدا شديدًا داخل ديرة في هذا المساء المرفوض؛ الأمر الذي دفع أمجد إلى أن يطلق السباب على كل شيء: الزحام والناس والبلدية وإدارة المرور.

-اليوم الثلاثاء... فلماذا كل هذا الزحام إذن؟

انشغلت عن غضبه بتأمل أضواء المحلات والمولات الفخمة، التي تتكدس في شوارع ديرة، فلما استبد بي اليأس لأننا لا نتحرك خطوة واحدة بالسيارة، سألته:

- إلى أين سنذهب؟

ابتسم وهو يرنو إليّ بمكر قائلًا:

- إلى إيرينا... ما رأيك... فلتجرب مرة أخرى؟

ألم تنسَ يا أمجد؟ لعنة الله عليك، فأنا نسيت، أو أحاول النسيان. والفضل كله يعود إلى فراشات الغرام، التي أطلقتها عزة سليمان حول

فـؤادي منـذ النظـرة الأولـى. «فلتجرب مـرة أخـرى»... الفضيحـة ورائي ورائـي.. لِـمَ تعذبنـي يا أمجـد بالذكريات الرديئة؟ انكمشـت فـي مقعـدي خَجـلًا منـه، وندمـت لكوني اتصلـت به والتقيتـه. فكّرت لحظـة أن أغادر السـيارة، ولكنني تراجعت خوفًـا من غضبـه المتوقع، لـو أقدمت على هذا الفعل. ومع ذلك، فأنا لا أريد أن أظل مسـجونًا معه داخل سـيارة مسـجونة بيـن الزحام، فماذا أفعل؟ ثم خطر لي أن أعاود التجربة مع إيرينا... لِمَ لا؟ حتـى إذا وفّقني الله وتزوجت عزة سـليمان، لا ينفضـح أمري معها في ليلة الزفـاف، وهو مـا كان بكل أسـف. ولكن هـل أجرؤ؟ هـل يطاوعني قلبي الذي خطفته ابنة السـتاك الجميلة؟ هل أجرؤ كذلك على التعري مرة أخرى أمام امرأة أخفقت معها من قبل؟ تكدسـت في قلبي مشـاعر شـتّى متضاربة، فشـعرت باختناق فاقمته رائحة أمجد المقـززة.. لم أتمكن من اتخاذ قرار، حتى وجدتني أمام العمارة، التي تقطن فيها إيرينا في منطقة البراحة.

- هل هناك ضرورة للذهاب إلى إيرينا؟

سـألته وأنا أنزل من السـيارة بتلكؤ، فجاوبني بثقة مدهشـة، وهو يكاد يقفز نحو باب العمارة، فتعثر في الرصـيف، وأوشك أن ينكفئ على وجهه:

- لا تخف... ستنجح... وهي في انتظارنا!

كانت نسـمة هواء لا بأس بها تسـري في أجواء هذا الليل المحزون من ليالي شهر فبراير.. دخلنا من الباب الرئيسـي للعمارة لو كنا استخدمنا الباب الخلفي لكنا التقيناه ونجونـا، ولم نلحظ أي وجود للحارس الهندي.. لم يطـق أمجـد أن ينتظـر المصعد، فتوجه بسـرعة في اتجاه السـلم وأنا أتبعه.

كالعادة خانه تقدير المسافات، وهو يثب على الـدرج، فاختلّ توازنه وكاد يسقط، ولكني أمسكت به في اللحظة الأخيرة لو كنت تركته يسقط، كنا نجونا من المصيبة على الأغلب.

كان باب الشقة مفتوحًا إلى حد ما، فدفعه أمجد واندفع خلفه من دون تريث. استقبلتنا القطط بمواء موجع ومخيف.. هتف أمجد بالانجليزية: «أين أنت يا إيرينا... محمد جاء معي».

تبعته من دون كلام. لم نجدها في الصالة. لاحظت قطة منكمشة ترتعش فوق المقعد. «أسوأ شيء هنا هذا الجيش من القطط» قال أمجد وهو يلعن مواءها المزعج. لم نتلقّ ردًّا عندما كرر أمجد نداءه عليها للمرة الثانية، فدخلنا حجرة النوم بحذر قليلًا، فصدمت أنوفنا رائحة غريبة غير مريحة.. رأينا إيرينا منكفئة على بطنها وهي عارية تمامًا. للحظة خجلت وغضضت بصري. اقترب منها أمجد بسرعة، فتبعته.. حاولنا أن نقلبها على ظهرها، فانفجر من عنقها خيط دم لزج وحار لطّخ قميصي الأزرق، الذي أهداني إياه الأستاذ صلاح الغندور، كما لطّخ «تي شيرت» أمجد الرمادي.. كان جسدها ساخنًا جدًّا. صرخ أمجد:

- يا نهار أسود... إنها مذبوحة!

اصطكّت أسناني فجأة وارتعشت شفتيّ بقوة، وكدت أبول على الرغم مني. تسمّرت في مكاني وكذلك أمجد لثوانٍ معدودات مشلولي الفكر والإرادة.. لكن أيادي الضباط ورجال الشرطة كانت أسرع، إذ في لمح البصر امتلأت الشقة بأحذيتهم وصخبهم، فزاد المواء الموتّر للقطط.

اصطخبت روحي واشتعلت رغبتي في التغوّط، وأنا أراني مكبّل اليدين.
لم أنتبه إلى صراخ أمجد إلا عندما نهره أحد الضباط ولكزه بقبضة يده في كتفه. مذعورًا جذبني شرطيان نحو أحد أركان الصالة، وطلبا مني عدم التحرك.. استمعت إلى أحدهم يتعجّل الإسعاف، وآخر يسأل عن رجال النيابة ومسؤولي البحث الجنائي والأدلة الجنائية. رجفة شديدة تملكت روحي وصداع مفاجئ حطم رأسي، على الرغم من أن حاجتي للتغوّط قد زالت. زائغ العينين أنظر إلى وجوه من بالشقة، والذين يتحركون وينقّبون في كل مكان.. لمحت الحارس الهندي واقفًا يجيب عن أسئلة أحدهم، ولكنني لم أسمع شيئًا. للحظة شعرت أن أبي هو من يقف هناك في غرفة القتيلة يوجّه ويأمر، فانتفضت وارتعبت! لم أفهم أبدًا كيف رأيت دموع قطة بيضاء، تتساقط من صورة في برواز بني على جدار حائط الصالة؟ أحدهم اقترب مني وطلب الموبايل بأدب، فناولته إياه من دون كلمة! وآخر أخرج كل ما في جيوبي، ووضعه جانبًا فوق منضدة. صرخ أمجد نافيًا علاقته بالجريمة، حين ذكر الحارس اسمه أمام وكيل النيابة. تلقّ توبيخًا شديدًا وأمرًا بالصمت. طلبوا مني نزع قميصي الملوث بدم القتيلة، ففعلت وأنا أرتعش.. نبضات قلبي تزداد سرعة وهياجًا. أشعر أن غراب الموت ينقر صدري. اجتاحتني رغبة عارمة بالبكاء على صدر أمي.. ارتطمت في أذني عبارات تؤكد أنهم عثروا في دولاب القتيلة على حشيش وهيروين.. سمعت أمجد يصرخ مرة أخرى، نافيًا علاقته بالمخدرات. التشويش الروحي الذي أكابده الآن يعصف بتوازني؛ فأكاد أسقط على الأرض. وددت أن أرى منصور ابن خالتي وعزة سليمان؛ لأقسم لهما بأنني بريء.

- ألا تستحم يا رجل؟

شاهدت أحدهم يضرب أمجد في كتفه بقبضة يده، وهو يعنّفه بهذه العبارة.. تذكرت هند وروائحها ومصيرها الأسود. ترى... هل يمكن أن ألقاها في السجن؟ رأيت أمجد يضع وجهه بين يديه ويبكي. ومرة أخرى، زجره ضابط قليل الكلام مزوّد بنظرة شرسة آمرًا إياه أن يكف عن البكاء.. حمدت الله أنني تمالكت دموعي حتى الآن وسجنتها بين حدقتي. وقفت أمام وكيل النيابة مرتعد البدن مفتت الروح.. سألني بهدوء، وأجبت بارتباك وبصدق كامل.. تفحصني وأصدر قراراته، كما فعل مع أمجد. أريد أن أتصل بمنصور، فهل يسمحون لي؟ حقًا... ما أتعس هذا الثلاثاء. شحنت كل شجاعتي وقلت لهم، ونحن نهبط السلم أن ليس لي علاقة بالموضوع. فتشت بعيوني عن وكيل النيابة الذي استجوبني، فلم أجده.. أعدت الكلام بأني بريء وأنا أنظر إلى رجل شرطة آخر؛ فرمقني بنظرة مخيفة، فسكت. أمام مدخل العمارة؛ تجمّعت أعداد غفيرة من البشر. أغلبهم من الهنود والباكستانيين، حيث طالني رذاذ لغاتهم وإيقاعها الغريب.. لمحت عدة سيارات شرطة وسيارة إسعاف. أشار أحد الضباط إلى الهنود أن يبتعدوا، فتلكأوا في تنفيذ الأمر.. كنت أسير بملابسي الداخلية في الشارع العام لأول مرة في حياتي.. فضيحة لم تكن في الحسبان. طأطأت رأسي كاتمًا أنفاسي حتى لا أنفجر من البكاء، لم أعرف كيف أجفف عرقي الغزير الذي يسيل من مسام جلدي بغير حساب، على الرغم من أن الهواء مشبّع بنسمة رقيقة ومنعشة في هذا الوقت من الليل. تفاقم لغط المحتشدين على الأرصفة وفي الشارع عند مرورنا. التفت ورائي، فرأيت رجال الإسعاف

يحملون جثة إيرينا. تعجبت كيف نسيت ملامح وجهها الساحر، ولم يبقَ في ذاكرتي سوى صورتها وهي مذبوحة! قذفوا بنا في سيارة الشرطة.. تعثر أمجد صفوان وهو يحاول دخول السيارة مكبّل اليدين، فعاونه أحدهم على الوقوف. تساءلت: هل يمكن أن يكون منصور بين الواقفين؟ تجمهرت الناس حول سيارات الشرطة ودققوا النظر فينا. حاول رجال الشرطة إبعادهم، ولكنهم لم ينجحوا إلا حين انطلقت بنا السيارة مسرعة، وهي تصدر صوتها المميز لإفساح الطريق.

في نقطة شرطة البراحة، فتحوا لنا محضر استدلال، فسألونا وأجبنا. ثم نقلونا إلى الحبس الاحتياطي في سجن دبي، بناء على قرار وكيل النيابة، الذي أمر بحبسنا أربعة أيام على ذمة التحقيق، وهو يتفحص أداة الجريمة التي ذُبحت بها إيرينا. كانت عبارة عن سكين ذات نصل حاد وجدوها تحت سريرها. برود وكيل النيابة وهو يسألني، لم أجد له تفسيراً حتى الآن سوى أنه حقق في جرائم كثيرة مشابهة من قبل، فلم يعد ينفعل برؤية الدم الساخن للجثث، أو تبريرات القتلة، كما قال لي منصور فيما بعد.

الساعات الأربع التي فصلت بين دخولنا الشقة الملعونة، وبين إلقائنا في عنبر الحبس الاحتياطي في سجن دبي مرّت كالدهر.. أول ما لفت انتباهي في السجن هو أنه مكان مكيّف، وأن هناك عدة أسرّة في الأركان. كما أنه نظيف بدرجة لم تخطر على بالي قط. فالسجون كما أراها في أفلامنا المصرية، مثلما هي في الواقع، مرتع للقذارة والقبح والنوم على الأرض، بين جيش من الحشرات المقززة!

لم يكن في العنبر سواه، اسمه مايكل.. ملامحه تؤكد أنه قادم من إحدى بلدان شرق آسيا، عيونه الضيقة تطلق أشعة غير مريحة. أزعجه نحيب أمجد صفوان في أول الأمر، ولكنه سرعان ما استثمره ليتقرب إلينا. اشتبك مع أمجد في حديث بالإنجليزية، عرفت من خلاله اسمه، وأنه من الفلبين. كان أمجد ما زال يقسم بأغلظ الأيمان أنه لم يقتلها.. بدا لي أن مايكل يصدق أقواله. أخرج علبة سجائره ونفح كلًّا منا واحدة.. فجأة شعرت بجوع شديد، لكن لم أعرف ماذا أفعل؟ ولم أصرّح لأحد برغبتي في تناول الطعام. لم تمر دقائق حتى أحضروا لنا وجبة العشاء المكوّن من طبق أرز بالدجاج - برياني كما يسمونه هنا - مع قليل من الخضروات.. التهمنا الطعام في ثوانٍ، ولم ينسَ أمجد أن يمارس هوايته في التعثر بالأشياء، فسقطت منه الملعقة وتبعثر الأرز على بنطلونه. ضحك مايكل على المشهد، ثم نهض بسرعة لينظف بنطلون أمجد بقطعة منديل ورقي.. جلست على سريري أتأمل الساعات الرهيبة التي مرّت بي. قرأت آية الكرسي خمس مرات في سريرتي، ثم رددت ما أحفظه من قصار السور. طمأنت نفسي بأني خارج، بفضل الرحمن، من هذا المأزق الثقيل... الله سيساعدني لا ريب، فأنا بريء، وكذلك أمجد. ترى... أين عزة سليمان الآن؟ هل استردت عافيتها وتحاول الاتصال بي؟ لقد أخذوا الموبايل، إنها كارثة لو عرفت.. حتمًا ستعلم بهذه المصيبة. وإذا صدّقت أنني لست من القتلة، فكيف أمحو من ذهنها أنني لست من الفاسقين؟ نعم... الفاسقون الذين يسرقون اللذة من بيوت الدعارة! لا مناص، فالفراشات الملونة، التي أطلقتها عزة حول فؤادي ستموت.. لا أمل في

أن تظل ورود غرامي مضيئة بعد الآن! ولا رجاء في أن أنعم بصحبة عزة والجلوس إليها والتمتع بحديثها العذب، بل لا فرصة أصلًا في استمراري في وظيفتي، التي حصلت عليها بشق الأنفس.. الشارع مصيري والضياع مستقبلي. أحزاني مبعثرة في قلبي لا أعرف كيف أرتبها؟ وجدتني أذرف دمعتين، وأتساءل: كيف سأتصل بمنصور ابن خالتي.. إنه قادر لا ريب على إنقاذي، فهو يجيد التصرف في مثل هذه المواقف.

- يا ابن الكلاب.

أفقت من هواجسي على صفعة وصرخة ولعنة في وقت واحد.. لقد هوى أمجد صفوان بكفه العريض على وجه مايكل الفلبيني، الذي تلقّى الصفعة بصرخة كلب ضُرب فجأة بعصا غليظة!

انتفض مايكل ولاذ بركن العنبر، واضعًا وجهه بين يديه وهو ينظر إلى أمجد مرتعبًا، ومعه حق، فالفرق بين الحجمين لا يسمح لمايكل ذي الجسد الضعيف بأن يفكر لحظة في رد الصاع صاعين لأمجد، صاحب القامة الفارعة والعضلات المفتولة. لم أفهم ماذا حدث بالضبط، ولكن أمجد ظل يكيل له الشتائم ويبصق في وجهه صارخًا:

- هل يتقصني الشواذ يا قذر!

يا نهار أسود... مايكل شاذ! مصيبة أخرى لم تكن في الحسبان. وسيبيت معنا في هذا العنبر! كارثة أخرى تضاف إلى كوارثي في هذا المساء المنكوب! وجدتني أتحرك ببطء لأجلس بجوار أمجد طلبًا للأمان، وأنا ألتصص على مايكل المنبوذ في ركن العنبر. نهض أمجد فجأة، وكأنه

نسـي تمامًا مايكل وسلوكه الشاذ.. ظل يغدو ويروح، وهو يضرب الأرض بقدمه، ثم هتف فجأة:

- محمد... لا تقلق... ألم نكن معًا؟ نحن أبرياء... لكن مَنْ قتلها حقًّا؟

اكتشـفت أنني لـم أفكـر لحظة في إجابـة هذا السـؤال، منـذ أن رأيتها مذبوحـة. فأنـا لا أعرفهـا، ولا أعـرف مَـنْ أصدقاؤهـا، ولا مـنْ يرتاد هذه الشـقة الملعونـة.. كل ما يشـغلني هو التخلـص من هذا الكابـوس الجاثم فوق صدري.. لم أسـتطع النوم، ولم أرحم مايكل من نظراتي، التي ترقب أفعاله بحذر.

مـع اقتراب الفجر سـقط أمجد في بئر النوم مـن فرط التعب، ولكنه نوم متوتر مخلوط بنشـيج ونهنهة. كذلك تكوّم مايكل على الأرض في مكانه ونام مثل جنين.. أما أنا، فقد ظللت أردد آية الكرسي بصوت هامس لأبعث في نفسـي بعض الراحة والأمان حتى غلبني النعاس، فرأيت أبي، في أسـوأ كوابيسـي، يجرجـر جثة إيرينـا، ويقف بها عند سـريري فـي الزنزانة، وهو يصب عليّ اللعنات!

***

28

الزفـــاف

الزغاريـد التـي انطلقت في فضـاء القاهرة هذا المســاء تكفي لأن تزف عشـرين زوجًا من العرسـان، وليس زوجًا واحدًا فقط! فوالدة عزة سـليمان دعت عشـرات النسـوة مـن جيرانهـا وأقاربها لحضـور حفل زفـاف ابنتها المصونة. ووالدتي دعت كل نسـاء دمنهور شـبرا، اللاتـي تعرفهن للتباهي أمامهـن بـزواج ابنها القـادم من دبي بفتـاة رقيقة وجميلة. كانـت أمي تعلم أنني لم أحمل من لؤلؤة الخليج، سوى هدايا قليلة ورخيصة الثمن، وأن ما اسـتطعت توفيره طوال أكثر من ثلاثة أعوام مـن الغربة الموجعة لا يتجاوز ستة آلاف دولار. ومع ذلك كانت تمتلك القدرة على الكذب أمام جاراتها زاعمـة أنني أصبحـت من الأثريـاء، وأن أهل العروس يكتـنـزون من المال الكثير والكثير.

هذه الكوكبة الكبيرة من النسـاء لم يتوقفن عن عزف سـيمفونية الزغاريد، طوال مراسـم الزواج، لدرجة أن العصافير التي تعشـش فوق أشجار كازينو «هابـي لاند» في المظلات لم تجد مفرًا من هذا الإزعاج، سـوى مشـاركة هؤلاء النسـاء هـذا العـزف المجنـون، فراحت تطلـق زقزقاتها بقـوة، فلم

بعـد أحد مـن المدعوين في الكازينو بفـرق بين زغاريد النسـاء وزقزقات العصافير.

أمي المتأرجحة دومًا بين الخوف على أبنائها من الحسـد، والتفاخر بنجاحهم الكاذب لم تتوقف عن الحركة في أرجاء الكازينو، ترحب بهذه، وتصافح تلك، وتجامل هذا.

كانت سيدة مختلفة تمامًا عن أمي التي عرفتها خانعة طوال عمري، وقد اكتشـفت في ليلة الزفاف هذه مدى الشـبه بينها وبين خالتي عنايات حين تضحك، وتظهر أسـنانها اللامعـة، حتى أن منصور لاحـظ التغييرات التي اعترت أمي، فهمس في أذني ضحكًا:

- والدتك انطلقت بعد وفاة أبيك!

أما أخي حسـن، فلم يتوقف عـن إصدار الأوامر، التي تتعلـق بمتابعة إجراءات العرس وتفاصيله. وعلى الرغم من أنني فوجئت بأنه أطلق لحيته وأمسـك بيديه مسـبحة، إلا أن هذا التغيير لم يخفف شعوري نحوه بأنه أخ فظ، غليظ القلب؛ لأنه كان تغيرًا شـكليًا لا أكثر، حيث كان يأمرني - وأنا العريس - كيف أسـير، ومـاذا أرتدي، وكيـف أرد على مجامـلات الأهل والمدعوين؟

بدا حسـن حريصًا كل الحرص على أن يسـطو على دور أبي بفجاجة، وهـو دور لم يجد له أنصارًا في أسـرتنا، حتى أن أمي ما فتئت توبخه كثيرًا، عندما يشـتط في إصدار الأوامر نحو شـقيقتي المسـكينتين ثريا ومحاسن، اللتين اسـتقبلتا عزة سـليمان بدرجة كبيرة من المودة في أول الأمر، ولكن

سرعان ما تغيرت مشاعر محاسن تحديداً نحوها بعد فترة وجيزة، فأصبحت تسخر منها لأنها متبرجة، ولأنها تضحك مع الشباب من دون حياء، أو لأنها تعيش في الغربة بمفردها. لم أنزعج من الغمز الذي تكيله محاسن لعزة باستمرار، فقد كنت أشفق عليها، وأدري تماماً أن حقدها على عروستي ما هو إلا تنفيس عن غضب عميق ومكتوم وساخن، تجاه حظها العاثر مع الزواج. كذلك فهمت عزة المزاج النفسي المتوتر لمحاسن، فلم تشأ أن تدخل معها في مباراة نفسية موجعة لقلبي وإحساسي، فكانت تتجنبها قدر الطاقة وتكتم غيظها، إذا تلقت تعليقاً مرًّا من أختي.

بعكس محاسن، كانت ثريا أرق وأنبل في استقبالها لعزة. وكانت تعرف وتقدر تماماً الدور الذي لعبته معي أثناء محنتي المريعة في دبي، جنباً إلى جنب مع منصور ابن خالتي. أما أمي، فقد اعتبرت أن زواجي من عزة سليمان هو الكنز الذي كان يخبئه لي الرحمن؛ ليكافئني به بعد سنوات القهر والغربة والعذاب، وذلك بعد أن حكيت لأمي ماذا صنعت قبل وأثناء وجودي في سجن دبي. لذا كانت والدتي حريصة على إرضاء عزة وأسرتها بكل الوسائل، بل اضطرت إلى بيع بعض مصوغاتها الذهبية القليلة، من دون تذمر، لأستكمل بثمنها تجهيز الشقة التي أخذتها في عين شمس وفقاً لنظام الإيجار الجديد، وذلك عندما لاحظت أن النقود التي وفرتها في دبي تتسرب مني، فلا يكاد يبقى منها شيء لمواصلة مشروع اقتراني بفتاة أحلامي.

- زواجك أول فرحتنا منذ زمن طويل يا محمد.

هكذا كانت تقول لي، وأنا أحاول أن أثنيها عن بيع ذهبها القليل.. ثم تضيف بأسى:

- أدعو معي يا بني أن تجد شقيقتاك من يسترهما.

فكنت أدعو معها الله أن يوفق محاسن وثريا في زواج ناجح، وكنا نأمل جميعًا أن وفاة أبي ستعيد فتح الباب مرة أخرى لدخول عرسان جدد، يطلبون الزواج منهما عن طيب خاطر، حيث أن العقبة الكبرى أمام انتقالهما إلى بيوت جديدة بصحبة أزواج محترمين قد اختفت بوفاة أبي، الذي كان العرسان يفرون من عجرفته بعد أول زيارة لمنزلنا.

- سمية الأبراشي جميلة جدًا وهي حامل.

أفقت على هذه الملاحظة التي دستها في أذني عزة، ونحن نجلس في «الكوشة»، يدي فوق يدها، بينما مرت أمامنا برفقة سمية، وهي تتوجه نحو منصور ابن خالتي الذي كان يحاول تصحيح الأخطاء، التي يقترفها أخي حسن، أولًا بأول في تسيير شؤون حفل الزفاف. «فعلًا... سمية جميلة وهي حامل»... هكذا قلت لنفسي وأنا أتأملها.. كانت ترتدي فستانًا ورديًا يتسع لها ولجنينها، الذي أنهكها كثيرًا فيما يبدو، فشحب لونها، وبدت مجهدة على الدوام. كانت في شهرها السابع، وقد أصرت أن تصطحب زوجها إلى مصر، ليس لحضور حفل زفافي فحسب، بل وكي تضع حملها الأول في القاهرة.

- أريد أن يولد ابني الأول في القاهرة.

هكذا قالت بحسم وهي تخاطب منصور، الذي تقبّلها فرحًا بهذه الرغبة، التي توافقه تمامًا. ولم يشأ أن يفرض عليها شيئًا؛ إذ لم يخبرها بحلمه في أن يرى ابنه الأول النور في سماء القاهرة.

- يا محمد... مصر هي مركز الكون، فكيف لا أتوق أن تلد زوجتي ابننا البكر في حضنها؟

فاجأني منصور بهذا الكلام عندما أبلغني أنه ينوي أن يحضر حفل زفافي في القاهرة؛ ذلك أن الحياة التي يتذوق طعمها اللذيذ في دبي جعلتني أظن أن حديثه عن أن القاهرة خير وأبقى مجرد كلام لا أكثر، فهو لا يترك مناسبة إلا ويأتي فيها على ذكر عاصمة المعز بكل فخر واعتزاز، مرددًا أنها المدينة الأهم على ظهر الأرض.

- كيف؟

- سنأتي أنا وسمية في إجازة طويلة نسبيًا.

- وعملك هنا في دبي؟

- عندي رصيد وافر من الإجازات.

حسم ابن خالتي الأمر وحدد موقفه، فجاء بزوجته الحامل ووالدتها ليقطن معهما في الفيلا التي يمتلكونها في مدينة 6 أكتوبر. وقد أهداني منصور تليفزيون 32 بوصة بلازما بمناسبة زواجي. أما سمية، فقد أهدتنا بوتاجاز ضخمًا فرحت به عزة كثيرًا، على الرغم من أنه التهم نصف مساحة شقتنا الضيقة في عين شمس!

الأستاذ صلاح الفندور لم ينسني أيضًا في حفل زفافي؛ إذ أرسل لي خمسة آلاف جنيه مع منصور باعتبارها «نقطة» يقدمها لي في ليلة زفافي.. تعجبت من ضخامة المبلغ - وسررت به - لكن منصور أكد لي أن الأستاذ صلاح رجل كريم جدًّا، ولولا ارتباطه بالعمل في دبي، لحضر زفافي في القاهرة. كما أنه يعتز بي كثيرًا؛ نظرًا لكوني طيب القلب وقليل الحيلة.. قال منصور ذلك وهو يضحك، فشاركته الضحك من دون انزعاج، وتذكرت بتأثر كيف هرول الأستاذ صلاح مع منصور وعزة وسمية وعبد الله راشد إلى أكبر محامي في دبي، عندما علموا بورطتي في مقتل إيرينا الروسية.

عزة سليمان من جانبها لم تبخل على عرسها وبيتها، فرفضت تمامًا أن نؤجر فستان الزفاف، وأصرت على أن تقتنيه. وقبل أن أوضح لها حدود إمكاناتي المالية، وضعت يدها فوق فمي حتى لا أتكلم، وهي تقول لي بحسم مغموس في مياه الحب:

- سأهبك المال اللازم لشراء الفستان... ولكن لا تخبر أحدًا من أهلي وأهلك بذلك.

ثم استطردت وهي تلقنني درسًا جديدًا:

- يتحتم على العريس أن يبتاع فستان عروسه من ماله الخاص.

منصور الوحيد الذي أطلعته على سر الفستان وكيفية اقتنائه، فقال لي وهو يضع يده على ركبتي، قبل أن يتناول رشفة الشاي:

- عزة فتاة طيبة، وإنسان نبيل بحق.

كنـا نجلس آنـذاك في مقهى الحميدية بباب اللوق وسط القاهرة، إذ كان ينتظر موعدًا مع الناقد فـاروق عبد القادر. وقد أفهمني منصور أن هذا المقهى هو المكان المفضل للناقـد الكبير كما وصفه، ليلتقي فيه أصدقاءه وتلاميذه مساء كل أحـد، وأنه ينوي إجراء «حوار العمر» معه. فلما سـألته ماذا تقصد بحوار العمر؟ اعتدل منصور في مقعده وجذب نفسًا من الشيشة قبل أن يشرح لي هاتفًا:

- حوار العمر... يعني أنني سوف أسأله في كل شيء: الفكر والأدب والفن والسياسة والحب والمرأة والجنس، وكيف كانت طفولته وصباه... إلخ.

- وهل ستكفي الساعة التي ستجلسها معه لكل ذلك؟

- من قال لك إنني سأجلس معه ساعة واحدة فقط؟ هـذا الحوار قد يمتد عـدة أسابيع، كل يـوم سـاعتان أو أكثر.. مثلمـا فعل رجـاء النقاش مع نجيب محفوظ.

مـن أيـن يأتي منصور بكل هـذا الحماس؟ فهو دائمًـا يتحدث ويتحرك ويفرر ويمسـح عرقه بهمة و نشـاط. وها هو فرح ومبتهج، كما يبدو لي من بريـق عينيـه ومن نبرة صوته؛ لأنه سـيجري حـوار العمر مع ناقـد كبير، لم أسمع به من قبل، كما لم أسمع برجاء النقاش الذي ذكره توًّا.

في هذا اليوم التقيت عزة بعد أن تركت منصور يسعد بناقده، ومررنا على أكثر من ثمانية محلات، تعرض فساتين الزفاف البيضاء. خمس ساعات من التجوال المنهك حتى استقرت عزة على أحدها، ودفعت ثمنه، ثم عدنا

بـه إلى بيتها، وقدمته إلى أسـرتها باعتباري من اشـتراه! لـم أكن خجلًا بما يكفي من هذا الكذب، ولكنني كنت سـعيدًا بعزة سليمان، التي تعلمني كل يوم شـيئًا جديدًا. مثلما أنا مسـرور الآن، وهي بجانبي في «الكوشة» ترتدي فسـتانها الأبيـض الرقيق، حيث لاحت لـي كحورية من الجنة.. ابتسـامتها المترعة بالحنان تضيء ليل القاهرة كله، وشـعرها الأسـود الناعم مصفف ومسـتكين تحت الطرحة البيضاء. كنت أتأملها بغبطة، وأنا لا أصدق أن المقادير التي خاصمتني، وألقت بي في السـجن ظلمًا، صفحت عني أخيرًا ومنحتنـي زوجة أحبها وأرعاها، وتحبني وترعاني.. زوجة أبعثر في قلبها متاعبي وشـجوني حين ينقبض قلبـي وتعاندنـي الأيام.. زوجـة أمطر في أحشـاءها مياه غرامي كلما كوت جسـدي الرغبة المجنونة، وأحرق فؤادي وحش الشـهوة، الـذي يعبث فـي أوردتي وشـراييني منذ سنين، من دون أن أتمكـن مـن ترويضه.. زوجة تمنحنـي البنين والبنـات، فأضمهم تحت جناحي، وأعاملهم بالتي هي أحسـن... لا بطش ولا استبداد ولا بذاءة.

فـي ليلة زفافـي هذه كانت هناك مفاجأتان سـارتان، وكابوس واحد من العيـار الثقيل في انتظـاري.. أولى المفاجأتين تمثلت فـي وصول عبد الله راشـد إلى كازينو «هابي لاند» قبل انطلاق «الزفة» بعشـر دقائق فقط.. كانت السـاعة تقترب من الحادية عشر مسـاء، وفجأة وجدته أمامي بصحبة منصور. لم أعرفه أول الأمر؛ لأنه كان يرتدي بدلة بنية اللون، فكانت هذه أول وآخر مرة أراه فيها خارج ملابسـه المحلية، فلما صافحني مهنئًا عرفته.. احتضنني بقوة، ودسّ في جيبي مظروفًا أنيقًا به ثلاثة آلاف جنيه، قائلًا:

- إنها «النقطة» كما تقولون في مصر.

منصور كان يعرف بوجوده في القاهرة لقضاء عدة أيام كعادته، ولكنهما اتفقا على أن يظل الأمر سرًّا بينهما حتى يفاجئني في حفل الزفاف.. المفاجأة السارة الثانية كانت حضور صديقات عزة المقربات من دبي: إيناس الفلسطينية وفرح السورية ومادلين اللبنانية. كنت أعرف بطبيعة الحال إيناس ومادلين؛ لأنهما تعملان معنا في الشركة نفسها، ولكن فرح تركت الشركة قبل التحاقي بها، إلا أنها ظلت على علاقة وطيدة بعزة سليمان.. كن يحلمن بزيارة القاهرة، فقررن أن تكون مناسبة زواج صديقتهن الحميمة أنسب فرصة لإنجاز هذه الزيارة.. وهكذا تم الترتيب والتنفيذ. وقد وصلن إلى مصر قبل يومين فقط من حفل الزفاف من دون علم عزة، ثم اتصلت بها مادلين صباح اليوم من الفندق الذي نزلن به لتنبئها بخطوتهن الجريئة.. طارت عزة فرحًا ووصفت لهن المكان، فحضرن إلى حفل الزفاف بأبهى الملابس وأكثرها أناقة، لدرجة أن منصور لاحظ بغيظ أنهن فقط مع زوجته تقريبًا، اللاتي لا يرتدين الحجاب، وسط عشرات من البنات والسيدات. «ماذا حدث للبنات والسيدات المصريات؟ حتى في الأعراس لا يردن أن يتخففن من هذا الحجاب الخانق»... قال لي منصور ذلك، وهو يلتقط عدة مشاهد بالكاميرا الفيديو، التي لا يتحرك من دونها، ثم أضاف بحزن عميق:

- لا أمل لنا في مستقبل أفضل وأجمل، إذا ظلت المرأة المصرية مسجونة في تقاليد بالية تحركها أفكار متخلفة!

لم أعلق لأنني كنت منشغلًا بمصافحة بعض المعازيم، وإن كنت قد ألقيت نظرة سريعة على جموع النساء في الحفل، متأثرًا بقول منصور،

فلاحظت أنهن أسرى حزن ما، وأن الابتسامات والضحكات والزغاريد، التي تنطلق هنا وهناك ما هي إلا محاولات مستميتة للفرار من هذا الحزن المقيم.

أما الكابوس الثقيل في ذلك المساء، فتمثل في عدم قدرتي على مضاجعة زوجتي في هذه الليلة التاريخية! بامتداد أربع ساعات، ونحن نحاول من دون جدوى. كنت مسكونًا أثناء النهار بهاجس مريب في أن الإخفاق من نصيبي، مثلما حدث مع هند وإيرينا وسوما، لكنني كنت أحاول أن أطرد هذا الهاجس، وأنا أمني نفسي بأن عزة هي حبي وعشقي، ومن ثم فالنجاح محتم عندما أضمها بين أحضاني. بعكس العاهرات اللاتي كن شاهدات على خيبتي؛ لأن لا غرام هناك ولا هوى يجذبني نحوهن.. كنت أظن أن الحب قادر على إشعال قناديل الشهوة وتأججها، كما أفهمني منصور منذ اقترانه الأول بصفاء الشرنوبي. ولكن الساعات الأربع التي قضيتها عاريًا بين أحضان عزة لم تفلح في تخطي عقبة التأهل الذكوري، التي أعاني منها.

عزة الجميلة لم تحزن ولم تيأس في أول الأمر، وبذلت جهودًا جبارة لإضاءة مصابيح الرغبة التي انطفأت في جسدي، فقبلتني وداعبتني، ولمستني وشربتني وأكلتني وامتصتني، وكأنها امرأة خبيرة في فنون الجنس وقوانين السرير.. لكن بكل أسف لم تنجح كل هذه المحاولات والتأوهات والتنهدات والإضاءات الساخنة في تحقيق الاختراق المأمول، والاندماج المنشود. حتى أصبحت رائحتها المثيرة تمثل لي إزعاجًا كبيرًا، يزيد من شعوري بالوضاعة، ويفاقم إحساسي بالضآلة!

- لا تحزن... غدًا نحاول، فقد بذلنا جهدًا ضخمًا الليلة في حفل الزفاف.

لم أرغب في الرد على عزة، بل أشحت بوجهي عنها، فقبلتني في جبيني وقامت لترتدي قميص نومها، وهي تشيط غضبًا بصورة لم أرها من قبل.. أما أنا فجذبت الغطاء فوقي، وأنا أبكي، في محاولة للاختباء من معشوقتي وجسدها وعيونها وغضبها ورائحتها، لكن حين كانت دموعي تنهمر على الوسادة، فوجئت برائحة هند المغربية تسطو على أنفي تدريجيًا، و تنشر أريجها الفوّاح في فضاء غرفة نومي في عين شمس، مطيحة بذلك عطر زوجتي ومسكها، فجفلت واضطربت، ودسست رأسي تحت الوسادة للهرب من بطش الرائحة المباغت، ثم قررت أن أسعى إلى زيارة هند المسكينة في أقرب فرصة، حيث تعاني الآن من فقدان الحرية في دبي، بعد أن حكم عليها بالسجن عشر سنوات بتهمة الاتجار في المخدرات. نعم سأزورها في السجن، فيكفي أنها أول امرأة أرتني ما لا يجب أن يرى، وجعلتني ألمس السر الأعظم، وأشم الرائحة المقدسة للجسد الأنثوي المهتاج ! نعم... قررت أن أزور هند، في أول ليلة تنام فيها زوجتي بجواري، وهو ما لم يحدث أبدًا!

***

29

السجن

في ظهيرة اليوم التالي لإلقاء القبض علينا، فوجئت بحارس الزنزانة يستدعيني لمقابلة قائد السجن. تساءلت... ترى هل توصل منصور إلى مكاني بعد اختفائي ليلة أمس؟ أم أن عزة سليمان فطنت إلى وجودي، بذكائها الفطري، عندما لم تجدني في الشركة هذا الصباح؟ أم أنهم اكتشفوا براءتي من دم ابنة روسيا، فقرروا إعادة التحقيق معي مرة أخرى؟ ولكن لماذا لم يستدعوا أمجد صفوان، ألا يشاركني التهمة، كما يقتسم معي هذه الزنزانة الكئيبة؟

احتضنني منصور بقوة، وهو يهتف بصوت عال ومتحمس:

- لا تقلق... لا تقلق.

بكيت في صدره لأول مرة منذ أن ألقوا القبض علينا ليلة أمس، وأنا أنهنه وأغمغم بصوت خفيض:

- أنا بريء... لقد وجدناها مقتولة.

- أعرف... أعرف كل شيء... لا تخف... تماسك يا محمد.

ثـم أعطانـي حقيبـة صغيـرة بهـا بعـض الملابـس ومظروفًا داخلـه ألفا درهـم.. حينئذ فقط، انتبهت إلى أن رجلًا آخر غير القائد موجود بالغرفة.. كان يجلـس صامتًـا يتأمـل لقائي مع منصـور، بالضبط كمـا كان يفعل قائد السـجن، الذي سـمح لي- متجاوزًا القوانين- بهذه الزيارة التي لم تزد عن خمـس دقائق! وقد فهمـت فيما بعد من منصور أن الرجل الآخر في الغرفة كان رئيـس صفحـة الحوادث في الجريدة نفسـها، التي يعمـل بها منصور، وأنه تولى إبلاغه عن الجريمة وعن اتهامي، فضلًا عن كونه امتـــمح قائد السجن، الذي يعرفه جيدًا، لترتيب هذا اللقاء.

عدت إلى زنزانتي مطاطئ الرأس أحمل الحقيبة يسـبقني نحيبي، فهبّ أمجـد واقفًا وسـألني بلهفة وهو يمسـك بكتفي، فبدا طولـه الفارع كنخلة، انبثقت فجأة من أرض الزنزانة:

-ماذا هناك... هل وجدوا القاتل؟

عشـرة أيام مرّت علي في هـذا الكابوس الملعون، لا أدري ماذا يحدث في الخارج، ولم أر أحدًا من خارج السـجن، سـوى لقـاء يتيم مع محامي مصري طاعن في السـن يقال له سـيد عبد الباري.. عرفت فيما بعد أنه أهم وأشـهر محامي في دبي، وأنه جاء إلى هنا، قبـل إعلان قيام دولة الإمارات العربية المتحدة في عام 1971 بثلاث سنوات. سألني المحامي بنبرة صوته المعدنية عدة أسـئلة سريعة وهو يلهث، فأجبته عليها كلها بخوف وارتباك، ثم انصرف من دون أن يقول شـيئًا.. وقد قـال هذا المحامي لمنصور وعزة وعبد الله راشد فور انتهاء لقائه معي، حيث كانوا ينتظرونه خارج السـجن:

- ابن خالتك بريء تمامًا... وسينعم بالبراءة من أول جلسة... تفاءلوا.

قال لهم ذلك وهو يهرول نحو سيارته فارًا من سياط الشمس، حاملًا سنواته الثالثة والسبعين بخفة ونشاط.. كان يرتدي بدلة سوداء فوق قميص أبيض ورابطة عنق زرقاء، إذ بدا واضحًا على ملامحه أن المقادير تعاملت مع جسده بالتي هي أحسن، باستثناء عينيه اللتين ضاقتا بصورة غريبة، تحسب أنه مغمض دائمًا ولا يرى أحدًا!

هذا ما كتبه منصور ابن خالتي واصفًا إياه عندما أجرى حوارًا معه، باعتباره أقدم محامي عربي في دبي، واحتفالًا بمرور 35 عامًا على وجوده في الإمارات.

ثلاثون ألف درهم هي قيمة الشيك، الذي حرره الأستاذ صلاح الغندور، وأعطاه لهذا المحامي كمقدم أتعاب في مساء اليوم الذي زارني فيه منصور الذي أصر، هو وعزة وعبد الله راشد، على اقتسام المبلغ مع الأستاذ صلاح. وبعد مناقشات عصبية وطويلة بينهم عند خروجهم من مكتب سيد عبد الباري، انصاع الأستاذ صلاح الغندور لرغبتهم، بشرط أن يتحمل هو نصف المبلغ، ويتكفل منصور وعزة وعبد الله بالنصف الآخر، وهذا ما كان.

عشرة أيام سوداء مرّت عليّ كالدهر، أختنق كل لحظة داخل أربعة جدران أكره نفسي فيها بانتظام. وأبغض أمجد وأشمئز من مايكل.. ألعن الزمن حينًا، ثم أعود لأستغفر الله حينًا آخر، فأتوضأ وأصلي، وأصرع الوقت بقراءة القرآن الكريم، الذي استعرته من مكتبة السجن.

عشـرة أيام مأسـاوية زهـدت فيها الطعـام، فلم أعد أقربـه إلا للضـرورة وعندمـا يقرصنـي الجوع.. وكـم من مرة كابـدت فيها آلام الإمسـاك كلما دخلت الحمام، لكنني لم أشكُ ولم أتبرم.. عشرة أيام كئيبة عرفت خلالها حجـم الدمـوع الـذي يمكـن أن تختزنه عيـن إنسـان، فالنحيب فجـأة كان حليفي، والبكاء المتواصل عندما يهجع كل من أمجد ومايكل كان سـلوتي، حيث أتلو في سري ما أحفظ من قصار السـور، أو أهذئ من روعي بالصلاة قبل آذان الفجر من دون توقف، حتى أصبحت لا أعرف عدد الركعات التي سجدتها، ولا حجم الدموع التي سكبتها!

عشرة أيام مكفهرة كرهت فيها النوم؛ لأنه يسـلمني إلى كوابيـس مخيفة، أراني فيها مجرورًا إلى غرفـة الإعدام مشـلول الإرادة.. أو أنهم يعرضـون أمامي جثتي هنـد المغربية وسـوما الصينيـة بجوار جثـة إيرينا الروسـية، حيث يوجهون لي الاتهام بأنني قتلت هؤلاء النسـاء الثلاثة؛ لأنني أخشـى أن يفضحـن عجـزي الجنسـي معهن، فأنهـض من نومي مذعـورًا أرتجف وارتعش، وأتصبب عرقًا ورعبًا.

عشـرة أيـام مخيفة قررت فيها ألـف مرة أن أطلب من إدارة السـجن أن ينقلونـي إلى زنزانـة أخرى، أتلذذ فيها بالحبس الانفـرادي، هربًا من عويل أمجـد صفوان الدائم وأسـئلته المزعجـة وتنبؤاته المتشـائمة، إذ لا يفتأ أن يكـرر أن حبل المشـنقة هـو مصيـرنا المحتـوم، لكنني أتراجـع عن قراري، وأقنع بنصيبي المحتم وحظوظي العاثرة في الحياة.

عشـرة أيام سيئة الطالـع، نُهبت فيها روحـي، فصرت أسـيرًا الذكرياتي المشؤومة، لأكتشـف أن حياتي كلها كانت ضـلالًا في ضـلال، تظللها خيبة

دائمـة ومتظمـة؛ فلا أنـا حققت أحلامـي، ولا أنـا نجحت فـي اختبـارات الذكـورة، ولا أنـا جمعت المال مثـل كل الذين يأتون إلـى الخليج! فلماذا أعيـش إذن؟ وكيـف تحملت ذاتي بعـد كل هذه المـرارات التي تزدهر في صـدري؟ حقًّا لقد صدق أبي الملعون، عندما صرخ في وجهي: «الفاشـلون فقـط مـن يبحثون عـن الرزق خـارج بلدانهـم».. هأنـذا أدفـع الآن ضريـة خروجي من مصر. إن الله يعاقبني على كل الموبقات، التي ارتكبتها طوال حياتي، ولكنني كنت قليل الحيلة في بلدي، وحاولت كثيرًا أن أجد الوظيفة اللائقـة، فلـم أفلح. فلماذا يكون العقاب الإلهي قاسـيًا هكـذا... الإعدام! أسـتغفرك يـا الله وأتـوب إليك! لا حل لي سـوى التقرب إلـى المولى عز وجل بالصلاة وقراءة القرآن.

عشـرة أيام حزينة وأنا أسـعى جاهدًا لإزالة هذه الغمة عن روحي، راضيًا بما يهيئه لي الرحمن، قانعًا بعدله، طامعًا في غفرانه.. عشـرة أيام بائسـة، لم أذق فيهـا طعمًـا لفرح أو رضـا، إلا حين تهل عزة سـليمان بوجهها الصبـوح على شاشـة خيالي، فأتعجـب من تصاريف الزمان وغدر الأيام! وأتسـاءل مغتاظًا وموجوعًا: كيف يهبني الله هذا الملاك الأنثوي السـاحر، ثم يلقي بي في غياهب السـجن، في جريمة لم أرتكبها أصلًا؟ وإن كان رذاذ الفضيحة قد لوث سـمعتي إلى الأبد. وسأفقد وظيفتي حتمًا إذا نجوت. وستهجرني عـزة، ولـن أراها ثانية، إذا منّ الله علي بتجاوز هـذه المحنة والخروج منها سـالمًا.

عشـرة أيام مؤلمة أصـارع فيها روحي، وأذود عن نفسـي ضـباع الرعب التـي تنقض عليّ طـوال النهار؛ فتحرمني لذة النوم في الليل، فأظل سـاهرًا

أتأمل وأترقب، وأستغفر وأصلي، حتى أنني أصبحت غير قادر على التعامل مع أمجد صفوان، الذي فاقم السجن من رائحته القـذرة بصورة لا تطاق؛ حيث أصبح ينفر من فكرة الاستحمام، ويغضب بشدة إذا اقترحت عليه أن يستحم، على الرغم من وجود دش جيد جدًّا داخل السجن، فأهرب من حديثه المقبض وتحليلاته الخائبة وعويله المزعج بالصمت والنظر إلى الأرض.

عشرة أيام ملعونة... حتى جاء فرج الله من دون سابق إنذار؛ ففي ظهيرة يوم الخميس 12 يوليو 2007 استدعانا قائد السجن لمقابلته... ذهبنا إليه أنا وأمجد صفوان، لا نعرف ماذا حدث، ولا ماذا سيفعلون بنا؟

-ألف مبروك... لقد تم القبض على القاتل الحقيقي.

لم أصدق أذني، فتلعثم لساني وانحاش الكلام في صدري أثناء انهمار دموعي فجأة على الرغم مني.. أما أمجد فقد قفز إلى أعلى، حتى كاد يلمس سقف الحجرة، وهو يصرخ بعبارة واحدة: الحمد لله... الحمد لله.

- لا تبتهج كثيرًا... أنت مازلت ضيفنا لأنك متهم بتجارة المخدرات.

بسخرية مرة وبّخ قائد السجن أمجد صفوان بهذه الجملة، فتوقف عن القفز، ولكنه لم يتوقف عن شكر الله، وإن كانت نبرة صوته قد خفّت كثيرًا.

بعد أقل من ثمانية وأربعين ساعة كنت حرًّا طليقًا.. لا أصدق أنني أجلس في سيارة منصور، وبجواري عزة سليمان تمسك يدي بقوة، بعد أن قلت لها وأنا أصافحها وأبكي أمام مبنى النيابة في قلب دبي:

- أحبك يا عزة... أحبك كثيرًا.

لملمتني في حضنها، كانت ترتدي فستانًا أخضر، يشبه فساتين مريم فخر الدين في أفلامها القديمة.. قبلتني في خدي، ثم همست بصوت زرع في فؤادي بساتين السكينة:

- وأنا أيضًا... أحبك يا محمد... يا ابن بلدي.

هنا تدخل منصور، وهو يربّت على كتفينا معًا:

- متى سنفرح بكما؟ هيا إلى السيارة.

فوجئت بسؤاله، وتعجبت من جرأته، فلم أرد.. لكن عزة هشّمت حاجز الصمت، الذي ساد فترة، وهتفت بصوت يختلط فيه الجد والخجل بالضحك:

- قل لابن خالتك... أنا ليس لدي مانع.

فعقّب منصور على الفور:

- أخبرها يا رجل برغبتك... لماذا تقف هكذا كالحجر؟

قد تكون هذه أول مرة في حياتي أتجرأ فيها هكذا، فسألتها بقلب مرتجف وعيون ساخنة تحرق خدي:

- هل تقبلين الزواج بي؟

- طبعًا... وخلال هذا العام.

قالت ذلك بحسم، ثم أردفت:

- لا تقلق... وظيفتك محفوظة في الشركة.

منصور الذي كان يتابع تحقيقًا عن أثر العدوان الإسرائيلي على لبنان في إذاعة لندن، بعد مرور عام على اندلاع الحرب، أغلق الراديو فجأة، ليعقب على كلام عزة سليمان:

- عليك أن تتقدم بالشكر الجزيل إلى عبد الله راشد وعزة، حيث كان لهما الدور الأبرز في حث الإدارة على الاحتفاظ بك، بعد أن شاعت أخبارك وصورك في الجرائد مع تفاصيل الجريمة!

نظرت إلى عزة بخجل، وتساءلت: كيف تراني الآن، بعد أن أيقنت أنني واحد ممن يسرقون اللذة في بيوت الدعارة؟ كيف أنفي عن نفسي هذا السلوك الشائن، الذي هجرته فعلًا بعد أن نفحتني نسيم غرامها؟ يجب أن أعلمها أن وجودها في حياتي يمثل بداية صفحة طاهرة في كتاب أيامي، وأنني لم أسع إلى أي امرأة منذ أسرتني عيناها الساحرتان. ترى... هل ستصدق عزة كلامي هذا، وأنا ما دخلت السجن إلا بسبب زيارة مشؤومة لبيت دعارة؟ توقفت السيارة في طابور طويل، عند شارع «عود ميثاء» في انتظار الفرج، فالزحام في دبي أصبح لا يحتمل. أدار منصور مؤشر الراديو، فانطلق صوت المذيع؛ ليؤكد قيام إسرائيل بمناورات عسكرية استعدادًا لمواجهة صواريخ حزب الله، عند اندلاع أي حرب جديدة كما هو متوقع. تساءلت عزة بانزعاج:

- متى تنتهي الحرب؟

بسرعة جاوب منصور، وكأنه كان يعرف السؤال مسبقًا:

- عندما تستفيق مصر وتستعيد هيبتها.

- هل تحب جمال عبد الناصر؟

فوجئ منصور بسؤال عزة سليمان، فنظر إليها بعد أن أوقف السيارة مرة أخرى في إشارة شارع المرقبات:

- لماذا تسألينني هذا السؤال؟

- لأنني أحبه مثل أبي الذي حكى لنا الكثير عنه.. كما أنني قرأت بعض الكتب التي تمجد الرجل.

انبرى منصور في إبداء رأيه في عصر جمال عبد الناصر، الذي اعتبره زعيمًا وطنيًا طاهرًا، بعكس من جاءوا بعده؛ حيث استطاع أن ينقل مصر نقلة كبرى نحو التقدم والعزة.. لكنه ارتكب خطأ فاحشًا حين قام بتأميم الحياة السياسية، وإلغاء الأحزاب.. كما أن عبد الناصر لم يعامل الطبقة العاملة بـ...

لم أستطع مواصلة الإنصات إلى منصور، وهو يفند تجربة عبد الناصر؛ لأنني كنت أعرف هذه الآراء من قبل؛ لذا وجدتني أسرح في فكرة الزواج من عزة، فامتلأ كياني كله برعب كبير لما يمكن أن يحدث في ليلة الزفاف، فقد أخفق فيما ينجح فيه الرجال. وتتكرر مأساتي مع هند وإيرينا المسكينة وسوما.. لماذا تورطت هكذا في طلب الزواج من عزة؟ إن منصور السبب... هو الذي جرجر لساني لأطرح عليها رغبتي... هل أتراجع؟ هل أشرح لعزة المصيبة التي تنتظرها إذا اقترنت بي؟ ترى... هل إخفاقي في

مضاجعتها أمر محتم حقًا، أم أنني أبالغ؟ لأن عزة ليست مثل هؤلاء النسوة اللاتي كن شاهدات على عجزي!

إنها حبيبة قلبي ومليكة الفؤاد التي ترفرف جوانحي إذا ذكرتها.. أما الأخريات، فكن مجرد عاهرات يعن لذائذ الجنس بالمال... لا حب ولا يحزنون! عليّ أن أطرد هذه الوساوس المؤثرة من خيالي، وأواجه مستقبلي برحابة صدر، وأفق متسامح، بعد أن منّ الله عليّ بالبراءة والخروج سالمًا من أكبر المحن.

- ما رأيك أنت يا محمد؟

لكزتني عزة بخفة وهي تسألني، فعدت من سماواتي، وأنا أجفل قليلًا:

- في ماذا؟

- ألم تسمع ابن خالتك؟ إنه يؤكد أن عبد الناصر لم يكن اشتراكيًا، وأنه كان يدعم فكرة رأسمالية الدولة. ما رأيك؟

- أعرف آراءه هذه من قبل.. لكن أخبروني من فضلكم: كيف كانت الجريمة؟ وماذا كتبوا عنها؟

حدجتني عزة بنظرة احتجاج؛ لأنني لم أقل ماذا كان يمثل عبد الناصر، وقبل أن تعبر عن هذا الاحتجاج بالكلام، كان منصور قد توقف عند مطعم فرحات لتناول غداءنا، وهو يقول مادًا سبابته في وجهي:

- منذ الثامنة صباحًا ونحن ننتظر جنابك في النيابة... الساعة تجاوزت الثالثة والجوع قرصنا.

- معك حق... أنا جائعة جدًا.

تبرع منصور بسرد ما قاله شرطة دبي في وقائع مقتل إيرينا الروسية، بهذه العبارة: «يجب أن تعرف أن دبي تمتلك جهاز شرطة قويًا جدًا، يعمل به خبراء أكفاء يستخدمون أحدث الأجهزة في العالم، لذا لم يكن صعبًا أن يتوصلوا إليه... إلى القاتل الحقيقي.. اسمه إيجور وهو شاب روسي عمره 22 عامًا فقط.. كان مفتونًا بإيرينا بعد أن تعرف إليها عن طريق شبكة تجارة المخدرات، التي كانت إيرينا وصديقك أمجد صفوان ضمن أعضائها».

توقف منصور عن الكلام ليلتهم مزيدًا من الأرز، ولكني شجعته بنظرة من عيني ليواصل، فمسح فمه بمنديل ورقي، قبل أن يستطرد قائلًا: «حاول إيجور كثيرًا أن يكسب قلب إيرينا، ولكنها كانت تصده على الدوام. كما أنه سعى جاهدًا أن يثنيها عن ممارسة الدعارة، فلم ينجح. وفي يوم الجريمة كان إيجور مكلفًا بنقل كمية من المخدرات إلى منزل إيرينا للتخزين. وكالعادة كرر أمامها عشقه الدائم لها، وشغفه بها، ثم حاول تقبيلها، فنهرته بعنف وشتمته، كما قال في التحقيق. لكن من سوء حظهما، أو حظكما أنت وأمجد، أن الحارس الهندي للبناية كان يتولى تنظيف الطرقة أمام شقتها، فأنصت إلى المشاجرة العنيفة التي دارت بينهما، فقرع الباب عدة مرات، فلم يفتح له أحد.. آنذاك هرول الحارس نحو السوبر ماركت، الذي يقع أسفل البناية، ليجري اتصالًا بالشرطة؛ لأنه لم يكن يملك رصيدًا في الموبايل الخاص به». توقف منصور مرة أخرى ليطلب من الجرسون مزيدًا من الباذنجان المخلل الذي يعشقه.. نظرت إليه مغتاظًا، فابتسم وهو يقول: «سأكمل حالًا». أما عزة فعاتبتني برفق قائلة:

- دعه يكمل طعامه... ثم أنني أحتفظ لك بكل الجرائد التي تناولت القضية.

شكرتها في الوقت الذي راح فيه منصور يستعيد تفاصيل الجريمة، حيث تابع: «مع إصرار إيرينا على إهانة إيجور وسبّه بأقذع الشتائم، حيث وصفت أمه بأنها هي الداعرة.. لم يتمالك نفسه، وتوجه نحو المطبخ ليحضر سكينًا، وذبحها في الحال. هرب إيجور من الشقة من دون أن يغلق الباب؛ حتى لا يصدر صوتاً، ثم هبط من السلم الخلفي للبناية، في اللحظة التي وصلت فيها أنت وأمجد إلى الشقة، فوجدتما بابها مفتوحًا». توقف منصور للحظات، قبل أن يسألني باسمًا:

- هل يمكن أن أطلب الشاي الآن؟

- اللعنة على حظي العاثر.

قلت ذلك بصوت خفيض حتى لا تسمعني عزة، ولكن أذنها التقطت لعنتي، فسألتني بمكر واحتجاج:

- أي حظ عاثر؟ لماذا ذهبت إلى هناك أصلًا؟

اختبأت في جلدي من فرط الخجل، ولم أعلق.. أنقذني منصور عندما لاحظ اضطرابي وحيرة عزة وضيقها، فقال ضاحكًا قبل أن يدفع الحساب:

- وقائع تشبه ما يحدث في أفلام السينما... أليس كذلك؟

في مساء تلك الليلة الأولى من الحرية، زارني كل الذين مروا على حياتي، وأنا ممدد على السرير أرمق سقف الغرفة، وأتأمل ما جرى لي..

لكن زياراتهم كانت مؤقتة ومشوشة وسريعة، حتى عزة سليمان لم تقض وقتًا أطول من الآخرين في هذه الزيارات، ولكنها كانت تغدو وتروح على سطح خيالي. رأيت صور أبي وأمي وحسن وثريا ومحاسن ومنصور والأستاذ صلاح الغندور وموسى الوحش وهند وإيرينا وغيرهم.. كل هؤلاء زارتني صورهم وخيالاتهم، ولكن صورة واحدة فقط ظلت تزاحم بقية الصور وتصر على الحضور.. صورة أمجد صفوان، وهو يصفع مايكل الفليبني هي التي ظلت تطاردني في هذه الليلة، حتى رحت في سبات عميق لم أذق له طعمًا من قبل!

***

30

أنا ... لآخر مرة

- نعم... ثلاثة أشهر وأربعة أيام بالتمام والكمال.

كررت الرقم مرة أخرى أمام الأستاذ صلاح الغندور، وأنا مطأطئ الرأس، مسددًا بصري نحو الزخارف المتداخلة للسجادة الضخمة، التي تتوسط غرفة الصالون في منزله.. كنت أطمر في نفسي حزن العالم كله، وكان الأستاذ صلاح قد أعاد عليّ سؤاله ليتأكد من أنني متزوج منذ ثلاثة أشهر وأربعة أيام.. ومع ذلك، فمازالت زوجتي تسبح في نهر العذرية. وما زلت أنا أغرق في بحر العجز الجنسي!

لم أمكث في القاهرة سوى أسبوع واحد فقط بعد حفل الزفاف.. وقد تصرفت عزة سليمان بحصافة، فلم تخبر والدنها - ولا أي أحد - أنني أخفقت في فض بكارتها، بل كذبت على أمها، وطمأنتها في اليوم التالي لزفافنا: بأن الأمور كلها تمام، وأنها صارت زوجة سعيدة!

المدهش أن عزة لم توبخني أو تعنفني قط، بل كانت تلتمس لي الأعذار كل مساء، عندما نتعرى لندخل حلبة الجنس، لأخرج منها مهزومًا وخَجِلًا.

- ليس هناك مشكلة... أنت مجهد اليوم.

أو تقول:

- لقد مررت بتجربة قاسية جدًّا يا محمد، والسجن يؤثر في كفاءة الرجال كما يقولون.. أنت في حاجة إلى بعض الوقت؛ لتسترد لياقتك النفسية وعافيتك الجنسية.

لم أكن أرد على مبرراتها، بل كنت أنظر إلى الأرض دومًا، وهي تلقي رأسها في صدري أثناء تقديم عريضة التبريرات هذه، ثم تقبل يدي وتنهض؛ لتأتي لنا ببعض الفاكهة، أو تعد قليلًا من العصير في المطبخ الصغير للاستوديو، الذي استأجرناه في بناية تقع في شارع الملك فيصل بالشارقة.

لم أفكر لحظة في أن أخبر عزة بما جرى لي من فشل على أسرة العاهرات فيما مضى.. كما لم أقوَ على أن أعلن لها أنني فيما يبدو عاجز جنسيًّا قبل السجن وبعده. وأنها ستظل محرومة إلى الأبد من نعمة الأمومة، إذا ظلت زوجة لي.

ثلاثة أشهر والمسافة بين عزة وفؤادي قبلتين لا أكثر، ومع ذلك لم تشكُ ولم تتذمر.. لكنني كنت ألمس شحوب وجهها تدريجيًّا، فأبتئس وأكتئب، وكنت أتأمل خفوت ابتساماتها مع مرور الأيام، فأحزن وأنزعج. وكنت أشعر بانطفاء ورود أنوثتها مع الوقت، فأتألم وأتوجع.. وكنت أرنو إلى صمتها الذي يلازمها فور خروجنا من الشركة وحتى دخولنا إلى البيت، فأبادلها صمتًا بصمت، وهمًّا بهَم!

فـي كل مـرة أهـب مـن سـريري عاريًـا مخـذولًا، أدور في الاسـتوديو لا أعرف مـاذا أفعل؟ أتهرب من عينيها، وأقاوم نظراتها المتسـائلة بدخول الحمـام، والمكـوث فيه أطول فترة ممكنة، حتى وصـل منصـور ابن خالتي من القاهرة، بعد أن صـار أبًا لطفل أطلق عليه اسم «كامل».

فـي أول لقـاء لنـا علـى مقهى «ذكريـات»، بحثُ لـه بكل شـيء، بل لم أتمالك نفسـي وأنا أفيض في الحديث، فبكيت ووضعت وجهي بين يدي.

- هوّن عليك يا محمد... ستزول هذه الغمة حتمًا.

قالهـا وهـو يضـع يده فـوق كتفـي مواسـيًا.. كان منصـور فرحًـا بأبوته الجديدة، فأخذ يحدثني عن مشـاعره، التي تفجرت بعد أن أشـرقت الدنيا بوجـه «كامل» كما أكد لـي. تعجبت أنه لم يحاول أن يناقش معي المعضلة التي تؤرقني، وتفسـد عليّ حياتي، إذ ما فتئ يحكي لي كيف استقبل والداه وأشقاؤه وصول ابنه «كامل» إلى الدنيا، وكيف تنبأ له جده - والد منصور - بأنـه سـيكون من العظماء؛ لأنـه لا ينظر إلا إلى أعلى مثلمـا كان يفعل أمير الشـعراء أحمد شـوقي، على حـد قول الجد. سـرد لي منصـور الكثير عن «كامـل» وحضوره وبهائه وفرحته به، ثم توقف عـن الكلام فجأة، وجذب نفسًا عميقًا من الشيشـة، والتفت يمنة ويسـرة قبل أن يسـألني:

- هل تمانع في أن نطرح مشكلتك على الأستاذ صلاح الغندور؟

قـال ذلـك بصوت خفيـض، على الرغم مـن أن رواد المقهـى في ذلك المسـاء لم يكونـوا بالعـدد الكبيـر.. مفاجأة غيـر متوقعة. ولماذا الأسـتاذ

صلاح بالتحديد؟ وكأن منصور أدرك ما يحتمل في ذهني؛ فلم ينتظر كثيرًا ليكمل اقتراحه الغريب:

- أدري أنك لن تملك القوة النفسية للذهاب إلى طبيب.. دعنا نبدأ بالأستاذ صلاح، فثقتي به لا حدود لها، وأظن أنه سيقدم لك حلولًا ناجعة، لأنه درس علم نفس أولًا، ولأنه من أولئك الذين يسارعون في الخيرات ثانيًا.. وقد لمست ذلك بنفسك.

- ولكن؟

لم يمهلني حتى أكمل سؤالي أو تعليقي؛ إذ قفز منصور فوق لساني هاتفًا:

- إذا أخفق الأستاذ صلاح، فليس لك سوى الطبيب... والله يعينك.

حسنًا... ظننت أنني سأجد حلًّا لمصيبتي عند منصور، فإذا به يعترف، من دون مباشرة، بأنه لا يملك الحل، وأن الأستاذ صلاح هو الأقدر على تتبع مشكلة عويصة كهذه، وفك طلاسمها. حقًّا... لقد ضُربت عليّ الذلة.

نعم... أنا أحترم الأستاذ صلاح، وأحبه، بل يمكن القول أنني من المفتونين به كرجل.. لكن أن أتعرى أمامه، وأسرد له وقائع خيباتي مع النساء أمر صعب، بل صعب جدًّا. ولكن هل أنا قادر على مصادقة العجز على سرير عزة المسكينة كل مساء؟ وأول أمس شاهدنا معًا فيلم «الطريق» لشادية ورشدي أباظة، فاحترق فؤادي، وأنا أتابع هزولة البطلة نحو عشيقها لتروي ظمأها الأنثوي؛ ذلك لأن زوجها أصبح غير صالح للاستخدام

الذكوري.. شممت عزة رائحة النيران التي تتقد في أحشائي، وأنا أتأمل سيناريو الخيانة على شاشة التليفزيون، فقامت بتغيير القناة، وهي تفسر - مجاملة لي - ما أقدمت عليه:

- إنه فيلم بائخ لا يستحق المشاهدة.

حدجتها بنظرة أسف، ولم أعلق.. والآن يؤكد لي منصور أن ابن عم الأستاذ صلاح تعرض لتجربة مماثلة لتجربتي، وقد استطاع أن يتجاوزها بنجاح بفضل تدخل الأستاذ صلاح ومعاونته له.

- منصور... هل يمكن أن يفشي الأستاذ...

قاطعني منصور بحدة قبل أن أكمل، وهتف بصوت عال، أعتقد أن كثيرًا من رواد المقهى قد سمعوه:

- الأستاذ صلاح أنبل الناس... لا يفشي أسرار أحد.. وابن عمه هو من حكى لي مأساته، وليس الأستاذ صلاح؛ لأنه يعمل هنا في بنك دبي، فتعرفت عليه وصرنا صديقين، قبل حضورك إلى هنا بمدة.

كلام قاطع ومطمئن لا ريب، ولكن من أين تواتيني الجرأة على الحديث أمامه.

- انصت لي يا محمد... سأحدد لك موعدًا مع الأستاذ صلاح، وسأكون معك، فلا تقلق ولا تضطرب.

حسم منصور القضية، وحاول أن يزيح عني همًا كبيرًا بحضوره جلسة المكاشفة، التي تمت بأسرع مما كنت أتوقع؛ إذ فاجأني، عندما عدت إلى

بيتي في اتصال تليفوني، بأنا سوف نلتقي الأستاذ صلاح في منزله في التاسعة مساء الغد!

فتح لنا الأستاذ صلاح بنفسه الباب.. كان يرتدي «روبا» أحمر فوق بيجاما ذات لون أزرق حالم.. قلت لنفسي «حتى وهو يرتدي ملابسه المنزلية، لا يتخلى عن أناقته». استقبلنا بود شديد، ثم تقدم نحونا أحد ابنيه ليصافحنا بأدب ولطف، وعاد إلى مجلسه أمام الكومبيوتر.. أوضح لنا الأستاذ صلاح بذكاء؛ حتى يشرح صدري أن زوجته في مؤتمر بالكويت، وستعود بعد ثلاثة أيام، بينما ابنه الثاني يغط في النوم بعد عودته من النادي؛ حيث يتلقى تدريبات في الكاراتيه والتنس.. قال ذلك بنبرة لا تخلو من فخر وسرور.

ما إن جلسنا في الصالون الفخم، حتى هلّت علينا خادمته الفلبينية ذات النهود النافرة والمؤخرة المكتنزة، تحمل الشاي والكيك.. تابعت تحركاتها خلسة، وتذكرت أنها كانت كنزي الأنثوي أكثر من مرة، وأنا أمارس العادة السرية.

خمس ساعات كاملة حكيت فيها تجاربي المرّة مع هند وإيرينا وسوما. حتى عندما أمر خادمته بإعداد العشاء، لم يتوقف الأستاذ صلاح عن الأسئلة، ولم أبخل أنا بالإجابة.. كنت جائعًا، فالتهمت الطعام بسرعة؛ خاصة أنه كان طعامًا بسيطًا ولذيذًا مكونًا من البيض المقلي والمسلوق والفول والجبن والقشدة والمربى والمخلل.. لاحظت أن الأستاذ صلاح لم يأكل إلا بضع لقيمات صغيرة، بعكسي أنا ومنصور؛ حيث أعدنا الأطباق

كما كانت بيضاء من غير سوء تقريبًا.. لكن الأستاذ صلاح أفرط في تناول القهوة، فطلب من خادمته أن تعدها له أكثر من مرة.

في البداية، كنت أتحدث باضطراب شديد، فكانت تتكسر على شفتي بعض الحروف، فتخرج مرتبكة وقلقة. ولكن مع مرور الوقت، ومع تشجيعه لي أن أفيض ولا أخجل، بدأ لساني في التدفق، واستقامت عباراتي. ومع ذلك حين سألني عن العادة السرية، وهل أمارسها وكيف؟ اعتراني بعض الخفر، لكنني أجبته بكل صراحة ووضوح. وأخبرته أنني أجد لذة كبرى في ممارسة هذه العادة، وأنني أمتلك مقدرة على استدعاء أي امرأة في خيالي ومضاجعتها، بل عددت له بعض أسماء النساء اللاتي جذبتهن نحو خيالي، ومعظمهن مشهورات.. لكنني لم أجرؤ أبدًا على أن أشير إلى أن خادمته الفلبينية ضمن هؤلاء النسوة!

كان الأستاذ صلاح ينصت لي باهتمام بالغ، وكان يدوّن بعض الجمل في ورقة صغيرة أمامه، فلما رأى الدهشة تتراقص في عينيّ، ابتسم وقال:

- أنا لستُ طبيبًا نفسيًّا، ولكنني أسجل نقاطًا مهمة، حتى نحاول أن نقبض على جوهر المشكلة معًا.

أعجبني تواضعه وصراحته، ولكنني فوجئت بسؤاله عن أقدم شيء أتذكره في حياتي ومازال عالقًا في ذاكرتي.. لم أفهم الهدف من هذا السؤال، وهو لم يشرح. ومع ذلك أخبرته عن مشهد قديم يوتّرني كثيرًا كلما عبر خيالي، وهو حين ضرب أبي شقيقي الأكبر حسن بقبضة يده في وجهه، فأسقط سنّته الأمامية؛ الأمر الذي أدى إلى صراخي الشديد،

عندما رأيت الدم يسيل من فم أخي، فنهرني أبي بعنف وضربني في كتفي ليسكتني!

عندما عدت إلى بيتي في تلك الليلة، كنت سعيدًا جدًّا، وأشعر أن جسمي قد خفّ، بعد أن تخلصت من أثقاله التي لا تحصى، بل كنت أود أن تنقضي الساعات بسرعة، لأعاود اللقاء مع الأستاذ صلاح في مساء الغد، لنستكمل الحديث كما اتفقنا، بعد أن أنهاه بذكاء، مؤكدًا لي أن الإجهاد قد حلّ بنا نحن الثلاثة. فور دخولي إلى المنزل، داهمتني رائحة عزة الباذخة وعطرها الأخاذ.. كانت شبه نائمة في قميص نوم وردي، أظهر مفاتنها في أحسن تقويم، فأضرم جسمها اللين ومنحنياته الأسرة نيران الرغبة في جسدي.. اقتربت منها بهدوء، لأقبل وجنتيها وأنا أرتجف، فبادلتني قبلة بقبلة طويلة.. سألتني إن كانت تعد لي طعام العشاء، وهي تحاول النهوض. شكرتها وأخبرتها أنني تناولت عشائي في منزل الأستاذ صلاح، حيث كذبت عليها وأعلمتها أنني أذهب إليه بصحبة منصور؛ لنسهر ونتسلى بلعب الشطرنج. ضممتها في صدري بلهفة، وأنا أسعى لنزع قميص النوم عنها، ولكنها منعتني برقتها المعتادة، وهي تهمس:

- لا... لقد جاءتني الدورة الشهرية عصر اليوم.

انزعجت... وابتعدت عنها قليلًا بصورة لا إرادية، وأنا ألعن حظي، لأن شهوتي في تلك الليلة كانت أقوى من الزلازل والبراكين.

العجيب أن منصور الذي لم ينطق بكلمة في لقاء الأمس، تدخل اليوم في الحديث أكثر من مرة، سائلًا وموضحًا وساخرًا؛ فقد استقبلنا الأستاذ

صلاح بمحبته المعروفة وسألني عن أحوالي، فأكدت له أنني كنت سعيدًا أمس، حيث شعرت أن جسدي تخفف من أحمال كثيرة، عندما نثرت همومي على عتبة باب منزله. ابتسم، فتألقت وسامته أكثر، ثم باغتني بهذا السؤال:

- هل تذكر طفلة معينة كنت تلعب معها في الحارة، ودارت بينكما أشياء خاصة؟

ضحك منصور لدرجة القهقهة، وهو يصرخ أو يكاد:

- مني ابنة عم محمود العطار طبعًا... أليس كذلك؟

رمقنا الأستاذ صلاح بنظرة تعجب؛ حيث كان كل منا يسدد بصره نحو الآخر. ابتسمت، وأنا أخفض رأسي موافقًا على إجابة منصور.. كالعادة جاءتنا الخادمة الفلبينية بالشاي والقهوة والفواكه، ثم العشاء، في حين شرعت في سرد حكايتي بمنى. قلت له كيف كنت أحب التودد إليها، واللعب معها.. لكن أولاد الحارة الأكبر سنًا كانوا يستحوذون على كثير من اهتمامها. ومع ذلك، كنت أشعر أن منى تخصص لي جانبًا من رعايتها؛ فمرات كانت تشتري لي ولها «شيبسي»، ومرات تقاسمني الشوكولاته الخاصة بها. ومرة أحضرت فانوس رمضان، وجعلتني أمسكه، وطلبت مني أن أدور حولها، وهي تغني «وحوي يا وحوي».. ثم شجعتني على أن أردد وراءها مطلع الأغنية الشهيرة، ففعلت وأنا في غاية السرور.

تجمد لساني وتوقفت فجأة عن الكلام، وأنا أطرق محتشدًا بحزن كبير.

- هه... ماذا تذكرت؟

سألني الأستاذ صلاح بلهفة، وكأنه أدرك ما جال بخاطري، حين لاحظ أن سكوتي زاد عن الحد المتوقع.. أما منصور فهبّ واقفًا، ومدّ يده ليزيل بمحبة أثر تقطيب الحاجبين، الذي انطبع في وجهي.. شكرته بهمهمة غير مسموعة، وأنا أردد:

- أبدًا... تذكرت موقفًا مؤسفًا.

- ما هو؟ أخبرنا به فورًا من فضلك.

لم أكن أتخيل لحظة أن هذا الموقف المؤلم هو الذي يحجب عني متعة اختراق النساء، وأن الصفعة التي تلقيتها من أبي أمام منى، ستحول بيني وبين أن أتلذذ برجولتي كاملة مع المرأة.. كان يومًا أسود. أذكره جيدًا.. كنت في الصف الخامس الابتدائي. وكنا نلعب، نحن أطفال الحارة، لعبة «الاستغماية».. وكانت بشائر ليل الصيف تهل علينا، محملة بنسيم طري أحييناه وفرحنا به.. قلت لمنى، ونحن نبحث عن مكان مختلف نختبئ به من الأطفال الذين يبحثون عنا:

- هيا ندخل تحت بئر سلم بيتنا.

- فكرة جميلة... هيا بنا.

هرْولنا منى وأنا نحو بيتنا المتهالك.. دفعنا الباب الخشبي القديم بكل طاقتنا، فأصدر أنينًا تعودنا عليه، ودخلنا لنتخذ موقعنا في بئر السلم المظلم.. خافت منى والتصقت بي.. اعتراني الخوف أنا أيضًا، لكني

حاولت أن أبدو أمامها شجاعًا، فطمأنتها ألا شيء هناك يدعو إلى القلق، وأن هذا المكان سيوفر لنا فرصة ذهبية للاختباء من زملائنا!

بعد فترة صمت قصيرة، كنا نسمع فيها صخب قلوبنا المتخفضة من فرط الخوف من العتمة، صرخت منى فجأة؛ لأنها شعرت أن حشرة ما لدغتها.. في تلك اللحظة دخل أبي البيت عائدًا من عمله، فسمع الصرخة.. توقف وسأل: من هناك؟ خرجنا، منى وأنا، من بئر السلم مرتبكين.. فلما رآني أبي ومنى ملتصقة بي، هوى بكف يده الغليظة، وهو يسبني ويصرخ:

- يا ابن الكلاب... ماذا تفعل هنا في الظلام؟

ألقى غضب أبي في قلب منى الرعب، فهربت وتركتني أبكي منفردًا، بعد أن دفعني أمامه إلى شقتنا، وهو يلعن أمي، التي فوجئت بشتائمه وألفاظه البذيئة تسبقه إلى المنزل:

- ابنك يصطحب البنات إلى بئر السلم في الظلام ليعبث معهن!

كانت ليلة كئيبة، حيث نالت أمي من السباب ما يكفي لإهانة قبيلة من النساء.. أما أنا فظللت فترة ممنوعًا من الخروج من البيت. ولما سُمح لي بالنزول إلى الحارة مؤخرًا، خشيت الاقتراب من منى أو التحدث إليها، على الرغم من أنها كانت تحاول الكلام معي.. لاح لي أنها نسيت الصفعة والشتائم التي طالتني، ولكنني لم أنس ولم أسامح.

كنت أسرد هذه الواقعة الموجعة بصوت يرتجف وإيقاع سريع.. وحين انتهيت، أشار الأستاذ صلاح بيده أن أكف عن الكلام، ثم أعطاني عصير البرتقال لأواصل تناوله، إذ كنت رشفت منه قليلًا.. لم أنتبه إلى حجم

الصمت الذي ساد، بعد أن توقفت عن سرد هذه النائبة.. كما لم ألتفت إلى الدموع القليلة، التي ترقرقت من عيوني، إلا وأنا أجففها.. بصوت رخيم وأداء واثق، قال لي الأستاذ صلاح:

- مأساتك تكمن في هذه الحادثة المؤسفة.

- كيف يا أستاذ؟.. سأله منصور ..

أجاب الأستاذ صلاح على سؤال منصور، وهو ينظر في عينيه، متحدثًا عني بضمير الغائب، ولا أعرف لماذا!

- أظن أن الإهانة والقسوة والضرب الذي تلقاه من والده أمام منى وهو طفل، كل هذا جعله يرتعب من الاقتراب من أي امرأة بصورة طبيعية؛ إذ صار التواصل الحميم مع المرأة يستدعي فورًا - من دون أن يعي ذلك - ذكرى مشؤومة، قد تعرضه للضرب والإهانة، فتتعطل حواسه وغرائزه تلقائيًا!

- لكن هذه الواقعة لا تطفو على سطح ذاكرتي إلا نادرًا.

قلت ذلك بسرعة وأنا أوزع بصري بين الاثنين.. اعتدل الأستاذ صلاح في مقعده، وتناول رشفة من فنجان القهوة، قبل أن يستطرد في الكلام، بعد أن يمم بصره نحوي:

- انصت لي جيدًا يا محمد... ليس مهمًا أن تظل هذه الواقعة تقرع ذاكرتك ليل نهار.. المهم والمحزن أنها تركت حفرة فاسدة في قاع ذاكرتك، لم يتم علاجها، فصارت تحول، وأكرر من دون أن تعي، بينك وبين أي فتاة تقترب منها بشكل ذكوري.

ثم توقف عن الكلام قليلًا، قبل أن يهتف ضاحكًا:

- أنا أجتهد معك في محاولة لفك اللغز الجنسي الذي يعتريك، علمًا وأكرر أنا لست طبيبًا نفسيًا.. صحيح أنني تخرجت في كلية الآداب قسم علم نفس، ولكنني لست طبيبًا، وإن كنت أعشق هذا العلم وأقرأ فيه كثيرًا.

خيّمت لحظات صمت عقب هذا الكلام القاطع، الذي قاله الأستاذ صلاح، فاستغلها منصور ليتوجه نحو طبق الفاكهة الكائن فوق منضدة صغيرة بجوار باب الغرفة، وأتى بإصبعين من الموز.. أعطاني أحدهما والتهم الآخر.. فازدردته بسرعة. راقني كثيرًا طعم الموز، وتمنيت لو أكلت إصبعًا آخر، ولكنني استحييت أن أطلب ذلك من منصور، أو أن أقوم بنفسي لإحضاره.

بعد أن عبّ منصور الكثير من الماء، سأل الأستاذ صلاح، الذي انشغل بتدوين بعض الأفكار في الورق الذي أمامه:

- إذا كانت هذه هي المشكلة، فما الحل يا أستاذ؟

يخيّل إليّ أن الأستاذ صلاح لم تكن لديه إجابة جاهزة لسؤال منصور؛ إذ بدت نظراته حيرى وهو يتفحصني، فضلًا عن كونه استأذن في الانصراف للذهاب إلى الحمام، من دون أن يرد على السؤال.

ولما آب إلى مجلسنا أمطرني بهذه العبارات:

- أعتقد أننا أمسكنا عصب المشكلة يا محمد، فلا تجزع منها. ولا تخجل من عثراتك مع النساء؛ فكلنا مغمورون بخطايا وآثام.. وكلنا محرومون

مـن التمتع بنفوس سـوية. أنا مثـلًا أكذب أحيانًا علـى زوجتي، وأصبغ شعري منذ أكثر من عشر سنوات؛ حتى أبدو أصغر سنًا وأكثر شبابًا، أي إنني أخدع الناس. علاوة على أنني لا أسـتحي أن أنافق بعض رؤسـائي هنـا؛ حتـى أحتفـظ بوظيفتـي.. كمـا أننـي هربت، كمـا يتهمنـي الرفاق القدامـى ومنهم المرحوم بدر المنيـاوي، من معركة النضال ضـد النظام في مصر؛ من أجل إشـعال الثورة. كذلك هجرت المنظمة السـرية التي كنت عضوًا فاعلًا بها، وجئت إلى الخليج. وقد تلقيت تقريبًا لا حدود لـه، ومازلت، من أصـدقاء وزملاء؛ لأنني تخليت عن أحلامنا بإنصاف الفقراء والإطاحة بالسلطات الغاشمة. باختصار... لا أحد منا يخلو من عيـب أو أكثر، والإنسـان الناجـح حقًّا هو من يحـاول أن يعرف عيوبه، ويسـعى لتجاوزها، والتخلص من آثارها السـلبية. بالنسـبة لي مثلًا – قال ذلـك وهو يرتشـف القهوة – أجـد أن الكتابة تطهرني بشـدة؛ فأنا أكتب يوميًّا، سـواء مقالاتي الصحفيـة، أو إبداعاتي الخاصة من شـعر وقصة ودراسات نفسـية، والتي لم أجرؤ حتى الآن على نشرها؛ خوفًا من ألسـنة النقـاد وأقلامهم. وهذا عيب آخر يضـاف إلـى عيوبي.. المهم يا محمد أن تدرك أن الكتابة حل عبقري للتحرر من أسر مصائبنا النفسـية.

وقع كلام الأسـتاذ صلاح علينا كالصاعقة، وظل منصور يتأمله باندهاش مخلوط بإعجاب كبير.. أما أنا، فاسترحت هواجسي، وأنا أتمتم في سريرتي «الكمال لله وحده». في حين اسـتأذن الأسـتاذ صلاح في الانصراف قليلًا ليطمئن على ابنه. ولما عاد، كان منصور قد بدأ في تناول قطعة شـوكولاته مـن العلبة الفخمة، التي تسـتقر فوق منضدة صغيرة بيـن مقاعد الصالون.. بادرني الأسـتاذ صلاح سائلًا:

- ما رأيك؟

ابتسم منصور، وهو يشير بسبابته نحوي هاتفًا:

- إنه لا يقرأ أصلًا... فأنّى له أن يكتب؟

أزعجني تعليق منصور، واعتبرته سخيفًا جدًّا، ذلك أنني شعرت بالخزي والضآلة؛ لأن الأستاذ صلاح رفع حاجبي الاندهاش، عندما ارتطمت بأذنه عبارة منصور البائخة. ثم سألني بابتسامة مقتضبة:

- حقًّا... ألا تقرأ؟

تولى منصور الإجابة فورًا فقال:

- إنه لا يطيق عليها صبرًا.

زاد اتساع فم الأستاذ صلاح، حين لاحظ ارتباكي وهروب نظراتي نحو الأرض، فزادت ابتسامته، وهو يضع يده على ركبتي هامسًا:

- لا تحزن... إنه أمر عادي، فمعظم الشباب لا يقرأون الآن!

ثم نهض الأستاذ صلاح ووقف خلفي، فلما حاولت القيام معه تأدبًا، منعني وطلب مني أن أظل جالسًا، وهو يتحدث بصوت رخيم:

- يا محمد... أظن أنك تواجه مشكلة عويصة وحرجة، كما أعتقد أننا لا يمكن أن نتجاوزها؛ حتى تستعيد ذكورتك بشكل طبيعي إلا بمغالبة النفس. لذا يخيّل إليّ أن مجاهدة الذات أمر لا بد منه في الحياة بشكل عام، ومعك أنت بشكل خاص.

- ماذا تعني يا أستاذ؟

سألته وأنا أكاد أهم بالوقوف، فمنعني مرة أخرى، وعاد إلى مكانه، وهو يصرح بنبرة قاطعة، كأنه يصدر أمرًا:

- يجب أن تدرك أن هناك نهرًا ينبغي عبوره، وعليه يتحتم أن تكتب تجربتك... لا أعرف كيف؟

ثم عقّب من دون أن يعطي أيًا منا فرصة للتعليق:

- جاهد نفسك وأكتب... سيساعدك منصور... سأساعدك أنا.. المهم أن تسجل المأساة التي تكبلك من جراء القهر الأبوي، كما عليك أن تفكر جديًا في أن تلتمس العذر لأبيك، أو قل أن تتفهم سلوكه الخشن معكم، الذي كان انعكاسًا لظروفه غير المواتية. عمومًا، فالرجل قضى نحبه الآن، ولم يعد يجدي أن يظل موقفك منه سلبيًا كما فهمت من كلامك.. كل هذا لا يمنع بالطبع من استشارة طبيب متخصص إذا شئت، أو إذا لم تقو على الدخول في مضمار الكتابة.

مكثت عدة أيام أفكر، فيما قاله لي الأستاذ صلاح الغندور، في ضرورة أن أكتب تجربتي في الحياة؛ حتى أتخلص من أثقالها وأحمالها الكثيرة، وأهمها الشعور بالقهر الذي غرز بذرته الفاسدة في داخلي أبي رحمه الله. نعم... لقد تسامحت معه الآن، ولا أطلب له سوى المغفرة، كما شرح لي الأستاذ صلاح.

ولكن كيف سأكتبها، ومن أين أبدأ؟ وأنا لا أملك مهارات الكتابة.. وعزة تشجعني وتصر على ضرورة أن أخوض التجربة، وأنها ستوفر لي المناخ الملائم.. لقد حكيت لعزة كل شيء، ولم أخفِ عنها أي موقف،

تعرضت له مهما كان مذلًا ومهينًا كما نصحني الأستاذ صلاح، وقد رحبت عزة بآرائه وأيدت اقتراحه بشدة.

جميلة عزة ورقيقة، وتحملت عجزي كثيرًا.. ولكن هل أكتبها كأنها سيرة حياتي كما يقول منصور؟ أم باعتبارها رواية غريبة أنا بطلها، كما يقترح الأستاذ صلاح؟ إن الرواية فن صعب جدًا كما شرحوا لي، وتحتاج إلى جهد كبير وصبر أكبر. ومع ذلك تبقى الرغبة في الإنجاز هي الدافع الأول في تحقيق هدفي.. هل أنا حقًا متحمس لأن أزيح همومي من صدري؟ هل أنا فعلًا راغب في تخطي أزماتي النفسية والجنسية التي لازمتني طويلًا؟ نعم... فضلك يا عزة لا ينكر، وحضورك البهي في فؤادي نعمة أحمد الله عليها وأشكره.. ولكن يظل السؤال متعبًا ومحيرًا... من أين أبدأ؟ لقد اقترح الأستاذ صلاح أن أقسّم حكايتي، أو سيرتي، إلى عدة أقسام ليسر عليّ الأمر؛ حيث أضع على كل قسم اسم شخص محدد، من الذين تأثرت بهم، أو أثرت فيهم. وهل أنا أثرت في أحد؟ عزة تؤكد أنها أحبتني منذ اللحظة الأولى. وأنها على يقين تام بأننا سنبني أسرة سعيدة، يمرح فيها أطفالنا ويكبرون أمام أعيننا.

حسنًا... كل هذا رائع وجميل، ولكن أنا ليس لي صبر على القراءة، فكيف سأخوض عباب البحر الواسع للكتابة؟ وبفرض أنني تمكنت من وضع الجملة الأولى، فهل أمتلك العزيمة اللازمة للاستمرار حتى النهاية؟ عزة ومنصور وسمية الأبراشي، التي انضمت إلى قافلة المهمومين بشؤوني، وقبلهم الأستاذ صلاح يؤكدون أن الإرادة هي مفتاح النجاح.. وأن الخطوة الأولى هي الأهم، وهي التي ستقودنا إلى إنجاز بقية الخطوات!

حسنًا... فلأنهض.. قمت من سريري متوجهًا نحو منضدة صغيرة في طرف الصالة، كانت عزة قد أعدتها لي مع أوراق بيضاء، وعدة أقلام متنوعة الأحجام والألوان، حتى تغريني بالإقدام.. منصور أيضًا لم يبخل عليّ بالنصائح والروايات، حيث أمدّني بعدد لا بأس به منها، وهو يقول: «حاول أن تقلدها». وهكذا وجدتني أقرأ عدة صفحات من «خان الخليلي» و«الحب في المنفى» و«سرد أحداث موت معلن» و«ابنة الحظ» و«خفة الطائر التي لا تحتمل» و«السراب».. وقد شجعتني عزة على المواصلة والاستمرار، لدرجة أنها كانت تتولى هي القراءة بصوت عال، ونحن جالسان فوق السرير.

ومع مرور الوقت رأيتني معجبًا ومشدودًا إلى «سرد أحداث موت معلن».. وبعد أن انتهينا من قراءتها، أشفقت على سانتياجو نصار، وحزنت لموته المأساوي، كما أن عزة بكت، وهي تتلو المشهد الأخير، الذي يصور كيف قتلوه.

وضعت عزة الروايات التي أعارها لي منصور فوق المنضدة، حتى تكون في متناول يدي وأنا أكتب، لأستفيد منها.. أمسكت «خان الخليلي» ثم أعدتها بسرعة من دون أن أتصفحها! أسمع صوت عزة يخاطبني من المطبخ، وهي تحرضني على البدء قائلة:

- هيا... لا تقلق... سأفرغ من إعداد «المحشي»، وأجلس بجوارك لأشجعك..

لا أعرف كيف كانت أيامي ستمر من دون عزة! ابتسمت وأنا أرد على عبارتها بصوت عال نسبيًّا:

- سأبدأ الآن إن شاء الله.

أمسكت القلم ونظرت إلى الورقة البيضاء أمامي، فتوترت، وهممت بالانصراف، لكنني تذكرت جملة الأستاذ صلاح «جاهد نفسك واكتب»، فظللت قابعًا في مقعدي! قلت لنفسي... أبدأ بعزة لأنها هي التي أخرجتني من العتمة إلى النور، فكتبت: «عزة أغلى إنسان قابلته في حياتي».

شعرت أن البداية غير مثيرة، وأن العبارة التي كتبتها مكرورة وركيكة، فشطبتها!

لاح لي أن أبدأ بأبي، فهو أس المشكلة، وقد فرحت لهذا الخاطر، فكتبت: «أبي كان يقهرني منذ الصغر، ولا أعرف لماذا؟».

أعجبتني البداية قليلًا، ولكنها لم ترق لي بعد دقائق!

فجأة تذكرت أمجد صفوان، أغرب من قابلت في حياتي، فأشفقت عليه! لأنه يقضي عقوبة السجن في دبي لمدة خمسة عشر عامًا بتهمة الاتجار بالمخدرات.

تذكرت أمجد، وهكذا كتبت «لقد تعرفت على أقذر شاب في حياتي».. قرأت عزة العبارة وهي تقف خلفي، فنبهتني إلى أن القارئ قد يظن أن القذارة هنا مرادف للسلوك المرذول، وليس عدم نظافة الجسد.. وافقتها وشطبت هذه البداية، وأنا أشعر بعجز تام.

وقفت، ثم ذرعت الاستوديو ذهابًا وإيابًا يداهمني قلق كبير.. أوقفتني عزة برفق وهي تهمس:

- لا تيأس بهذه السرعة... ستجد المدخل المناسب إذا تحليت بالصبر.

قبلتها في جبينها، وأنا أغمغم بصوت لا يكاد يسمع:

- أشكرك يا حبيبتي... سأحاول مرة أخرى، بعد أن نتناول غداءنا.

في مساء اليوم التالي، بينما نتابع أنا وعزة الحلقة التاسعة من مسلسل «رأفت الهجان» الذي لا أمل من مشاهدته كلما أعادوا عرضه، قفزت من مكاني نحو الأوراق، وأنا مشحون برغبة قوية في أن أكتب.. كانت هند هي التي راودت خيالي لأترك رأفت الهجان ومغامراته، ورحت أسجل: «هند المغربية كادت تودي بي إلى السجن، عندما جعلتني أحتفظ بحقيبتها المملوءة بالحشيش». أعجبتني هذه البداية.. لكن حين أعدت قراءتها أكثر من مرة، فقدت حماسي لها، فشطبتها. لكن وأنا أشطبها، خطر لي مطلع آخر أظنه أفضل، فابتهجت ودعوت عزة، لتقف بجواري لتقرأ ما سأكتبه، وتخبرني برأيها.

وهكذا أمسكت القلم لأسجل أول جملة في الرواية، التي أعلم جيدًا أن منصور ابن خالتي سيعيد صياغتها بلغة أكثر فصاحة وإشراقًا، حتى يجعلها أكثر تشويقًا.

هذا ما كتبته:

«نعم... أنا لم أتمكن من تقبيل أي فتاة طوال حياتي، على الرغم من أنني سأكمل ثلاثين عامًا بعد شهر واحد فقط من الآن».

***

القاهرة، الشارقة، البحرين

من 28/ 7 / 2008

إلى 30/ 8/ 2010

قالوا عن أعمال ناصر عراق

«هـذا هـو الزمن الذي عاشـه أبطـال الروايـة، زمن من غبـار، وهذا هو العالـم الـذي صـوّره المؤلـف فأحسـن تصويـره... فناصـر عـراق رجـل متعـدد المواهب... وقـد منحـه مواهبه المتعددة ثقافة موسـوعية تظهر في كتابه الأخير الذي يتحدث فيه عن الأخضر والمعطـوب في الثقافة والفن والحيـاة... لقد قرأت كتاب ناصر عراق واسـتمتعت، بـه كما قرأت روايته «أزمنة من غبار» واستمتعت بها».

أحمد عبد المعطي حجازي

الأهرام 14/ 10/ 2009

«أزمنة من غبار» و«من فرط الغرام» روايتان جديرتان بالقراءة، مفعمتان بالمحبـة والألـم، تؤكـدان معًـا أن الأدب الواقعي يسـاهم في فهـم أفضل للواقع، وأن له بالتالي قيمة معرفية نظرية علمية ونقدية أو تعليمية كما يقول «بيير زيما» الناقد التشيكي».

فريدة النقاش

مجلة الرواية – الهيئة العامة للكتاب 2009

روايه

«تشع رواية «من فرط الغرام» بأضواء الافتتان بجماليات المكان... ويكمن جانب كبير من شعرية السرد في هذه الرواية، في طريقة طرح أحلام هؤلاء الصحفيين في تحقيق الذات، ودرجة اعتدادهم بإنتاجهم الشعري والقصصي والنقدي ومهاراتهم المهنية. ومع ذلك، فإن الرواية تقدم لنا صورة شعرية شفيفة ومرهفة لمواجد جيل من الصحفيين المحترفين للعمل الثقافي، وشبكة علاقاتهم بمجتمعاتهم المحبطة، وشغف ممارستهم لحرية الإبداع المهني وطموحاتهم وأحزانهم الصغيرة».

د. صلاح فضل

الأهرام 4/ 8/ 2008

«تغري رواية ناصر عراق «من فرط الغرام» بقراءتها في جلسة واحدة... تحمل قارئها إلى عالم لا يخلو من بساطة... كل ذلك في لغة بالغة البساطة والألفة... وقدرة تشكيلية على السرد، الذي يغري بالمضي في القراءة».

د. جابر عصفور

جريدة الحياة 32/ 8/ 2008

«على أن هذه الملاحظة لا تمنعنا من الانحياز لرواية «من فرط الغرام»، التي ينجح صاحبها في كشف النقاب عن جوانب معقدة من حياة المثقفين العرب، وهو ما يقدمه ناصر عراق بلغة بعيدة عن التعسف».

شوقي بزيع

جريدة الحياة 7/ 9/ 2009

«توفر ناصر عراق على أسس حرفية لافتة في روايته «أزمنة من غبار»، لا يمكن المرور بالعمل دون التوقف عندها، ومن أبرزها عمل الذاكرة

الحيوي والنشيط، الذي جعل الأمكنة حاضرة بروائحها المميزة: البيت والمقهى والمرسم والحديقة والجامعة والمدرسة والشوارع».

د. حاتم الصقر

جريدة الثورة اليمنية 19/ 6/ 2006

«بين هذين الخطين... خط العلاقة بين الزملاء والأصدقاء، وخط الحب المتجدد، يتحرك السرد في رواية «من فرط الغرام» بسهولة ويسر... ينسجه ناصر عراق ببراعة... وتمنح النص حضورًا لطيفًا... يجعل تلقيه مقرونًا بالمتعة».

سلمان زين الدين

جريدة الحياة 25/ 1/ 2009

«إن رواية «أزمنة من غبار» لناصر عراق تظل واحدة من روايات النضال السياسي العربي القلائل، ذات النكهة المحببة والعالم الأليف لوجدان القارئ العربي وتعاطفه معها، بسبب من إحباطاته، وفشل النظام السياسي العربي وطغيانه».

د. صالح هويدي

جريدة الخليج 27/ 5/ 2006

«الحقيقة أن رواية «من فرط الغرام» إدانة مرة للواقع البائس المعقد، الذي يعيش فيه الإنسان المعاصر عربيًا وعالميًا».

د. عبد الجبار العلمي

جريدة القدس العربي 23/ 10/ 2010

سيرة ذاتية

الاســم : ناصر عراق

المؤهل : بكالوريوس فنون جميلة -

جمهورية مصر العربية - 1984

العمل الحالي : المنسق الثقافي والإعلامي

لندوة الثقافة والعلوم في دبي

الخبرات السابقة :

مارس - مايو 2010 : منسق عام جائزة البحرين لحرية الصحافة.

2004- فبراير 2010 : مدير تحرير مجلة «دبي الثقافية» منذ عام 2004، التي شارك في تأسيسها، والتي تصدر عن دار «الصدى» للصحافة في دبي بدولة الإمارات العربية المتحدة.

1999 - 2004 : شارك في تأسيس مجلة «الصدى» الأسبوعية، التي تصدر من دبي، وعمل رئيسا للقسم الثقافي بها .

1998- 1999 : عمل محررًا ثقافيًا في جريدة «أخبار الأدب».

1996- 1998 :عمل محررا ثقافيًا ورساما في جريدة «العربي الناصري».

1995- 1998 : عمل مراسلًا لجريدة «القدس العربي» اللندنية ، ومراسلًا لجريدة «البيان» الإماراتية .

1995-1997: عمل محررا ثقافيًا ورساما في جريدة «الشعب» المصرية.

1991 -1996 : شارك بالعديد من المقالات الثقافية والرسوم، في العديد من الجرائد المصرية منها :«مصر الفتاة» و «الأحرار» .

خبرات أخرى :

- الإشراف العام على سلسلة كتاب دبي الثقافية، وأصدر منها 33 كتابًا.
- نشرت له العديد من الموضوعات والمقالات الصحفية والدراسات في عدد من الصحف والمجلات العربية المهمة، مثل : القدس العربي - البيان الإماراتية - الجزيرة السعودية - مجلة العربي - مجلة سطور - الثقافة الجديدة - مجلة نزوى.. وغيرها..
- ألقى العديد من المحاضرات والأبحاث في فعاليات ثقافية مختلفة، مثل: بينالي الشارقة الدولي - السفارة المصرية في أبوظبي - الجمعية العمانية للفنون التشكيلية - المؤتمر الأول للنقد التشكيلي بالإسكندرية - ندوة مستقبل الفنون الجميلة بالقاهرة.

- تمت استضافته كثيرًا في البرامج التلفزيونية والإذاعية المختلفة؛ للحديث عن قضايا الأدب والفن والفكر والصحافة.
- شارك بلوحاته في عدد من المعارض الفردية والجماعية بالقاهرة.
- أسس فرقة «تمرد» المسرحية، وأسهم بنشاط في حركة مسرح الشباب في الثمانينيات وأوائل التسعينيات بالقاهرة بالتمثيل والإخراج.
- تم تكريمه من قبل عدة هيئات ثقافية، مثل: النادي الثقافي العربي بالشارقة، ووزارة الثقافة اليمنية، والمركز الكوري للثقافة العربية والإسلامية بكوريا الجنوبية، بالإضافة إلى جمعية عمان للفنون التشكيلية بسلطنة عمان؛ وذلك لنشاطه الإعلامي والثقافي.

الجوائز:

- جائزة أفضل مقال صحفي في الصحافة الإماراتية عام 2004، التي تنظمها مؤسسة تريم عمران الصحفية بدولة الإمارات العربية .
- جائزة «الموظف المبدع» التي تنظمها دار «الصدى» ، دولة الإمارات العربية، عام 2000.
- الجائزة الأولى لجمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين - الدورة الأولى عن بحثه« تاريخ الرسم الصحفي في مصر» ، جمهورية مصر العربية، 1998.

الإصدارات:

1- كتاب «الأخضر والمعطوب» - «مؤسسة أخبار اليوم»- 2009- جمهورية مصر العربية.

2- رواية «من فرط الغرام» عن «دار الهلال» - يونيو 2008 - جمهورية مصر العربية

3- رواية «أزمنة من غبار» عن «دار الهلال» - فبراير 2006 - جمهورية مصر العربية.

4- «تاريخ الرسم الصحفي في مصر» - دار «ميريت» بالتعاون مع جمعية «أصدقاء أحمد بهاء الدين» بالقاهرة، جمهورية مصر العربية، 2002.

5- «ملامح وأحوال.. قراءة في الواقع التشكيلي المصري» صدر عن المجلس الأعلى للثقافة بمصر، جمهورية مصر العربية، عام 2000.

عضو في الهيئات والمنظمات الآتية :

1- عضو اتحاد كتاب مصر.

2- عضو نقابة الفنانين التشكيليين في مصر.

3- عضو الجمعية المصرية لنقاد الفن التشكيلي.

4- عضو أتيليه القاهرة للفنانين والكتاب.

5- عضو جمعية الصحافيين بالإمارات.

6- عضو نادي دبي للصحافة.

7- عضو الهيئة الاستشارية لأول مركز ثقافي عربي في شرقي آسيا في كوريا الجنوبية.

تصميم الغلاف: حسين جبيل

رواية

العاطل

"ياه... ثلاثون عامًا لم أحصد فيها سوى مرارات خيبة جنسية مزعجة ومخجلة.. ثلاثون عامًا لم أكتب فيها جملة عشق واحدة تقرّبًا لأي فتاة، كما يفعل المحبون على مر العصور.. ثلاثون عامًا لم أنتظر بشغف مقدم فتاة على أول الطريق.. ثلاثون عامًا لم أضبط نفسي فيها شاردًا، أفكر في ملامح حبيبة أو معشوقة...".

جرى العرف على أن يقصد بـ " العاطل " الشخص الذي لايمارس مهنة أو عملاً ما.. ولكن الجدلية الرائعة كانت فيما جدله " ناصر عراق " من حبالٍ وأسباب أكثر من مهنة لهذا " العاطل " .. فكان محللاً سياسيًا وناقدًا فنيًا ومنظرًا اجتماعيًا، وبانوراما متعددة المهام والأبعاد والألوان والرؤى .. بشكل حكائي مكثف رائع يجعلك تتمنى بصدق أن تكون "عاطلاً" مثله..

... كيف كان ذلك ؟

لن تجد الإجابة إلاّ بين سطور " العاطل "...

الدار المصرية اللبنانية